الألف كتاب (الثانى) ١٠١

القبيلة الثالثة عشرة
ويهود اليوم

تأليف : آرثر كيستلر
ترجمة : أحمد نجيب هاشم



القبيلة الثالثة عشرة

ويهود اليوم

تأليف
آرثر كيستلر

ترجمة
أحمد نجيب هاشم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

THE THIRTEENTH TRIBE

BY

ARTHUR KOESTLER

مقدمة بقلم المترجم

آرثر كيستلر مؤلف هذا الكتاب أديب موسوعى الثقافة قبلته انجلترا لاجئا قبيل الحرب العالمية الثانية وصار من كتابها المشهورين وهو يهودى من أب مجرى وأم نمساوية ، ولد فى بودابست سنة ١٩٠٥ فى أسرة متوسطة الحال ، وكان الابن الوحيد لوالديه ــ ولما بلغ التاسعة من عمره انتقلت الأسرة الى النمسا بسبب ضائقة مالية نزلت بها اثر قيام الحرب العالمية الأولى فأكمل آرثر تعليمه الأساسى فى فيينا ، وأقبل بصفة خاصة على دراسة العلوم واللغات الأجنبية ثم التحق فى العاصمة نفسها بالمعهد الفنى العالى لدراسة العلوم الهندسية وكان بهذا المعهد جماعات شتى للنشاط الطلابى ، اختار هو منها الرابطة الصهيونية للمبارزة ، وما لبث أن أصبح عضوا فى حزب صهيونى يرأسه روسى من « أودسا » اسمه فالديمير جابوتنسكى ، الذى راح ينادى بضرورة هجرة اليهود الى فلسطين ، وقد شغله هذا النشاط عن اتمام دراسته العالية فغادر المعهد سنة ١٩٢٦ وقصد فلسطين بوصفه عضوا من أعضاء حزب جابوتنسكى وهناك التحق بمزرعة جماعية وبعد أن قضى بها فترة تحت التجربة ثبت فشله فانتقل الى حيفا وعمل بائعا لعصير الليمون ثم عمل فى شركة للسياحة فى تل أبيب ، ولكنه لم يلبث طويلا فى فلسطين فغادرها الى برلين وهناك اختارته مؤسسة أولشتين الألمانية ليكون مراسلا لعدد من الصحف التى تمتلكها ، وجعلت مقره فى الشرق الأوسط ثم فى باريس ثم فى برلين . وبفضل هذه المؤسسة كان هو الصحفى الوحيد الذى انضم لبعثة زبلن القطبية سنة ١٩٣١ . وافتتن آرثر وهو فى سن الشباب المتوهج بالمبادىء اليسارية فانضم فى آخر سنة

١٩٣١ الى الحزب الشيوعي الألماني وعندئذ فصلته مؤسسة أولشتين من خدمتها ثم قام في خلال سنتي ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ برحلات في الاتحاد السوفيني فتجول في أوكرانيا وآسيا الوسطى السوفيتية من باكو الى حدود أفغانستان وطشقند ، وقابل في موسكو عددا من قادة السوفييت كان من بينهم كارل رادك ونيقولا بوخارين اللذان تركا أثرا عميقا في نفسه ٠

وقام في عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ بثلاث رحلات الى أسبانيا عقب اندلاع الحرب الأهلية فيها ، وهناك عمل مراسلا لصحيفة « نيوز كرونكل » اللندنية مؤيدا لليساريين المناهضين للنظم الفاشية حتى قبض عليه في « مالقة » أنصار الجنرال فرانكو بعد أن سقطت هذه المدينة في أيديهم في فبراير سنة ١٩٣٧ وسجن في أشبيلية وحكم عليه بالاعدام ، ولكنه نجا من تنفيذ هذا الحكم عليه نتيجة لتدخل الحكومة البريطانية ٠ وفي سنة ١٩٣٨ واصل عمله مراسلا لجريدة نيوز كرونكل اللندنية في باريس وأثينا وفلسطين ، وفي هذا العام نفسه استقال من الحزب الشيوعي بعد أن أدرك مآسي المحاكمات التي أجراها ستالين في الاتحاد السوفيتي ، واستقر في انجلترا ، وعمل في وزارة الاستعلامات البريطانية وكتب في تلك الفترة روايته « ظلام في الظهيرة » وهي رواية سياسية ترجمت الى أكثر من ثلاثين لغة ولقيت رواجا كبيرا مثلها مثل رواية (١٩٨٤) لزميله وصديقه الكاتب الانجليزي جورج أورويل الذي اشترك مثله في الحرب الأهلية الاسبانية ورأى فظائع الأحزاب السياسية اليسارية وأهوالها فعاد يحذر الأجيال من طغيانها ومن مستقبل مظلم تعده الآراء اليسارية للعالم » (١) والطريف أن كيستلر فعل الشيء نفسه ٠ وقد كتب الدكتور زكي نجيب محمود في مقال بصحيفة الأهرام في عددها الصادر يوم ٧ يناير ١٩٨٦ : « ان رواية (ظلام في الظهيرة) قوية التصوير ناصعة البيان كتبها كيستلر في لحظة تحوله من يسار السياسة الى يمينها ، فقد كان شيوعيا متطرفا وشارك في الحرب الأهلية الاسبانية في أواخر الثلاثينيات على ذلك الأساس ٠ وكان يحلم مع سائر الحالمين بأن جنة الله قد أوشكت على الظهور فوق الأرض ٠ ولكنه لم يلبث على أحلامه تلك الا قليلا حتى تجهمت سماء السياسة في وجهه وأظلمت الدنيا ساعة الظهر » ٠ وذاق كارل رادك ونيقولا بوخارين وعدد من قادة الثورة الروسية مرارة الاعتقال ، ورأوا ظلمة السجن بغير ذنب يعرفونه وحكم عليهم بالاعدام

---

(١) العالم سنة ١٩٨٤ تأليف جورج أورويل ـ ترجمة شفيق أسعد فريد وعبد الحميد الديب ـ الألف كتاب ١٩٥٦ ٠ ادارة الثقافة العامة ـ وزارة التربية والتعليم ٠

بعد محاكمات صورية أمر بها الطاغية ستالين سنة ١٩٣٨ · وعن تلك الفترة كتب كيستلر روايته « ظلام في الظهيرة » ·

أما كتابه الذى بين يديك « القبيلة الثالثة عشرة » فقد قال عنه الكاتب الكبير أنيس منصور انه أحسن كتاب قرأه في سنة ١٩٧٧ وذلك في تحقيق صحفى أجرته أخبار اليوم مع عدد من قادة الفكر ونشرته في عددها الصادر في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٧٧ · فالكتاب دراسة تاريخية عميقة عن دولة الخزر اليهودية التى ظهرت فى العصور الوسطى وما خلفته من أثر على العالم المعاصر وعلاقتها بيهود اليوم ـ وقد بلغت هذه الدولة أوج مجدها فى الفترة الممتدة من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى حيث امتدت حدودها وقتئذ من البحر الأسود الى « بحر قزوين » ومن « القوقاز » الى « الفولجا » وكانت عاصمتها « اتل » تقع على نهر « الفولجا » ·

وأدرك الخزر دقة موقعهم بين قوتين عظميين : الامبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية من جهة ، والامبراطورية العربية الاسلامية من جهة أخرى . فكانوا هم بمثابة القوة الثالثة في عصرهم · وحرصا على حماية دولتهم من ضغط المسيحية والاسلام فقد رأى « الخاقان » الذى حكمهم فى منتصف القرن الثامن الميلادى اعتناق الديانة اليهودية هو وحاشيته وشعبه ، ويلاحظ أنه حتى قبل تحول الخزر الى اليهودية كانت بلادهم المأوى الطبيعى لهجرات جماعات اليهود التى وفدت اليها هربا من اضطهاد الحكام البيزنطيين ، بل كانت أشبه بوطن قومى لليهود ، كما ضمت بلاد الخزر أيضا عددا كبيرا من المسلمين والمسيحيين ، يقول المؤرخ العربى المسعودى الذى أطلق عليه الأوربيون لقب هيرودوت العرب « وفى المدينة « اتل » خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية (أى الوثنيين) ، فأما اليهود ، فالملك وحاشيته والخزر من جنسه ـ وكان تهود ملوك الخزر فى خلافة هارون الرشيد · وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ـ وذلك ان ملك الروم نقل من كان فى ملكه من اليهود الى دين النصرانية وأكرههم ···· وقد ألف ملك الخزر فى جيشه فرقة ضاربة من المسلمين وهؤلاء يعرفون « باللارشية » وهم قبيلة من نحو بلاد خوارزم وكان فى قديم الزمان بعد ظهور الاسلام وقع فى بلادهم جدب ووباء ، فانتقلوا الى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة وعليهم يعول ملك الخزر فى حروبه ، وأقاموا فى بلده على شروط بينهم : أحدها اظهار الدين والمساجد والآذان ، وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم وثالثها انه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا فى عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ويحاربون سائر الناس

غيرهم » (١) ـ وكانت هناك علاقة وثيقة بين الخزر ومؤسس الأسرة السلجوقية فقد كان « توركاك » أبو سلجوق قائدا فى جيش خاقان الخزر .

ولعب الخزر دورا هاما فى السياسة الدولية وحرص حكام الامبراطورية الرومانية الشرقية على التحالف معهم طيلة الفترة الممتدة من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى ، وكثيرا ما اشترك الخزر فى حروب ضد أعداء الامبراطورية البيزنطية التى تدين لهم بكثير من الفضل فى بقائها صامدة أمام الهجمات المتتالية التى شنها عليها الفرس من جهة والعرب من جهة أخرى ، ووقف الخزر سدا منيعا حال دون زحف العرب نحو القوقاز ، ويقول بعض المؤرخين انه لولا وجود الخزر فى الاقليم الشمالى من القوقاز لطوق العرب بيزنطة ـ بيد أنهم أقاموا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى علاقات ودية مع الخلافة الاسلامية وحرصوا على المحافظة عليها ٠

وفى عصر ساد فيه التعصب والجهل والفوضى فى أوربا الغربية وغلبت البربرية على الشعوب التى أحاطت ببلاد الخزر فى شرقها ، كان الخزر شعبا عصريا متقدما متحررا من الأحقاد القومية ومفتوحا لمختلف الثقافات والأديان له حكومته العادلة المتسامحة وفنونه التى تأثرت بالفنون الفارسية الساسانية وله جيشه القوى وتجارته الواسعة ٠ وكثيرا ما نواجد التجار الخزر فى القسطنطينية والاسكندرية بل وفى جهات أخرى نائية مثل «سامراء» و «فرغانة» (٢) يقول المسعودى « جرى العرف فى اتل عاصمة الخزر أن يكون بها سبع قضاة منهم اثنان للمسلمين يفصلون فى القضايا طبقا للشريعة الاسلامية ، واثنان للخزر يفصلان فى القضايا بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية (الوثنية) يحكم بأحكام الجاهلية ٠ وهى قضايا عقلية فاذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا الى ما توجبه شريعة الاسلام٠٠٠ وفى بلاد ملك الخزر خلق من المسلمين تجار وصناع غير « اللارشية » ٠٠٠ لعدله وأمنه ولهم مسجد جامع والمنارة (المئذنة) تشرف على قصر الملك ولهم مساجد أخرى فبها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن (٣) ٠

وقد قضى الروس على امبراطورية الخزر فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، ودمروا عاصمتهم « اتل » ، ولكن الخزر ظلوا محتفظين باستقلالهم داخل حدود أضيق عن ذى قبل ، شأنهم فى ذلك شأن ما حدث

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ص ١٥١ ـ ١٥٢ جـ ١ ٠

(٢) دوجلاس دانلوب : تاريخ الخزر اليهود (بالانجليزية) ٠

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ص ١٥١ ـ ١٥٢ جـ ١ ٠

لامبراطوريه النمسا والمجر عقب الحرب العالمية الأولى ، التى قضت على هذه الامبراطورية ولكنها لم تقض على النمسا بوصفها دولة مستقلة أجل — ظل الخزر محتفظين باستقلالهم الى أن سقطت بلادهم فريسة لغارات المغول بزعامة «جنكيزخان» فى منتصف القرن الثالث عشر — وجدير بالذكر انهم كانوا قبل هذا الغزو وبعده قد أرسلوا فروعا كثيرة من سلالتهم الى البلاد الصقلية التى لم تقع فى يد المغول . وساهموا بالتالى فى تكوين جاليات يهودية كبيرة فى شرق أوربا .

ويوضح كيستلر فى النصف الثانى من مؤلفه هذا أثر الخزر فى تكوين اليهود المعاصرين ، وخلاصة ما ينتهى اليه أن غالبية اليهود الحاليين ليسوا من أصل آسيوى ، أى انهم ليسوا من الأسباط (القبائل) الاثنتى عشرة نسل يعقوب الوارد ذكرها فى التوراة (١) بل انهم ينحدرون من الخزر (القبيلة الثالثة عشرة) ، الذين انتشرت ذريتهم فى كثير من دول شرق أوربا وخاصة بولندة والمجر وروسيا — أى انهم لم يجيئوا من فلسطين بل من القوقاز — بعبارة أخرى فان مصطلح معاداة السامية لم يعد له معنى فى ضوء هذه الحقيقة .

وفى هذا الصدد لم يفت المؤلف أن يشير الى ان الأستاذ ابراهام بولياك اليهودى الروسى الأصل والذى هاجر مع أبيه الى فلسطين سنة ١٩٢٣ ثم أصبح فيما بعد أستاذ التاريخ اليهودى فى جامعة تل أبيب وأصدر مؤلفات كثيرة منها « تاريخ العرب » و « تاريخ الاقطاع فى مصر » — قد نشر من قبل أبحاثا عن الخزر وتحولهم الى اليهودية ، أثارت بدورها جدلا كبيرا حيث هاجم فيها الفكرة القائلة بانحدار اليهود الحديثين من القبيلة التوراتية وهدم بذلك أسطورة الشعب المختار . يقول الدكتور حسين فوزى النجار : « اذا كان بنو اسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء اليهم وحدهم وحين عمت الرسالة انسحب الاختيار الى كل من آمن بالله واليوم الآخر ، اسرائيليا كان أم مسيحيا أم مسلما ، والمختار هو المختار للرسالة وليس للتميز أو التفضيل على البشر » (٢) .

كذلك قرر كيستلر أن الأستاذ النمساوى هوجو فرير فون كوتشيرا (١٨٤٧ — ١٩١٠) أثبت فى بحثه عن الخزر ، أن يهود شرق أوربا ينحدرون

---

(١) الأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وسموا أسباطا بالنسبة لاسحق وابراهيم عليهما السلام . والأسباط فى بنى اسرائيل كالقبائل فى العرب من ولد اسماعيل — : صفوة البيان لمعانى القرآن جـ ١ ص ٤٨ للشيخ حسنين مخلوف .

(٢) د. حسين فوزى النجار : أرض الميعاد ص ٧٤ الطبعة الأولى ١٩٥٩ .

منهم ـ والأستاذ كوتشيرا مؤرخ ثقة درس فى أكاديمية الدراسات الشرقية فى فيينا ، وألم الماما طيبا باللغات التركية والعربية والفارسية ، وعمل بالسلك الدبلوماسي بسفارة امبراطورية النمسا والمجر فى استانبول ، ثم عين مراقبا لاقليم البوسـنه والهرسك الذى كان قبـل الحرب العالمية الأولى تحت احتـلال امبراطورية النمسا والمجـر ـ وقد سحر كوتشيرا الكثيرين بعلمه الواسع وقدراته اللغوية والحق انه فى مؤلفه الذى نشر بعد وفاته لم يترك مصدرا عربيا معروفا حتى سنة ١٩١٠ دون أن يرجع اليه ٠

وجدير بالذكر ان الدكتور محمد عوض محمد وهو من العلماء المصريين الذين عالجوا هذا الموضوع يقرر « ان الذين يزعمون ان اليهود جميعا من سلالة اسرائيل (يعقوب) ، قلما يقفون لحظة واحدة لكى يدركوا ان هذا الوهم لو كان صحيحا لكان اليهود جميعا فى أنحاء العالم متشابهين فى السحنة والمنظر والتقاطيع ـ ولو نظرنا الى اليهود فى مختلف أقطار العالم اليوم لوجدنا بينهم الشقر ذوى العيون الزرقاء والشعر الأصفر ، ورأينا بينهم السمر ذوى الشعر المجعد فى هضبة الحبشة والصفر المغول فى الصين ـ ورأينا بينهم الطوال القامة والقصـار وذوى الرءوس الطويلة والعريضة ، ويوشك ألا يكون هناك اختلافات بين السلالات البشرية أكبر مما تجده بين الجماعات اليهودية فى مختلف القارات وليس مما يقبله العقل أن تكون هذه الطوائف كلها من سلالة جنسية واحدة » (١) ٠

وقد رجع مؤلف « القبيلة الثالثة عشرة » الى مصادر أصيلة عربية وبيزنطية وروسية ، والى أبحاث مؤرخين حديثين عديدين تحدث عنها كلها بشىء من التفصيل فى ملاحق أوردها فى نهاية كتابه ورأيت أن ألخص فى هذه المقدمة ما جاء فى تلك الملاحق حتى يلم القارىء العربى بمضمونها ٠

المصـادر العربيـة :

ان البيـانات التى ذكرها المؤلف عن الخزر والشعوب التى أحاطت بهم استمدها أساسا من رسالة « ابن فضلان » ومن مؤلفات العديد من الكتاب العرب أمثال البلخى والاصطخرى والمسعودى والبكرى وابن مسكويه وابن رسته واليعقوبى وابن النديم والدمشقى وابن العديم وابن حوقل وياقوت ٠ وكان ابن فضلان هو الوحيد الذى كتب عن حقائق وأحـداث

(١) د٠ محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاسـتعمارية ص ١٣٨ ـ ١٣٩ الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٥٧ ٠

شاهدها بنفسه حيث كان الخليفة العباسى المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٢ م ، ٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) قد أوفده فى سنة ٣٠٩ (٩٢١ م) عضوا فى بعثة الى ملك الصقالبة (بلغار الفولجا) تلبية لطلب هذا الأخير ، « بأن يرسل الخليفة اليه بعثة من قبله تفقهه في الدين وتعرفه شرائع الاسلام ، وتبنى له مسجدا ، وتنصب له منبرا يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وسأله الى ذلك أن يبنى له حصنا يتحصن فيه من الملوك المخالفين » له وقد بسط ابن فضلان الملوك المخالفين له فقال : « انهم ملوك الخزر وهم من اليهود كانوا يعتدون على قومه ، ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها من كل بيت فى المملكة جلد سمور ، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا ، والخزرى يهودى وابنة الصقلبى مسلمة » (١) ٠

وقد حرص ابن فضلان على تدوين مذكراته أولا بأول طيلة رحلته التى دامت سنة تقريبا ، وضمنها وصفا خلابا للعادات والتقاليد والحياة فى مختلف المناطق التى مر بها فى طريقه ٠

وأشاد المؤلف بابن حوقل الذى كتب مؤلفه « صورة الأرض » حوالى سنة ٩٧٧م ويقول انه طور الكتابة تطويرا ملموسا حيث لم يعد النص قاصرا على التعليق على ما ورد فى الخرائط كما كان الحال مع البلخى والى حد ما مع الاصطخرى ، ولكن جاءت روايته للأحداث فى تسلسل واضح ، ويقرر المؤلف أن ابن حوقل كان المصدر الرئيسى لكل الروايات التى ذكرت أن الروس أغاروا على بلاد الخزر فى القرن العاشر الميلادى وضربوها ودمروا خزران وسمندر واتل فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة (هجرية) ، والروس قوم همج سكان بناحية بلغار فيما بينهم وبين الصقالبة على نهر اتل ٠٠٠ والخزر اسم لاقليم وقصبته تسمى اتل واتل (الفولجا) اسم النهر الذى يجرى اليهم من الروس وبلغار ويفيض فى بحر الخزر ٠٠٠ والبلد قطعتان احداهما غربى النهر وهى أكبرهما والأخرى شرقيه والملك يسكن فى الغربية منهما وتسمى اتل ٠٠٠٠ وتكون القطعتان فى الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور غير انها مفترشة البناء وأبنيتهم كالخركاهات من خشب يلبود الا شيئا يسيرا بنى من طين ، ولهم أسوار وحمامات ، وفيهم خلق من المسلمين يقال انهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ، وبها نحو ٣٥ مسجدا ، وقصر ملكهم بعيد عن النهر وهو من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره

---

(١) سامى الدهان : رسالة ابن فضلان ـ وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ص ٢٢ ـ ٢٣ ـ مطبوعات المجمع العلمى العربى ـ دمشق ١٩٦٠ ٠

ولا يسوغ الملك ذلك لغيره والملك يهودى ويقال ان له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل (١) ، وضمن ياقوت (١١٧٩ ـ ١٢٢٩م) موسوعته الجغرافية التاريخية « معجم البلدان » معظم ما ذكره ابن فضلان والاصطخرى عن الخزر ومن ثم جاءت رواياتهم متطابقة فى مواضع كثيرة ٠ كما تماثلت روايات ابن رسته والبكرى عنهم أيضا ـ وأورد المؤلف كستلر نبذة عن سيرة حياة ياقوت فقال انه ولد فى اليونان وعرض للبيع عبدا رقيقا فى سوق بغداد حيث اشتراه تاجر من حماه أحسن مثواه واستخدمه بائعا طوافا لتسويق بضاعته وبعد أن توفى هذا التاجر وأصبح ياقوت حرا اشتغل بتجارة التكب وراح يتنقل من بلد الى آخر حتى استقر به المقام فى الموصل ، وهناك عكف على كتابة موسوعته الخالدة « معجم البلدان » ٠

المصـــادر البيزنطيـــة :

من أهم المصادر البيزنطية التى أشار اليها كستلر مؤلفات الامبراطور البيزنطى المؤرخ قسطنطين السابع بورفيرو جينيتوس (٢) (٩٠٤ ـ ٩٥٩م) ولا سيما كتابه « بشأن ادارة شئون الامبراطورية » الذى كتبه حوالى سنة ٩٥٠ وحوى الكثير من أخبار الخزر وعلاقتهم بالمجريين وكذا أخبار الروس وأهل السهوب الشمالية ـ وقد استقى الامبراطور رواياته من تقارير موظفيه ومبعوثيه ، الحق ان قسطنطين كان امبراطورا مثقفا افتتن به عميد المؤرخين الحديثين أرنولد توينبى منذ كان طالبا بالجامعة ، وظل مولعا بدراسته حتى أصدر عنه مؤلفه فى سنة ١٩٧٣ وهو فى الرابعة والثمانين من عمره ـ وقد تناول فيه شخصية قسطنطين وأعماله وأحوال العالم الذى عاش فيه بما فى ذلك بلاد الخزر ٠

المصـــادر الروســية :

كانت الحولية الروسية هى أقدم مصدر روسى رجع اليه مؤلف هذا الكتاب ـ واسمها الأصلى باللغة الروسية Revezt Vremennik أى قصة « السنوات الغابرة » وقد تم جمعها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر والواقع انها نسخة معدلة لحوليات أقدم ترجع الى بداية القرن الحادى عشر أو القرن العاشر ويقرر المؤرخ فرنادسكى انها تتضمن بيانات صادقة عن الفترة الممتدة من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى ، وهى

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض طبعة لايدن سنة ١٩٣٩ تحقيق كرامرز ومجموعة من متشرقين هم بلاشير وجب وكاله ودى جوى ص ١٥ ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ ٠

(٢) ومعناها الارجوانى ٠

فترة هامة بالنسبة لتاريخ الخزر ويقال ان الذى تولى جمع هذه الحولية راهب من مدينة كييف اسمه نستور عاش فى القرن الحادى عشر وتنتهى أخبار هذه الحولية عند سنة ١١١٢ ٠

الرســـائل الخــزرية :

ومن الوثائق التى عنى المؤلف بالحديث عنها رسالة بالعبرية بعث بهـــا من الأندلس اليهـــودى حســـداى بن شبروط طبيب ووزير الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ ، ٩١٢ ــ ٩٦١ م) الى يوسف ملك الخزر اليهودى مثله ، ورد هذا عليه وكان ابن شبروط قد ضمن رسالته الى الملك عددا من الأسئلة طلب اليه فيها أن يوافيه ببيانات عن بلاده وشعبه وجيشه ونظام حكمه ويقول انه علم من بعض تجار خراسان أن هناك مملكة يهودية تدعى مملكة الخزر وأوضح أنه لو تأكد من رد الملك عليه أن هذا الخبر صحيح فانه لن يتردد في أن يتخلى عن كل ما يتمتع به من امتيازات في الأندلس ويهاجر الى مملكة الخزر التى يتمنى أن تكون موطنا لليهود . وينخرط فى خدمة مليكها رغم انه آكد له أن اليهود فى الأندلس ينعمون بحياة سعيدة ، والواقع انهم نعموا بحياة رغدة ولم يلقوا أى ضرب من ضروب الاضطهاد فى ظل الدولة العربية فى جميع ممالكها وفروعها ، بل انهم مزجوا ثقافتهم بالثقافة العربية وعاشوا بين العرب فى هدوء وأمان فى حين أنهم لقوا أنواعا شتى من الاضطهاد فى كثير من البلاد الأوربية خلال العصور الوسطى فطردوا من انجلترا سنة ١٠٩٢ كما طردوا من فرنسا سنة ١٣٠٦ فى عهد الملك فيليب لوبل حتى قيل انه بحلول نهاية القرن الرابع عشر كانت فرنسا نظيفة من اليهود مثلها مثل انجلترا وألمانيا ٠

ويقول كيستلر ان أقدم الاشارات المعروفة الى الرسائل الخزرية يرجع تاريخها الى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ففى سنة ١١٠٠ أصـدر يهودا بارزيلاى حاخام برشلونة مؤلفه « كتاب الأعياد » باللغة العبرية ذكر فيه أنه اطلع على عدد من المخطوطات من بينها نسخة تتضمن رد الملك يوسف ملك الخزر على رسالة حسداى ورغم أنه أبدى بعض الشك فى صحة تلك النسخة الا أنه اقتبس منها عبارات طويلة ٠

وقبيل الوقت الذى كتب فيه الحاخام بارزيلاى كتابه سالف الذكر كتب المؤرخ العربى ابن حوقل على خريطة رسمت سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) أنه علم باتصال حسداى بالخزر وذهب الى القول ان حسداى زار بلادهم وأغلب الظن أن ابن حوقل علم برسالة حسداى التى عبر فيها عن أمنيته فى أن ينتقل الى بلد يوسف ملك الخزر اليهودى ليكون فى خدمته وكذا

برد الملك عليه مرحبا بقدومه فظن أن حسداى ذهب فعلا الى الملك يوسف ٠

وفي سنة ١١٤٠ كتب يهودا هاليفي أشهر شاعر عبرى في الأندلس وقتئذ بحثا باللغة العربية عن الخزر ، ويلاحظ ان ما ذكره فيه عن تحولهم الى اليهودية يتفق فى خطوطه العريضة مع ما ورد فى رد الملك يوسف على رسالة حسداى ويحتمل أن يهودا اطلع هو أيضا على نسخة من هذا الرد ، وان كان الدليل على ذلك غير حاسم — بيد ان الرحالة اليهودى ابراهام ابن داود أوضح فى مؤلفه كتاب القبالة Sefer ha-Kabbalah سنة ١١٦١ أنه في حوض نهر اتل يعيش الخزر الذين تحولوا الى اليهودية ، وان ملكم يوسف أرسل خطابا الى حسداى بن شبروط ردا على رسالته اليه ، روى له فيه قصة اعتناقه وشعبه اليهودية ٠ وأضاف ابن داود بأنه رأى فى طليطلة فى أثناء رحلته فى أسبانيا عددا من هؤلاء الخزر يقال انهم أبناء أمرائهم جاءوا اليها طلبا للعلم ، الأمر الذى يذكرنا بما يفعله اليوم أبناء شعوب كثيرة فى الالتحاق بجامعات الدول العظمى ٠

ويذكر المؤلف انه توجـــد بالمكتبة العامة لمدينة ليننجراد بالاتحـاد السوفيتى مخطوطة باللغة العبرية ترجع الى القرن الثالث عشر الميـلادى تتضمن رد الملك يوسف فقط دون خطاب حسداى اليه وأن النص الوارد فيها أطول من النص الذى طبع لأول مرة فى القسطنطينية (حوالى سنة ١٥٧٧) فى نشرة أصدرها يهودى اسمه ابراهام اسحاق عكريش حيث أورد فيها نصا قصيرا لكل من رسالة حسداى ورد الملك عليه ، وكتب فى المقدمة التى صدر بها هذه النشرة أنه فى أثناء رحلته فى مصر سنة ١٥٦٢ سمع عن وجود مملكة يهودية مستقلة وأنه حصل بعد ذلك على صورة من خطاب تلقاه ملك الخزر وأخرى من رده على تلك الرسالة فقرر طبعهما ونشرهما كى يرفع من معنويات زملائه اليهود ٠

وتحتفظ مكتبة بودليان بجامعة اكسفورد بنسختين من الرسالتين اللتين نشرهما عكريش ، وهما فى طبعتين مختلفتين كمـا تحتفظ كليـة كرايست تشرش بالجامعة نفسها بمخطوطة أخرى تحوى نص الرسالتين ونصها كثير الشبه بالنص الذى نشره عكريش ، ويرجح بعض المؤرخين انها كانت بطريق مباشر أو غير مباشر ، المصدر الذى نقل عنه عكريش محتويات النص القصير الذى نشره ٠

والنص المطول الوارد فى المخطوطة المحفوظة بمكتبة ليننجراد هو فى الأصل جزء من مجموعة وثائق تعرف بمجموعة الأستاذ الروسى فيركوفتش وهو من طائفة اليهود القرائين ، ويحتمل انه حصل على وثيقة النص المذكور من مجموعة الوثائق العبرية التى كانت مودعة فى المعبد اليهودى بالقاهرة

والمعروفه باسم جمموعة جنيزة القاهرة(١) - وبعد وفاة الأستاذ فيركوفتش قام زميله الأستاذ هاركافي في سنة ١٨٧٩ بنشر وثيقة النص العبرى الطويل ومعه ترجمة الى اللغة الفرنسية وأخرى الى الألمانية وفى سنة ١٩٣٢ نشرت الأكاديمية الروسية كتابا للأستاذ كوكوفتسوف بعنوان « الرسائل العبرية الخزرية فى القرن العاشر » ضمنه صورا طبق الأصل للنص الطويل لرد الملك يوسف وكذا النص القصير المودع فى مكتبة كلية كرايست تشرش والوارد أيضا فى النشرة التى أصدرها عكريش والطريف انه فى سنة ١٩٤١ أعلن الأستاذ بولياك أستاذ تاريخ اليهود بجامعة تل أبيب أن تلك الرسائل الخزرية هى مجرد عمل قصصى كتب فى القرن العاشر بهدف التعريف بمملكة الخزر اليهودية والدعاية لها ولكن سرعان ما دحض هذا الرأى الأستاذ دوجلاس دانلوب الأستاذ بجامعة كولومبيا ·

المصادر الحديثة :

وعلاوة على نلك المصادر الأصيلة فقد حرص المؤلف على الرجوع الى أبحاث عدد من المؤرخين الحديثين البارزين الذين عالجوا ناحية من نواحى تاريخ الخزر وعلاقاتهم بالشعوب التى أحاطت بهم ، أمثال دوجلاس دانلوب وتوينبى وبيورى وبارون ومكارتنى وفرنادسكى وكاله Kahle (١٨٧٥ـ ١٩٦٥) الذى تحدث عنه طويلا فى أحد ملاحق الكتاب ، فوصفه بأنه أحد كبار المستشرقين الأوربيين - ولد فى بروسيا الشرقية ودرس اللاهوت ، وعمل راعيا للكنيسة اللوثرية فى القاهرة لمدة ست سنوات ، ثم اشتغل بالندريس فى جامعات ألمانيا وأصبح فى سنة ١٩٢٣ مديرا لمعهد الدراسات الشرقية فى جامعة بون حتى أجبره النازيون على الرحيل من ألمانيا سنة ١٩٣٨ رغم أنه انحدر من أصل آرى فقصد انجلترا واستقر به المقام فى جامعة اكسفورد التى منحته درجة الدكتوراه فى الفلسفة وأخرى فى اللاهوت وأصدر عددا من المؤلفات منها دراسة لمجموعة الوثائق العبرية المحفوظة فى المعبد اليهودى بالقاهرة والمعروفة باسم مجموعة الجنيزة وكذا مؤلفه الذى تناول فيه لفائف بردى البحر الميت · وقد عنى الأستاذ كاله بتاريخ الخزر وشجع تلميذه الاسكتلندى الأصل دوجلاس دانلوب على القيام بأبحاث فيه وكان هذا ملما بعدة لغات منها العربية والعبرية فنشرت له جامعة برنستن فى سنة ١٩٥٤ مؤلفه عن « الخزر اليهود » وأصبح دانلوب أستاذا لتاريخ الشرق الأوسط فى جامعة كولومبيا وعنه اقتبس المؤلف الكثير من الروايات التى جاءت فى المصادر العربية ·

---

(١) تؤكد هذه الوثائق أن يهود البلاد العربية والاسلامية كانوا يعيشون فى تسامح تام حتى وصلوا الى مكانة طيبة من الغنى والجاه وشغلوا الوظائف الرئيسية ·

د· حسين مؤنس - « عالم الاسلام » ص ٢٩٧ - ٢٩٩ ·

ومن تلاميذ كاله البارزين الأستاذ الدكتور أحمد زكى وليدى طوقان وهو من جمهورية باشكير بالاتحاد السوفيتى وكان قد درس فى جامعة كازان وقام قبل الحرب العالمية الأولى بأبحـاث فى أكاديميه بطرسبرج واشترك فى تلك الحرب بوصفه قائدا لجيش باشكير المتحالفة مع البلاشفة كما كان عضوا فى البرلمان الروسى (الدوما) ، وعضوا فى اللجنة السداسية التى ضمت وفتئذ لينين وستالين وتروتسكى ولكن حدث أن اختلف مع البلاشفة ففر هاربا الى ايران وهناك اكتشف مخطوطة أسفار ابن فضلان فى بلدة مشهد وذلك فى سنة ١٩٢٣ ـ ومن ايران انتقل الى تركيا ، ولما كان خبيرا باللغة التركية (اللغة البشكيرية هى لغة تركية) فقد عينه الزعيم مصطفى كمال مستشارا لوزارة المعارف التركية ٠ ثم عمل أستاذا للغة التركية فى جامعة استانبول ، ولكنه استقال منها بعد سبع سنوات حين طلبت الحكومة التركية الى أساتذة الجامعة آن يلقنوا طلابهم بأن الأتراك هم أصل حضـارة العالم . ورحل زكى وليدى الى فيينا حيث عكف فى جامعتها على التخصص فى تاريخ العصور الوسطى تحت اشراف الأستاذ دوبش Dopsch وحصل منها على درجة الدكتوراه وكان موضوع البحث الذى تقدم به : « بعثة ابن فضلان الى بلاد البلغار الشماليين والترك والخزر والروس » سنة ٣٠٩ (٩٢١م) ومن فيينا توجه الى بون حيث اختاره أستاذه كاله للتدريس فى جامعتها ثم عاد فى سنة ١٩٣٩ الى تركيا واشتغل مرة أخرى أستاذا للغة التركية فى جامعة استانبول ، وهناك نشر رسالة رحلة ابن فضلان ومعها ترجمة الى اللغة الألمانية ـ وفى العام نفسه صدرت فى الاتحاد السوفيتى تحت اشراف المستشرق كراتشكوفسكى دراسة جديدة عن ابن فضلان ومعها ترجمة للرسالة الى اللغة الروسية ، وكان الروس قد نقلوها الى لغتهم قبل ذلك بما يزيد على مائة عام (١٨١٤) وقرأوها ودرسوها بوصفها مصدرا هاما من مصادر تاريخهم كما نقلها المستشرق نيكولسبن الى الانجليزية ٠

وفى سنة ١٩٦٠ قام العلامة السورى الدكتور سامى الدهان بنشر رحلة ابن فضلان فى مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقدم لها ببحث شامل تناول فيه الرحلة وصاحبها والدراسات التى صدرت عنها فى اللغات المختلفة ٠

اسرائيـــل والشـــتات :

وفى ملحق ختامى لكتاب « القبيلة الثالثة عشرة » يقول كيستلر انه على حين ان كتابه هذا يعالج التاريخ الماضى ، الا أنه يثير على نحو لا يمكن تحاشيه مضامين معينة بالنسبة للحاضر والمستقبل لعل أخطرها احتمال

تفسير رواياته تفسيرا خاطئا كأن يقال ان هذا الكتاب ينكر حق اسرائيل في الوجود ، وردا على هـذا الاتهام يقول المؤلف ان كيان دولة اسرائيل لا يستند الى أصول اليهود العرقية النظرية ولا الى ركائز عقائدهم الدينية وانما يقوم أساسا بمقتضى القانون الدولى أعنى القرار الذي أصدرته منظمة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية وأن هذا التقسيم كان نتيجة لتدفق هجرات اليهود الى فلسطين لسنوات طويلة ٠ وكان كيستلر من أنصار هذا التقسيم الذي نادى به منذ سنة ١٩٤٤ ٠

ويأمل العالم كله اليوم أن تصبح الدولة الفلسطينية المستقلة واقعا حقيقيا بفضل جهاد الفلسطينيين من أجل السلام والتأييد الدولى لقضيتهم العادلة وحقوقهم المشروعة ٠

أشرت في مستهل حديثي عن المؤلف انه موسوعى الثقافى Polymath والواقع ان المرء يدهش لمؤلفاته العديدة والتى أوردت قائمة بها فى نهاية هذا الكتاب ـ فالى جانب العدد الوفير من الروايات التى أصدرها وذاعت شهرتها كتب موسوعة عن الجنس Sex وثلاثية عن علوم الحياة تعتبر عملا خالدا له ٠ كما دعته الجامعات الأمريكية لالقاء محاضرات فيها فى علم النفس وعلم النفس الموازى Parapsychology وقد منحته جامعة كوبنهاجن جائزة كبيرة كما منحته جامعة الملكة درجة الدكتوراه فى القانون وأنعمت عليه الحكومة البريطانية بوســـام الامبراطورية من مرتبة قائد CBE.

وفى ٣ مارس ١٩٨٣ مات كيستلر منتحرا فى منزله بلندن بعد أن قاسى طويلا من مرض سرطان الدم (اللوكيميا) ومرض الشلل الرعاش وانتحرت معه سينثيا زوجته الثالثة التى تزوجها سنة ١٩٦٥ وكانت أصلا سكرتيرته الخاصة منذ سنة ١٩٥٠ وقد أوصى كيستلر أن تكون أملاكه هبة لتمويل كرسى علم النفس الموازى فى احدى جامعات المملكة المتحدة ٠

احمد نجيب هاشم

الجـــزء الأول

قيام دولة الخزر وسقوطها

« وتتكاثر فى بلاد الخزر قطعان الأغنام وتنتج من العسل كميات وفيرة ويعيش فيها العديد من اليهود » .

المقدسى (القرن العاشر الميلادى) :
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »

١ قيام دولة الخزر

١ ـ حوالى الوقت الذى توج فيه شارلمان امبراطورا للغرب . كانت تحكم تخوم أوربا الشرقية الممتدة بين القوقاز ونهر الفولجا دولة يهودية عرفت بامبراطورية الخزر ، وقد لعبت وهى فى أوج سلطانها من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى دورا هاما فى تشكيل أقدار أوربا فى العصـــور الوسطى وبالتالى فى العصـــور الحديثة أيضـا ٠ ولابد أن الامبراطور البيزنطى المؤرخ قنسطنطين بورفيروجينيتوس Constantine Porphyrogenitus (٩١٣ ـ ٩٥٩) كان على بينة من هذا الأمر حين دون فى مؤلفه عن مراسم البلاط (١) أن الرسائل الموجهة الى البابا فى روما ومثلها تلك الموجهة الى امبراطور الغرب كانت تحمل خاتما ذهبيا ملحقا بها قيمته صولدان على حين كانت الرسائل الموجهة الى امبراطور الخزر تحمل خاتما ذهبيا قيمته ثلاثة صولدات ٠ ولم يكن ذلك بغية التملق ولكن اقرارا للســـياسة الواقعيـــة Realpolitik وفى ذلك كتب المؤرخ بيورى يقول : « وفى الفترة التى نعالجها يحتمل أن خاقان الخزر لم يكن فى نظر السياسة الخارجية للامبراطورية البيزنطية أقل شأنا من شارل العظيم وخلفائه (٢) ٠

وقد شغلت بلاد الخزر وهم شعب من أصل تركى ـ موقعا استراتيجيا رئيسيا فى المدخل الحيوى بين البحر الأسود وبحر قزوين حيث وقفت القوات الشرقية العظمى فى ذلك العصر وجها لوجه ، وكانت بلاد الخزر بمثابة حاجز حمى بيزنطة ضد غارات قبائل البرابرة الأشداء أهل السهوب الشمالية من بلغار ومجريين وبشنيج ٠٠٠ الخ ـ ثم الفايكنج والروس

فيما بعد . الا أنه بالمثل وبقدر أهم سواء من الناحية الدبلوماسية البيزنطية أو التاريخ الأوربي كانت هناك الحقيقة بأن جيوش الخزر وقفت سدا منيعا ضـد زحف جحافل العرب فى أطواره الأولى الساحقة (*) وبالتالى حالت دون استيلاء المسلمين على أوربا الشرقيـة . وجـدير بالذكر أن دانلوب الأستاذ بجامعة كولومبيا وأحد كبار الثقاة الملمين بتاريخ الخزر لخص هذه الفترة الحاسمة ولكنها فترة مجهولة فعلا فى عباراته التالية :

كانت بلاد الخزر تقع عبر الخط الطبيعى لزحف العرب ـ ففى سنوات قليلة عقب وفاة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) فى سنة ٦٣٢ تدفقت الجيوش العربية شمالا خلال حطام امبراطوريتين واكتسحت أمامها كل شىء حتى وصلت الحاجز الكبير أعنى جبال القوقاز وهو حاجز ان تم لها عبوره أصبح الطريق مفتوحا أمامها لأراضى شرق أوربا . وحدث أن تقابل العرب على خط جبال القوقاز مع قوات دولة عسكرية منظمة (الخزر) منعتهم فعلا من مد فتوحاتهم فى هذا الاتجاه . والواقع أن حروب العرب ضد الخزر استمرت أكثر من مائة عام وعلى الرغم من أنه لا يعرف عنها الا القليل الا أنها كانت ذات أهمية كبرى ، أجل لقد استطاع فرنجة شارل مارتل أن يغيروا مجرى التيار لغزوة العرب وذلك فى معركة تور ـ وحوالى الوقت نفسـه لم يكن الخطـر العربى الذى هـدد أوربا فى الشرق أقل شدة ... فقد تقابلت جيوش مملكة الخزر مع جحافل المسلمين المنتصرين وصدتهم ... ويكاد ينعدم الشك فى أنه لولا وجود شعب الخزر فى الاقليم الشمالى من القوقاز لالتفت الجيوش العربية حول بيزنطة حصن الحضارة الأوربية فى الشرق ولتغير تاريخ العالم المسيحى ولصار الاسلام بحق شيئا مختلفا جدا عما تعرفه (٣) .

ولعله لم يكن غريبا فى ضوء هذه الظروف أنه فى سنة ٧٣٢ ـ وبعد انتصار الخزر الباهر على العرب ـ تزوج قنسطنطين (الامبراطور البيزنطى قنسطنطين الخامس فيما بعد) أميرة خزرية ورزق منها بابن أصبح فى سنة ٧٧٥م الامبراطور ليو الرابع واشتهر بليو الخزرى .

ومن سخرية القدر أن آخر معركة دارت فى الحرب ضد العرب سنة ٧٣٧ م انتهت بهزيمة الخزر ولكن بحلول هذا الوقت كان الدافع الذى حث المسلمين على شن حرب الجهـاد قد تبـدد واهتزت الخـلافة بالصراعات الداخلية وتراجع الغزاة العرب عبر القوقاز دون أن يكسبوا قاعدة دائمة فى الشمال على حين أصبح الخزر أشد قوة عما كانوا عليه من قبل .

(*) تفرض الأمانة العلمية نقل عبـارات المؤلف كما هى وان شابتها أحيانا روح التحيز .

وبعد سنوات قليلة – وعلى الأرجح فى سنة ٧٤٠ م اعتنق ملك الخزر وحاشيته والطبقة العسكرية الحاكمة الديانة اليهودية وأصبحت اليهودية الدين الرسمى لدولة الخزر – ولا شك أن معاصريهم أصابتهم الدهشة لهذا القرار بالقدر الذى أصاب الباحثين العصريين حين اطلعوا على الدليل الذى يثبت ذلك فى المصادر العربية والبيزنطية والروسية والعبرية – ومن أحدث التعليقات على هذا الموضوع ما رواه المؤرخ المجرى الماركسى دكتور انتال مارتا فى كتابه « المجتمع المجرى فى القرنين الثامن والتاسع » (٤) – وضمنه عدة فصول عن الخزر حيث خضع المجريون لحكمهم معظم هذه الفترة – ومع ذلك فقد تناول المؤلف اعتناق الخزر اليهودية فى عبارة واحدة تنم عن حيرة واضحة حيث جاء فيها :

« لا يمكن لأبحاثنا أن تتناول مسائل تتعلق بتاريخ الأفكار ولكن يجدر بنا أن نوجه نظر القارىء الى مسألة الديانة الرسمية لمملكة الخزر فقد أصبحت العقيدة اليهودية الديانة الرسمية للطبقة الحاكمة فى المجتمع . ومن نافلة القول أن نذكر أن قبول العقيدة اليهودية ديانة رسمية لشعب غير يهودى عرقيا يمكن أن يكون عرضة لتأملات مثيرة وسوف نقتصر على الملاحظة القائلة بأن هذا التحول الرسمى الى دين جديد على الرغم من التبشير المسيحى على يد بيزنطة والتأثير الاسلامى من الشرق – وعلى الرغم من الضغط السياسى لهاتين الدولتين – لم يكن له سند من أية سلطة سياسية بل كان دينا مضطهدا من الجميع تقريبا . وجاء مفاجأة لكل المؤرخين المهتمين بشعب الخزر ولا يمكن اعتبار هذا التحول أمرا عرضيا بل يجب أن ينظر اليه على أنه علامة على السياسة المستقلة التى مارستها تلك المملكة » .

وهذا أمر يجعلنا أكثر حيرة نوعا ما عما كنا عليه من قبل الا أنه بينما تختلف المصادر فى التفاصيل الثانوية فليس هناك خلاف على الحقائق الأساسية .

والواقع أن موضوع الجدل هو مصير الخزر اليهود بعد تدمير امبراطوريتهم فى القرن الثالث عشر والمصادر شحيحة عن هذه المسألة وان ورد ذكر بعض مستوطنات الخزر فى القرم وأوكرانيا والمجر وبولندة ولتوانيا ، وتكشف الصورة العامة التى تنبثق من هذه المعلومات المتناثرة عن هجرة قبائل وجماعات خزرية الى تلك الأقاليم الواقعة فى شرق أوربا ولا سيما روسيا وبولندة حيث وجدت فى فجر العصر الحديث أكبر تجمعات من اليهود . الأمر الذى دفع كثيرين من المؤرخين الى الحدس بأن جزءا هاما أو قل الأغلبية من اليهود الشرقيين (أعنى من شرق أوربا) – وبالتالى يهود العالم – ربما كانوا أصلا من الخزر لا من أصل سامى .

وقد توضح المعانى المتضمنة البعيدة المدى لهذه الفرضية ما جرى

عليه المؤرخون من مراعاة الحذر فى تناولهم هذا الموضوع ان لم يتحاشوه اطلاقا ـ وهكذا ففى طبعة سنة ١٩٧٣ لدائرة المعارف اليهودية وردت مقاله عن الخزر ممهورة باسم الأستاذ دانلوب ولكن هناك فصلا مستقلا عن « اليهود الخزر بعد سقوط مملكتهم » كتبه محررو دائرة المعارف أنفسهم بهدف واضح هو ألا يزعزعوا عقيدة الشعب المختار !

أكد القراءون Karaites (أفراد مذهب يهودى أصولى) الناطقون بالتركية من أبناء القرم وبولندة وأماكن أخرى وجود علاقة بينهم وبين الخزر وهى علاقة يعززها الدليل المنبثق من الفولكلور والانثروبولوجيا وكذلك اللغة ـ وهناك فيما يبدو قدر ضخم من الأدلة التى تثبت الوجود المستمر لسلالة الخزر فى أوربا ٠

ومن حيث لغة الكم ـ ترى ما مدى أهمية وجود أولئك القوقازيين أبناء يافت Japheth فى خيام سام Shem ؟ ان من أشد الدعاة تطرفا فى الفرضية التى ترجع أصول الشعب اليهودى الى الخزر هو الأستاذ أ٠ ن٠ بولياك أستاذ تاريخ اليهود فى العصور الوسطى فى جامعة تل أبيب ـ وقد شرحها فى كتابه « خزاريا » الذى نشره باللغة العبرية فى سنة ١٩٤٤ فى تل أبيب وصدرت له طبعة ثانية فى سنة ١٩٥١ ويقرر فى مقدمته أن الحقائق نتطلب :

« طريقة جديدة لتناول موضوع العلاقات بين الشعب اليهودى الخزرى والمجتمعات اليهودية الأخرى وكذلك لمعالجة مسألة الى أى حد يمكننا اعتبار هذا الشعب اليهودى (الخزرى) نواة لمستوطنة اليهود الكبرى فى شرق أوربا ٠٠٠ ـ ان سلالة هذه المستوطنة ـ أعنى أولئك الذين بقوا حيث كانوا وأولئك الذين هاجروا الى الولايات المتحدة الأمريكية والى غيرها من البلاد ـ ثم أولئك الذين توجهوا الى اسرائيل ـ كل هؤلاء يؤلفون فى الوقت الحاضر غالبية يهود العالم » ٠

ولقد كتب هذا قبل الوقوف على الحجم الكامل للمحرقة الكبرى (*) التى تعرض لها الشعب اليهودى ، بيد أن ذلك لا يغير الحقيقة القائلة بأن الأغلبية الكبرى من اليهود فى العالم كله فى الوقت الحاضر هم من أصل أوربى شرقى وبالتالى لعلهم فى الدرجة الأولى من أصل خزرى ـ فان كان الأمر كذلك فهذا يعنى أن أجدادهم لم يجيئوا من الأردن بل من نهر الفولجا ، أجل لم يجيئوا من أرض كنعان بل من القوقاز التى اعتقد فيما مضى أنها مهد الجنس الآرى ، ثم انهم من حيث التركيب الوراثى أقرب الى قبائل الهون والآوجور Uigur والماجيار Magyar منهم الى ذرية ابراهيم

(*) اشارة الى عصر النازى ٠

واسحق ويعقوب فاذا ثبت أن هذا هو الأمر الواقع فان تعبير « معاداه السامية » سوف يكون خلوا من معناه القائم على سوء فهم من جانب السفاكين وضحاياهم على حد سواء · ان قصة امبراطورية الخزر وهى تبزغ على مثل من الماضى تبدأ فى أن تبدو وكأنها أكبر خدعة اقترفها التاريخ فى أى وقت مضى ·

٢ ـ كان اتيلا ـ رغم كل شىء ـ مجرد ملك لمملكة خيام وقد زالت دولته على حين ظلت مدينة القسطنطينية الحصـــينة صاحبة السلطان · وتلاشت الخيام وبقيت المدن · أجل كانت دولة الهون أشبه بزوبعة····» ·

هكذا كتب كاسل (٦) ـ وهو مستشرق عاش فى القرن التاسـع عشر ـ ملمحا الى أن الخزر لقوا مصيرا مماثلا لأسباب مماثلة ـ الا أن بقاء الهون على المسرح الأوربى ظل ثمانين سنة فحسب (*) بينما صمدت مملكة الخزر طيلة الجزء الأكبر من أربعة قرون ـ نعم لقد عاشوا هم أيضا في الأغلب في خيام ولكن كانت لهم كذلك مستوطنات حضرية وكانوا يخوضون عملية التحول من قبيلة من المحاربين الرحل الى شعب من الفلاحين ومربى ماشية وصيادى سمك وزراع العنب وتجـار وحرفيين مهرة ـ وقد كشف علماء الآثار السوفييت عن أدلة تثبت وجود حضارة متقدمة نوعا ومختلفة تماما عن غارات « الهون العاصفة » ، حيث عثروا على آثار قرى تنساح أميالا عدة (٧) وبها منازل متصلة بأروقة تؤدى الى سقائف فسيحة للماشية وحظائر للغنم وأخرى للجياد (وهذه كانت مقاساتها تتراوح بين ٣ الى ٥ر٣ × ١٠ الى ١٤ مترا وكانت بها أعمدة تحمل أسقفها) (٨) وتنم بعض المحاريث الباقية والتى كانت تجرها الثيران على تقدم رائع فى الصناعة كما يتضح ذلك أيضا من المصنوعات الصـــغيرة التى حفظت مثـــل الأبازيم والمشابك وصفائح السروج المعدنية المزخرفة ·

ومما أثار اهتماما خاصا أساسات البيوت وقد غاصت فى الأرض وشيدت فى شـــكل دائرى (٩) ـ ويقول علماء الآثار السوفيت ان هـــذه البيوت كانت منتشرة فى جميع الأقاليم التى أقام فيها الخزر وأنها أقدم من مبانيهم العادية المستطيلة ـ وواضح أن البيوت الدائرية ترمز الى مرحلة الانتقال من خيام قبابية الشكل يسهل حملها الى مساكن دائمة أى من حياة بدوية الى حياة مستقرة أو بالأحرى شبه مستقرة حيث تخبرنا المصادر العربية المعاصرة أن الخزر لم يمكثوا فى المدن حتى فى عاصمتهم اتل الا فى أثناء الشتاء فاذا حل الربيع حزموا خيامهم وتركوا بيوتهم وانطلقوا مع

(*) من حوالى ٣٧٢م حين بدأ الهون زحفهم نحو الغرب قادمين من السهوب الواقعة شمال بحر قزوين ـ حتى وفاة اتيلا سنة ٤٥٣م ·

غنمهم وماشيتهم الى السهوب وأقاموا مخيمهم فى حقول القمح أو الكروم التابعة لهم ·

وقد أثبتت الحفائر أيضا أن المملكة فى عهدها الأخير كانت محاطة بسلسلة محكمة من الحصون التى يرجع تاريخها الى القرن الثامن والقرن التاسع الميلادى وقد حمت حدودها الشمالية المواجهة للسهوب المفتوحة حيث شكلت هذه الحصون قوسا نصف دائرى تقريبا يمتد من القرم (التى حكمها الخزر فترة من الزمن) عبر السهول المنبسطة أدنى نهرى الدونتز والدون الى نهر الفولجا ـ على حين حمتها من الجنوب جبال القوقاز ومن الغرب البحر الأسود ومن الشرق بحر الخزر أى بحر قزوين » (*) ـ الا أن سلسلة التحصينات الشمالية لم تكن أكثر من سور داخلى لحماية قلب بلاد الخزر المستقر أما الحدود الفعلية لسلطانهم على قبائل الشمال فقد تذبذبت وفقا لنتائج الحرب ـ ذلك أنهم وهم فى أوج سلطانهم سيطروا أو فرضوا الجزية على ثلاثين عشـيرة وقبيلة مختلفة تسكن فى الأقاليم الشاسعة الواقعـة بين القوقاز وبحر آرال وجبال أورال ومدينه كييف والسهول الأوكرانية وقد خضعت لسيادة الخزر شعوب البلغار والبورتا والغز والمجريين والمستعمرات القوطيـة والاغريقيـة فى القرم والقبـائل الصقلبية فى اقليم الغابات الشمالية الغربية ـ وفيما وراء هذه الأراضى الشاسعة الخاضعة لسيطرتهم قامت الجيوش الخزرية أيضا بشن غاراتها على جورجيا وأرمينيا وتوغلت فى أراضى الخلافة الاسلامية حتى وصلت الى الموصـل · كتب عالم الآثار السـوفيتى م· أ· أرتامونوف (١٠) Artamonov يقول :

حتى القرن التاسـع الميـلادى لم يكن للخزر منافس لسيادتهم على الأقاليم الواقعة شمال بحر قزوين وأقاليم السهوب والغابات المتاخمة لنهر الدنيبر بل كانوا هم أصحاب السيادة العليا فى النصف الجنوبى من أوربا الشرقية وذلك طيلة قرن ونصف قرن من الزمان وشكلوا سدا منيعا يحول دون أى زحف قادم من آسيا أو أوربا عبر المدخل القائم بين الأورال وبحر قزوين ـ واستطاعوا طيلة تلك المدة صد هجمات قبائل البادية القادمة من الشرق ·

فاذا ألقينا نظرة عامة على تاريخ امبراطوريات الشرق البدوية العظمى فان مملكة الخزر تشغل مكانا وسـطا من حيث الزمن والحجم ودرجـة الحضـارة بين امبراطورية الهـون وامبراطورية الآفار اللتين سبقتاها وامبراطورية المغول التى خلفتها ·

(*) يتذكر العرب الى اليوم ما أثارته غارات الخزر من ذعر حتى أنهم لا يزالون يسمون بحر قزوين بحر الخزر فهو بحر متقلب شأنه شأن البدو الرحل تجرف أمواجه أجزاء من سهوبهم ·

٣ ـ ولكن من هم هؤلاء القوم المدهشون ـ أجل هم مدهشون بفضل قونهم وانجازاتهم وبقدر تحولهم الى ديانة منبوذين ؟ ان الأوصاف التى آلت الينا صدرت اصلا عن مصادر أجنبيه ولا يمكن أخذها على عواهنها .. كتب ابن سعيد المغربى وهو مؤرخ اخبارى عربى يقول « أما عن الخزر فهم ينزلون فى شمال الأرض المأهوله قرب الاقليم السابع بحيث يقع برج الدب الأكبر فوق رؤوسهم وبلادهم باردة مطيرة ولذلك فان بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعرهم كنيف ضارب الى الحمرة فى الغالب وأجسامهم ضخمة وطبائعهم باردة وينم مظهرهم العام عن كونهم غلاظا همجا » (١١) .

واضح أن الكاتب العربى بعد حروب دامت قرنا من الزمان لم يبد عطفا شديدا نحو الخزر وكذلك كان حال الكتاب الجورجيين والأرمن أبناء بلاد ذات ثقافة أقدم بكثير ـ بلاد كانت قد خربتها فرسان الخزر مرارا وتكرارا ـ وهناك حولية جورجيه نردد روايه مأثورة قديمة تعتبر الخزر جمهرة يأجوج ومأجوج « هم رجال متوحشون بشعو الوجوه آكلو الدماء » (١٢) ـ كذلك يشير كاتب أرمينى الى جماهير الخزر أنهم أصحاب الوجوه الوقحة العريضة الخالية من أهداب العيون ذوو الشعور الطويلة المتدلية كالنساء » (١٣) وأخيرا يقول الجغرافى العربى الاصطخرى وهو من المصادر العربية الرئيسية : ان الخزر لا يشبهون الأتراك فشعورهم سوداء وهم نوعان : أحدهما يسمى كارا خزر أى (الخزر السود) وهؤلاء داكنو البشرة يميلون الى اللون الأسود القاتم كأنهم صنف من الهنود ثم هناك نوع أبيض (آك خزر) وهم أصحاب ملامح وسيمة على نحو يلفت النظر » (١٤) ٠

وهذا وصف أكثر اطراء ولكنه يزيد من البلبلة فحسب ٠ فقد جرى العرف بين الشعوب التركية أن تصف أفراد الطبقات أو الجماعات الحاكمة بأنهم بيض ، ونصف أفراد الطبقات الدنيا بأنهم سود ـ وهكذا ليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن « البلغار البيض » كانوا أكثر بياضا من « البلغار السود » أو أن الهون البيض المعروفين باسم افتاليتس Ephtalites والذين غزوا الهند وفارس فى القرنين الخامس والسادس كانوا ذوى بشرة أشد شقرة من غيرهم من قبائل الهون التى غزت أوربا ، الواقع أن الخزر أصحاب البشرة السوداء الذين علقوا بذهن الاصطخرى وجاء ذكرهم فى كتابات زملائه ـ انما قام وصفهم على الشائعات والأساطير ولسنا أكثر الماما بمظهر الخزر الجثمانى أو أصولهم العرقية ٠

ويمكن الاجابة على المسألة السابقة بأسلوب مبهم وعام فحسب ـ وبالقدر نفسه فمن الأمور العديمة الجدوى أن نبحث فى أصول الهون والالان والآفار والبلغار والمجريين والبشكير والبورتا Burtas والسابير Sabirs والاوجور Uigurs والساراجور والأونوجور والأوتيجور والكوتريجور

والتارنيـــاك والكوتراجار والكابار والزابندر والبشنج والغـز والكومان والكبنساك وعشرات غيرها من القبائل أو الشعوب التى مرت فى فترة أو أخرى ـ أيام مملكة الخزر ـ عبر الممرات الضـــيقه المؤدية لأراضى المهجر تلك ـ بل ان الهون الذين نعرف عنهم قـــدرا أكبر من المعـلومات هم، من أصل غير محدد على وجه الدقه فواضح أن اسمهم مشتق من اللفظ الصـــينى هيـونو Hiung-Nu الذى يرمز الى جماعات الرحل المولعين بالحرب بوجه عام ـ على حين أطلقت شعوب أخرى اسم الهون بطريقة مغشوشة مماثلة على جماعات الرحل من كل الأصناف بما فيهم « الهون البيض » المشار اليهم أعلاه والسابير والمجر والخزر (*) ·

وفي القرن الأول الميلادى طارد الصينيون هؤلاء الجيران الهون المزعجين ودفعوهم نحو الغرب وهكذا بدأت واحدة من تلك الانهيارات المدمرة التى اندفعت بقوة من آسيا نحو الغرب لعدة قرون ـ وابتداء من القرن الخامس فصاعدا أطلق على كثير من هذه القبائل المتجهة نحو الغرب لفظ « الأتراك » كناية عن أصولهم العرقية ـ ويرجح أيضا أن هذا اللفظ هو من أصل صينى (اقتبس فيما يبدو من اسم أحد التلال) ثم استخدم فيما بعد للاشارة الى كل القبائل الناطقة بلغات ليا خصائص مشتركة معينة ـ أعنى جماعة اللغة التركية ـ وهكذا فان مصطلح « تركى » بالمعنى الذى كان يستخدمه كتاب العصور الوسطى وكثيرا ما يستخدمه أيضا علماء الأجناس العصريون ـ انما يشير أساسا الى اللغة لا الى الجنس وفى اطار هذا المعنى كان الهون والخزر شعوبا تركية (**) وزعم أن لغة الخزر كانت لهجة شوفاشية للغة التركية التي لا تزال باقية فى جمهورية شوفاش السوفيتية التى تتمتع بالحكم الذاتى وتقع بين نهر الفولجا والسورا ـ والسائد أن أهل شوفاش هم فعلا من نسل البلغار الذين تكلموا لهجة تشبه لهجة الخزر ـ ولكن كل هذه الروابط ضعيفة ومبنية على تخمينـات أجراها علماء فقه اللغة المهتمين بالدراسات الشرقية وكل ما نستطيع قوله ونحن مطمئنون هو نأ الخزر كانوا قبيلة تركية انطلقت من السهوب الآسيوية فى القرن الخامس الميلادى على ما يرجح ·

كذلك كان أصل اسم الخزر والاشتقاقات الحديثة التى أثارها موضع

(*) من الطريف أن فى اثناء الحرب العالمية الأولى استخدم البريطانيون لفـظ الهون بالمعنى نفسه الذى يحط من قدر صاحبه على حين أن أطفال المجر ـ موطن مؤلف هذا الكتاب ـ كانوا يلقنون فى المدارس أن يمجدوا أجدادهم الهون العظام كما أن اسم اتيلا لا يزال من الأسماء الأولى السائعة هناك · وفى بودابست ناد راق للتحدث أطلق عليه اسم « هونيا » Hunnia ·

(**) لا ينطبق هذا الوصـــف على المجريين الذين ينتسب لغتهم الى مجمـــوعة فينو ـ أوجريان اللغوية

تفكير وتأمل بارع وأغلب الظن أن اللفظ مشتق من الأصل التركى « جاز » وهو فعل معناه « يتجول » أى أنه ببساطة يعنى « البدوى » أو الهائم على وجهه — ولعله مما يثير اهتمام الشخص العادى بدرجة أكبر ما يرد من بعض اشتقاقات حديثة زعم أنها اشتقت من اللفظ نفســـه نذكر منها القوزاق الروسى والهوزار المجرى Huszar وكلاهما يعنى الفرسان المحاربين (*) وكذلك اللفظ الألمانى كتزر Ketzer ومعناه المارق — أى اليهودى — فاذا كانت هذه الاشتقاقات صحيحة فانها توضح أن الخزر كان ليم تأثير بالغ على خيال مختلف شعوب العصور الوسطى ·

٤ — وتضم بعض الحوليات الفارسية والعربية مجموعة خلابة من الأساطير والأقاويل قد تبدأ بالخليقة وتنتهى بآخر الأخبار وهكذا يرجع اليعقوبى المؤرخ العربى الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى — أصل الخزر الى يافث Japheth الابن الثالث لنوح ويتكرر كثيرا ذكر موضوع يافث فى الأدب بينما تربط أســـاطير أخرى الخزر بسيدنا ابراهيم أو باسكندر الأكبر ·

ومن أقدم الاشارات السائدة ما ورد فى حولية سريانية كتبها زكريا ريتـــور (**) Rhetor وترجع الى منتصف القرن السادس وقد جاء ذكر الخزر فى قائمة شعوب يسكنون اقليم القوقاز وتشير مصادر أخرى أنهم كانوا على مسرح الحياة قبل ذلك بقرن من الزمان وكانوا على اتصال وثيق بالهون حيث أرسل الامبراطور البيزنطى تيودوسيوس الثانى سنة ٤٤٨ م ســفارة الى اتيلا كان من بين أعضـــائها خطيب فصيح اســـمه بريسكس Priscus حرص على أن يدون وصفا دقيقا لا للمفاوضات الدبلوماسية فحسب بل أيضا لمؤامرات البلاط وما جرى من أحداث فى قاعة ولائم اتيلا الفخمة — الحق أنه كان أشبه بصحفى مثالى أمين يحرر عمودا خاصا يحوى القيل والقال ومن ثم لا يزال يعتبر أحد المصادر الأساسية للكشف عن تقاليد الهون وعاداتهم وعلاوة على ذلك كان لدى بريســـكس فيض من النوادر والحكايات رواها عن شعب خضع للهـــون — شعب عرفه باسم اكاتزير — وهم على الأرجح آك خزر أى الخزر البيض (تمييزا لهم عن الخزر السود : كارا خزر) (***) ·

(*) يحتمل أن لفظ هوزار مشتق عن طريق الصرب الكروات من اشارات الاغريق الى الخزر ·

(**) الواقع أن هذه الحولية كتبها شخص مجهول هو مجرد جامع لمحتوياتها وسميت باسم مؤرخ اغريقى ينتمى الى عصر سابق وقد لخصها جامع الحولية فى مؤلفه ·

(***) وبعد ذلك بقرن ورد ذكر أكاتزير أيضا بوصفهم شعبا محاربا على لسان جوردانس Jordanes وهو مؤرخ قوطى شهير عاش فى القرن السادس الميلادى كما أن =

ويقص علينا بريسكس أن الامبراطور البيزنطي حاول أن يكسب الى جانبه الشعب المحارب ولكن رئيس الخزر الجشع كاريداخ رأى أن الرشوة المعروضة عليه غير كافية وانضم الى جانب الهون فلما هزم اتيلا الزعماء المنافسين لكاريداخ نصبه حاكما وحيدا للاكاتزير ودعاه لزيارة بلاطه — وبالغ كاريداخ في التعبير عن شكره لهذه الدعوة وراح يقول « انه سوف يصبح من العسير جدا على انسان أن ينعم النظر في وجه اله وكما أن المرء لا يستطيع أن يحملق في قرص الشمس فانه سيكون أقل قدرة عن أن ينعم النظر في وجه أعظم اله دون أن يلحقه أذى » ولابد أن أتيلا اغتبط لهذا القول فثبت كاريداخ في حكمه ·

وتؤكد حولية بريسكس أن الخزر ظهروا على المسرح الأوربي حوالى منتصف القرن الخامس بوصفهم شعبا تحت سيادة الهون ويمكن اعتبارهم هم والمجر وقبائل أخرى أنهم انحدروا من نسل جماعة اتيلا ·

٥ — لقد ترك انهيار امبراطورية الهون بعد وفاة اتيلا فراغا في ميدان القوى في شرق أوربا ومن ثم اندفعت موجة بعد أخرى من جماعات الرحل من الشرق الى الغرب ومن أشهر هذه الجماعات الأوجور والآفار · ويبدو أن الخزر كانوا في معظم هذه الفترة مشغولين مغتبطين بغزوهم أقاليم غنية عبر القوقاز هي جورجيا وأرمينيا وراحوا يجمعون منهم غنائم نفيسة وأصبحوا خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادى السلطة المهيمنة من بين قبائل شمال القوقاز فان عدا من القبائل : السابير والساراجور والسامندر والبلانجار ··· الخ — لم يعد لهم ذكر في المصادر منذ هذا التاريخ حيث أخضعهم الخزر لحكمهم أو امتصوهم — والواضح أن البلغار الأقوياء هم الذين شنوا أعنف مقاومة ولكنهم لقوا المصير نفسه فهزموا هزيمة ساحقة (حوالى سنة ٦٤١) وتبعا لذلك انشطر الشعب الى قسمين : فريق منهم هاجر نحو الدانوب الى اقليم بلغاريا الحديث واتجه فريق آخر الى الشمال الشرقي نحو وسط الفولجا وبقى هؤلاء تحت سيادة الخزر وسوف نصادف بين حين وآخر كلا الفريقين : بلغار الدانوب وبلغار الفولجا ·

ولكن قبل أن يصبح الخزر دولة ذات سيادة كان عليهم أن يمارسوا

= العالم المعروف بجغرافي رافنا يقول صراحة انهم هم الخزر وهو رأى يقره معظم العلماء فيما عدا ماركار وهو استثناء بارز بيد أن دانلوب كذب آراءه في كتابه ص ٧ — أما كاسل فهو على سبيل المثال يوضح أن نطق بريسكس وهجاءه يتبعان النطق والهجاء الأرمني والجورجي : خازير Khazir ·

الحكم تحت سلطة أخرى لم تعمر طويلا تلك المعروفة بالامبراطورية التركية الغربية أو مملكة تركوت Turkut ـ وكانت اتحادا كونفيدراليا ضم قبائل توحدت على يد حاكم هو الخاقان (*) وهو نفس اللقب الذى اتخذه حكام الخزر فيما بعد وقد عاشت هذه الدولة التركية الأولى ـ اذا جاز لنا أن نطلق عليها هذا الاسم ـ قرنا من الزمان (حوالى ٥٥٠ ـ ٦٥٠ م) ثم تفككت دون أن تترك أثرا يذكر ـ ومع ذلك فانه بعد تأسيس هذه الدولة أمكن استخدام لفظ « تركى » للدلالة على شعب معين يتميز عن الشعوب الأخرى الناطقة بلهجات تركية Turkic مثل الخزر والبلغار (**) ٠

وكان الخزر قد خضعوا لنفوذ الهون ثم لنفوذ الأتراك فلما سقط الأتراك فى منتصف القرن السابع الميلادى حل دور الخزر فى حكم مملكة الشمال وهو الاسم الذى أطلقه عليها الفرس والبيزنطيون ـ وطبقا لاحدى الروايات المأثورة (١٥) كان للملك الفــارسى العظيــم خسرو أنوشروان (أى المبارك) ثلاثة عروش ذهبية فى قصره خصصها لضيوف آباطرة ثلاثة هم امبراطور بيزنطة وامبراطور الصين وامبراطور الخزر ، ولكن لم يقم أى من هؤلاء بزيارة رسمية لفارس وظلت العروش الذهبية ـ ان كانت قد وجدت فعلا ـ رمزا لهدف تطلع اليه الملك الفارسى فحسب ـ وسواء كانت هذه الرواية حقيقية أو مجرد أسطورة فانها تتفق تماما مع التقرير الرسمى الذى دونه الامبراطور قنسطنطين عن الخاتم الثلاثى الذهبى الذى خصصه مكتب المحفوظات الامبراطورية للرسائل الموجهة الى حاكم الخزر ٠

٦ ـ وهكذا ففى خلال العقود القليلة الأولى من القرن السابع الميلادى وقبيل أن ينطلق المد الاسلامى الكاسح من بلاد العرب مباشرة كان يهيمن على الشرق الأوسط قوى ثلاث : بيزنطة وفارس والامبراطورية التركية الغربية ، وكانت القوتان الأوليان فى حروب متقطعة شنتها كل منهما على الأخرى طيلة قرن من الزمان وبدا كلتاهما على شــفا الانهيار ـ وكانت النتيجة أن استردت بيزنطة مركزها أما المملكة الفارسية فقد قدر لها أن تلقى هلاكها عاجلا وكان الخزر على أهبة المساهمة فى اصطياد الفريســة فعــلا ٠

. . .

أجل كان الخزر لا يزالون اسميا تحت سيادة المملكة التركية الغربية وكانوا يمثلون فى اطارها أكبر قوى فعالة سوف تخلفها عما قريب ـ وبناء

(*) أوكاقان أو شاجان ٠٠ الخ ـ هناك تباين كبير فى الهجاء بين المستشرقين ـ ولعل لفظ خاقان هو الأصح وهو الذى ورد فى كتب العرب ومن ثم التزمت الترجمة به ٠

(**) الا أن ذلك لم يحل دون استخدام اسم « تركى » دون تمييز . فعلى سبيل المثال لا يزال يطلق على أية قبيلة بدوية من قبائل السهوب وذلك بوصفه تعبيرا مخففا للفظ بربرى أو مرادفا للفظ الهون ـ الأمر الذى أدى الى ارتباك كبير فى تفسير المصادر القديمة ٠

على ذلك عقد الامبراطور الروماني هرقل حلفا عسكريا مع الخزر فى سنة ٦٢٧ م وهو أول أحلاف كثيرة تالية ـ استعدادا لحملة حاسمة يقوم بها ضد فارس وهناك روايات مختلفة عن الدور الذى لعبه الخزر فى تلك الحملة ويبدو أنه كان دورا مغمورا الى حد ما ولكن الحقائق الرئيسية ثابتة لا خلاف عليها فقد زود الخزر الامبراطور هرقل بأربعين ألف فارس بقيادة رئيس اسمه زيبل اشترك فى الزحف على فارس ولكنه يبدو أنه سئم استراتيجية الروم الحذرة فقفل راجعا ليضرب الحصـــار حول تفليس ـ وفسل ولكن فى العام التالى انضمت قوات الخزر مرة أخرى الى هرقل واستولوا على عاصمة جورجيا وعادوا بغنائم نفيسة وقد أورد المؤرخ جيبون وصفا حيا للاجتماع الأول الذى عقــد بين الامبراطور الروماني والقائد الخزرى بناء على ما دونه الناسك الاغريقى ثيوفانيس (٧٥٨ ـ ٨١٨) فى حوليته (١٦) ـ يقول جيبون :

تجاه الحلف المعادى المؤلف من خسرو والآفار أقام الامبراطور تحالفا مفيدا ومشرفا مع الأتراك (*) ـ وبناء على دعوته السخية نقلت حشود الخزر خيامهم من سهول الفولجا الى جبال جورجيا واستقبلهم هرقل قرب تفليس وعلى حد ما دونه الروم ترجل الخـــان هو ونبلاؤه عن خيـــولهم وانبطحوا أرضا توقيرا لسلطة قيصر ـ وكان هذا الولاء الارادى والمعاونة الهامة جديرين بأصدق آيات الشكر والعرفان فخلع الامبراطور تاجه ووضعه على رأس الأمير التركى ثم حياه بعناق حار وسماه ابنه وبعد مأدبة سخية أهدى الامبراطور الى زيبل الصحون والزخارف والذهب والجواهر والحرائر التى استخدمت على المائدة الامبراطورية ووزع بيده على حلفائه الجدد حليا وأقراطا نفيسة ـ وفى مقابلة سرية مع زيبل أبرز الامبراطور صورة ابنته يودوشيا وتلطف وتملق البربرى واعدا اياه بعروس جميلة جليلة القدر فحصل منه على أربعين ألف حصان معونة عاجلة ٠

وكانت يودوشيا أو (ابيفانيا) الابنة الوحيدة لهرقل من زوجته الأولى ويدل الوعد بتزويجها الى « التركى » على ما علقه البلاط البيزنطى من أهمية كبرى للتحالف مع الخزر الا أن هذا الزواج لم يتم لأن زيبل توفى بينما كانت يودوشيا وحاشيتها فى طريقهم اليه ـ وهناك اشارة متكافئة أوردها تيوفانيس فى حوليته بأن زيبل مقابل عرض الزواج هذا ـ أهدى ابنه ـ وهو فتى أمرد الى الامبراطور ٠

وهناك أيضا فقرة أخرى مثيرة جاءت فى حولية أرمنية نقلت نص ما يمكن تسميته أمر تعبئة أصدره حاكم الخزر للحملة الثانية التى شنت

(*) لفظ الأتراك يقصد به الخزر كما يتضح من عبارة جيبون ٠

ضد فارس وكان هذا الأمر موجها الى « جميع القبائل والشعوب (التى تحت حكم الخزر) وسكان الجبال والسهول الذين يعيشون في بيوت أو في الهواء الطلق والذين حلقوا رءوسهم أو تركوا شعورهم طويلة » (١٧)٠

وهذا يعطينا أول اشارة الى التركيبة العرقية المتغايرة المختلفة العناصر التى تألفت منها امبراطورية الخزر وكان الخزر الأصليون الذين حكموها أقلية دائما على الأرجح شأنهم شأن النمساويين فى ملكية النمسا والمجر .

٧ ـ ولم تبل الدولة الفارسية قط من الهزيمة الساحقة التى أنزلها بها هرقل سنة ٦٢٧ م ٠ وقامت هناك ثورة وقتل الملك ، قتله ابنه الذى توفى بعد ذلك بأشهر قليلة وارتقى العرش بعده طفل وبعد مضى عشر سنوات سادت فيها الفوضى والاضطراب ، استطاعت أول الجيوش العربية التى انطلقت بقوة على المسرح أن تصوب ضربة قاضية Coup de grâce الى الامبراطورية الساسانية وفى حـــوالى الوقت نفســه تفكك الاتحـاد الكونفيدرالى التركى الغربى الى عناصره القبلية وظهر مثلث قوى جديد حل محل المثلث السابق تألف من الخلافة الاسلامية وبيزنطة المسيحية ومملكة الشمال الخزرية الناشئة حديثا ـ وقدر لهذه الأخيرة أن تتحمل وطأة الهجوم العربى فى مراحله الأولى وأن تحمى سهول أوربا الشرقية من الغزاة ٠

وفى السنوات العشرين الأولى من الهجرة ـ هجرة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة سنة ٦٢٢ م التى تبدأ بها التقاويم العربية ـ فتح العرب فارس والشام والعراق ومصر وطوقوا قلب الأراضى البيزنطية (تركيا الحديثة) فى نصف دائرة صعبة المراس امتدت من البحر المتوسط الى القوقاز والشواطىء الجنوبية لبحر قزوين وكانت جبال القوقاز عائقا طبيعيا ولكنها لم تكن أشد وعرا من جبال البرانس حيث كان من الممكن التغلب عليها بعبور ممر داريل Dariel (ويعرف اليوم بممر كازبك) أو بسلوك طريق جانبى عبر ممر درباند الضيق على طول شاطىء بحر قزوين ٠

وكان هذا الممر الضيق المنيع والذى سماه العرب « باب الأبواب » ـ بمثابة بوابة تاريخية اخترقهـــا الخزر وغيرهم من القبـــائل منذ أزمنة سحيقة خلال هجماتهم على البلاد الواقعة فى الجنوب بغية السلب والنهب ثم عادوا وانسحبوا منها ـ وحل الدور على العرب ، ففى الفترة من سنة ٦٤٢ الى ٦٥٢ اخترقوا بوابة درباند وتوغلوا فى بلاد الخزر محاولين الاستيلاء على بلانجار ـ أقرب مدنها حتى يقيموا لهم موقعا على الجانب الأوربى من القوقاز تتخذ منه قواتهم قاعدة لزحف جديد ولكنهم ردوا على أعقابهم فى كل مرة خلال هذه المرحلة الأولى من حربهم ضد الخزر ودارت آخر معركة

بينهما سنة ٦٥٢ استخدم فيها الطرفان المدفعية « المرجام » ـ (آلة لاطلاق الحجارة) و « المنجنيق » (آلة لرمى القذائف) وقد قتل فى هذه المعركة أربعة آلاف عربى كان من بينهم قائدهم عبد الرحمن بن ربيعة وفر الباقون شذر مذر عبر الجبال ٠

ولم يقم العرب طيلة الثلاثين أو الأربعين سنة التالية بأية محاولة لشن غارات أخرى على معاقل الخزر ـ وأخذوا فى ظل تلك الظروف يوجهون هجماتهم الرئيسية نحو بيزنطة ـ وفى مرات عديدة (٦٦٩ ، ٦٧٣ ، ٦٧٨ ، ٧١٧ ـ ٧١٨ م) حاصروا القسطنطينية برا وبحرا واستطاعوا أن يلتفوا حول العاصمة عبر جبال القوقاز وحول البحر الأسود وكان من المحتمل وقتئذ أن يتقرر نهائيا مصير الامبراطورية الرومانية ـ وكان الخزر فى غضون ذلك قد أخضعوا البلغار والمجريين وأكملوا توسعهم الغربى فى أوكرانيا والقرم ولكن لم تعد غاراتهم أحداثا عرضية بغيتها جمع الغنائم والأسرى بل غدت حروب فتح ودمج شعوب البلاد التى فتحوها فى امبراطورية لها حكومة مستقرة يرأسها خاقان قوى يعين ولاته المحليين ليتولوا ادارة الأقاليم التى خضعت لسلطانه وجمع الضرائب من أهلها ـ وفى بداية القرن الثامن الميلادى أصبحت دولة الخزر متماسكة بدرجة كافية تمكنهم من أن يتخذوا موقف الهجوم ضد العرب ٠

وبعد أن مضى اليوم أكثر من ألف عام تبدو لنا الحروب المتقطعة التى دارت بين الخزر والعرب والتى عرفت بحرب العرب الثانية (٧٢٢ ـ ٧٣٧م) وكأنها سلسلة من الأحداث المضجرة على المستوى المحلى حيث اتبعت نفس النموذج المتكرر : فكان الفرسان الخزر يخترقون بدروعهم النقيلة ممر داريل أو بوابة داربانه الى أراضى الخليفة فى الجنوب فتردهم هجمات عربية مضادة عبر الممر نفسه أو الطريق الضيق نفسه نحو الفولجا ثم تعود من حيث أتت ـ وهكذا اذا نظر المرء عبر الطرف الآخر للتليسكوب فسوف يتذكر الأغنية القديمة المقفاه عن النبيل دوق يورك الذى كان له عشرة آلاف رجل فكان يأمرهم بالزحف الى أعلى التل ثم بالهبوط الى أسفله ، والواقع ان المصادر العربية (رغم مبالغتها فى كثير من الأحوال) تتحدث عن جيوش قوامها مائة ألف رجل وثلثمائة ألف رجل على أى من الجانبين ـ أى أنها تفوق فى عددها على الأرجح جيوشا قررت مصير العالم الغربى فى معركة تور التى دارت رحاها حوالى الوقت ذاته ٠

ان الحماس البالغ للاستشهاد الذى ميز تلك الحروب توضحه أحداث نذكر منها على سبيل المثال انتحار مدينة خزرية كاملة أضرم أهلها النار فيها ورفضوا الاستسلام ـ أو قيام أحد قادة العرب بدس السم فى مورد مياه باب الأبواب أو النداء التقليدى الذى صدر من قائد عربى

لايقاف فرار جيشه المهزوم وحثه على مواصلة القتال حتى آخر رجل منهم: « أيها المسلمون مالكم الجنة لا الجحيم ـ ان نعم الجنة مضمونة لكل جندى مسلم يستشهد فى الحرب المقدسة » ٠

وفى مرحلة من مراحل تلك الحروب التى استمرت خمسة عشر عاما اجتاح الخزر جورجيا وأرمينيا وأنزلوا بالجيش العربى هزيمة نكراء فى معركة أردبيل سنة ٧٣٠ م وتقدموا حتى بلغوا الموصل وديار بكر أى أكثر من نصف الطريق المؤدى الى دمشق عاصمة الخلافة ولكن صد هذا التيار جيش اسلامى جديد وتقهقر الخزر عائدين الى بلادهم عبر الجبال وفى العام التالى استطاع مسلمة بن عبد الملك أشهر قائد عربى فى ذلك الوقت والذى سبق أن قاد حصار القسطنطينية أن يستولى على بلانجار ووصل حتى سمندار وهى مدينة كبيرة أخرى الى الشمال ، الا أن الغزاة عجزوا مرة أخرى عن أن يقيموا قاعدة عسكرية دائمة لهم واضطروا للانسحاب عبر جبال القوقاز وتنفست الامبراطورية الرومانية الصعداء واتخذ ارتياحها هذا شكلا ملموسا هو حلف أسرى آخر حيث تزوج وريث عرش الامبراطور البيزنطى أمــيرة خزرية قدر لابنها أن يحكم بيزنطة وعـرف باسم ليو الخزرى ٠

وكانت آخر حمــلة عربية بقيادة مروان (الخليفــة مروان الثانى فيما بعد) وانتهت بانتصار العرب انتصارا باهظ الثمن ـ وكان مروان قد عرض على خاقان الخزر أن يعقد الاثنان حلفا ثم هجم جيش مروان عليه على حين غرة عبر كلا الممرين ولما عجز جيش الخزر من أن يفيق من هذه الصدمة المفاجئة تقهقر حتى بلغ نهر الفولجا وأجبر الخاقان على أن يطلب المصالحة ـ وطبقا للأسلوب المحدد الذى جرى عليه الخليفة فى البلاد الأخرى التى فتحها طلب الى الخاقان أن يعتنق الاسلام واستجاب الخاقان لطلب الخليفة ، الا أن اعتناقه هذا كان مجرد كلام كاذب حيث لم يرد بعد ذلك أى ذكر لهذا الحدث فى المصادر العربية أو البيزنطية وذلك بالمقارنة الى النتائج الثابتة لاتخاذ الخزر اليهودية دينا رسميا لدولتهم بعد ذلك بسنوات قليلة (يحتمل أن تحول الخزر الى اليهودية تم حوالى سنة ٧٤٠ م) واذ قنع مروان بالنتائج التى حققها رحل عن بلاد الخزر وسار بجيشه عائدا الى ما وراء القوقاز دون أن يترك وراءه حامية ما أو حاكما أو أى جهاز ادارى ـ وعلى النقيض من ذلك طلب بعد مضى وقت قصير التفاهم مع الخزر لوضع شروط لحلف آخر معهم ضد القبائل الثائرة فى الجنوب ٠

أجــل لقــد دفع ثمن باهظ للنصر وكانت الدوافع التى أثارت شهامة مروان الواضحة موضع جدل شأنها شأن أمور كثيرة أخرى فى هذا الفصل الغريب من فصول التاريخ وربما أدرك العرب أنه خلافا للفرس

والأرمن المتمدينين نسبيا لا يمكن لحاكم دمية مسلم أو لحامية صغيرة ـ حكم برابرة الشمال المتوحشين أولئك ـ وفضلا عن ذلك فقد احتاج مروان لكل رجل فى جيشه كى يخمد الثورات الكبرى المشتعلة فى سوريا وفى غيرها من ولايات الخلافة الأموية التى كانت فى طريقها الى التفكك ـ ثم ان مروان كان هو نفسه القائد الأعلى فى الحروب الأهلية التى تلت ـ وأصبح فى سنة ٧٤٤ آخر الخلفاء الأمويين (قتل مروان بعد ذلك بست سنوات حين انتقلت الخلافة الى الدولة العباسية) ـ وفى ضوء هذه الخلفية لم يكن مروان فى وضع يسمح له بأن يستنزف موارده فى شن حروب أخرى ضد الخزر وكان لزاما عليه أن يقنع بتلقينهم درسا يحول دون قيامهم بغزوات أخرى عبر القوقاز ٠

وهكذا قدر لحركة الكماشة الاسلامية الهائلة عبر البرانس فى الغرب والقوقاز فى شرق أوربا أن تتوقف فى الطرفين فى حوالى الوقت نفسه ، ذلك أنه بينما أنقذ فرنجة شارل مارتل بلاد الغال وأوربا الغربية أنقذ الخزر الطرق الشرقية الى الفولجا والدانوب والامبراطورية الرومانية الشرقية نفسها ـ وفى هذه النقطة على الأقل يتفق عالم الآثار المؤرخ السوفيتى أرتامونوف والمؤرخ الأمريكى الأستاذ دانلوب اتفاقا تاما وقد سبق أن أوردت فقرة نقلتها عن دانلوب أشار فيها الى أنه لولا الخزر لطوق العرب بيزنطة حصن الحضارة الأوربية تجاه الشرق ولاتخذ التاريخ مجرى مختلفا ٠

ويرى أرتامونوف الرأى نفسه (١٨) : « كانت بلاد الخزر أول دولة اقطاعية فى أوربا الشرقية تحتل مرتبة واحدة مع الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية ٠٠ وكان لهجمات الخزرالفعالة وحدها الفضل فى تحويل تيار الجيوش العربية الى القوقاز وبذلك استطاعت بيزنطة أن تصمد أمامها » ٠

وأخيرا يقرر أستاذ التاريخ الروسى فى جامعة أوكسفورد الأستاذ ديمترى أوبولنسكى ما يلى (١٩) :

> **« كانت الخدمة الأساسية التى قدمها الخزر لتاريخ العالم هى نجاحهم فى الصمود والدفاع عن خط القوقاز ضد انقضاض العرب نحو الشمال » ٠**

ولم يكن مروان آخر قائد عربى فحسب يهاجم الخزر ، بل كان أيضا آخر خليفة يتبع سياسة توسعية كرست من الناحية النظرية على الأقل لتحقيق انتصار الاسلام فى العالم كله ـ ولكن لما تولى الحكم الخلفاء العباسيون توقفت حروب الفتوحات وخلق أثر الثقافة الفارسية العريقة ـ وقد انتعش من جديد ـ مناخا أرق بعث آخر الأمر أمجاد بغداد أيام هارون الرشيد ٠

٨ ـ وفي أثناء فترة الهدوء الطويلة بين الحروب العربية الأولى والثانية بورط الخزر في حدث من أفظع أحداث التاريخ البيزنطى التى كانت طابع تلك العصور وطابع الدور الذى لعبه فيها الخزر .

ففى سنة ٦٨٥ أصبح جستنيان (التانى) الذى أطلق عليه لقب رينوتميتوس امبراطورا للدولة الرومانية الشرقية وكان وقتئذ فى السادسة عشرة من عمره ـ ويرسم المؤرخ جيبون بأسلوبه الفريد صورة هذا الشاب فى عبارته التالية (٢٠) :

كانت انفعالاته عنيفة وكان ادراكه ضعيفا كما كان مفتونا بغرور أحمق وقد قرب اليه وزيرين من وزرائه كانا أقل الناس قابلية للتعاطف الانســـانى أحــــدهما خصى والآخر راهب ـ فالأول أدب أم الامبراطور بالسوط ، والثانى علق الرعايا العاجزين عن دفع ما فرض عليهم من اتاوات ـ ورءوسهم الى أسفل ـ فوق نار بطيئة داخنة » .
مباين جنوب سباستبول الحديثة وهي مستوطنة مقفرة كان يورد اليها القمح
وأمر الامبراطور الجديد ليونتيوس Teontius بتشويه جســـتنيان ونفيه (٢١) .

وتم بتر أنفه وربما لسانه أيضا بصورة شائهة وأضفت عليــــه اللغة الاغريقية المرنة اسم رينوتيميتوس Rhinometus (أى أجدع الأنف) ونفى الطاغية المشوه الى خرسون فى القرم ـ التتارية على بعـد ميلين جنوب سباستبول الحديثة وهى مستوطنة مقفرة كان يورد اليها القمح والنبيذ والزيت وكأنها سلع ترفيهية (*) .

ودأب جستنيان طيلة مدة نفيه فى خرسون Cherson على التآمر لاسترداد عرشه وأدرك بعد مضى ثلاث سنوات أن الظروف تحسنت لصالحه فقد حدث فى بيزنطة أن خلع ليونيتوس وجدع أنفه هو أيضا ـ وتمكن جستنيان من الهرب من خرسون وقصد مدينة دوروس فى القرم وكانت تحت حكم الخزر وهناك عقد اجتماعا مع خاقان الخزر الملك بوصـير أو « بازير » ـ ولابد أن الخاقان رحب بهذه الفرصة التى تتيح له التدخل فى السياسات الأسرية البيزنطية فألف حلفا مع جستنيان وزوجه شقيقته ـ وهذه الشـــقيقة التى عمدت باسم تيودورا وتوجت فيما بعد كانت فيما يبدو الشخصية المحترمة الوحيدة فى سلسلة المؤامرات الدنيئة هذه ـ فقد حملت لزوجها أجدع الأنف حبا صادقا (وكان لا يزال فى أوائل

(*) اتسمت المعاملة التى كانت من نصيب جستنيان بالتساهل ذلك لأن الاتجاه العام فى تلك الفترة هدف الى تخفيف العقوبة بجعل البتر بديلا للاعدام ـ وانحصرت أكثر العقوبات فى بتر اليد عن السرقة ، وبتر الأنف عن الزنا .. الخ ـ كذلك اعتاد الحكام البيزنطيون سمل عيون منافسيهم الخطيرين وتركهم على قيد الحياة .

الثلاثين من عمره فحسب) وقد انتقل الزوجان وحاشـــيتهما الى بلدة فاناجوريا (تامان حاليا) على الشاطىء الشرقى لمضيق كرش وكانت تحت امرة حاكم خزرى وهنا أعدوا عدتهم لغزو بيزنطة بمعونة جيوش الخزر التى وعدهم بها الملك بوصـير الا أن رسل الامبراطور الجديد تيبيريس الثالث Tiberias III أقنعوا بوصير بأن يغير رأيه وعرضوا عليه مكافأة سخية من الذهب ان هو سلم جستنيان حيا أو ميتا للبيزنطيين ـ وبناء على ذلك أصدر الملك بوصير أوامره الى اثنين من رجاله الأشداء هما باباتزيس Papatzes وبالجيتريس Balgitres بقتل زوج شقيقته ولكن تيودورا الوفية علمت بالمؤامرة وحذرت زوجها فدعا جستنيان كلا من باباتزيس وبالجيتريس على حدة وشنق الواحد بعد الآخر بحبل ثم اعتلى سفينة وأبحر عبر البحر الأسود الى مصب نهر الدانوب وعقد حلفا جديدا مع قبيلة بلغارية قوية أثبت ملكها تربوليس Terbolis أنه يمكن له أن يعتمد عليه أكثر من اعتماده على خاقان الخزر حيث انه فى سنة ٧٠٣ زود جســتنيان بخمسة عشر ألف فارس كى يهـــاجم القسطنطينية وكان البيزنطيون ـ وقد مضت عشر سنوات ـ اما قد نسوا الجوانب المظلمة لحكم جستنيان السابق أو أنهم وجدوا حاكمهم الحالى أبغض من سابقه وأشــد ظلما فثاروا فورا على تيبيريس وأعادوا جستنيان الى العرش وكوفىء ملك البلغار بكومة من العملة الذهبية راح يقيسها بسوطه الاسكيثى ثم قفل راجعا الى وطنه (ليتورط بعد سنوات قليلة فى حرب جديدة ضد بيزنطة) ٠

وأثبتت فترة حكم جستنيان الثانية (٧٠٤ ـ ٧١١) أنها كانت أسوأ من الأولى فقد « اعتبر الفأس وحبل المشنقة والمخلعة (أداة تعذيب قديمة يمط عليها الجسم) الأدوات الوحيدة المتاحة للملكية » (٢٢) وغدا جستنيان مخبولا استحوذ عليه هاجس كراهيته لأهل خرسون حيث قضى أمر سنوات نفيه فأرسل حملة الى هذه المدينة ولقى بعض مواطنيها البارزين مصرعهم بحرقهم أحياء وأغرق آخرون كما أُسر الكثيرون ولكن لم يكف ذلك كله لاشباع رغبة جستنيان فى الانتقام فأرسل حملة ثانية الى المدينة وأمرها أن تدمرها تدميرا تاما حتى تسوى بالأرض ـ ولكن حدث هذه المرة أن أوقف زحف جنده جيش خزرى قوى وعندئذ انقلب باردانيس Bardanes ممثل جستنيان فى القرم على مليكه وانضم الى الخزر ـ واذ ضعفت معنويات جنود الحملة فقد أعلنوا تخليهم عن ولائهم لجستنيان وانتخبوا باردانيس امبراطورا ولقب بالامبراطور فيليبكس ولكن لما كان هذا فى قبضة الخزر كان لزاما على المتمردين أن يدفعوا فدية الى الخاقان كى يستردوا امبراطورهم الجديد ولما عادت الحملة الى القسطنطينية قتل جستنيان وابنه واستقبل فيليبكس بالترحيب بوصفه محررا ونصب على العرش ولم تمض سنتان حتى عزل هو الآخر وأعمى ٠

والقصد من هذه القصة المثيرة هو بيان مدى ما كان للخزر من نفوذ في هذه المرحلة على أقدار الامبراطورية الرومانية الشرقية علاوة على دورهم بوصفهم حماة خط دفاع القوقاز المنيع ضد المسلمين ـ فقد كان باردانيس فيليبكس امبراطورا من صنع الخزر وكانت نهاية حكم جستنيان الارهابى على يد شقيق زوجه وهو خاقان الخزر ـ وفى ذلك نقتبس قول الأستاذ دانلوب « لا يبدو أن هناك مبالغة فى القول انه فى هذه المرحلة كان الخاقان قادر فعلا على أن يقدم حاكما جديدا للامبراطورية الرومية » (٢٣) .

٩ ـ ومن حيث التسلسل الزمنى فان الحدث التالى الذى ينبغى مناقشته هو تحول الخزر الى الديانة اليهودية حوالى سنة ٧٤٠ م ولكن كى يدرك المرء حقيقة ذلك الحدث غير العادى فى منظوره الصحيح لابد أن تكون لديه على الأقل فكرة اجمالية الى حد ما عن عادات الخزر وأعرافهم وحياتهم اليومية قبل تحولهم الى اليهودية .

وليس لدينا ـ للأسف ـ تقارير مثيرة لشاهد عيان كما جاء فى وصف بريسكس لبلاد اتيلا وكل ما لدينا فى الغالب روايات ثانوية وتصنيفات قام بجمعها حوليون بيزنطيون وعرب وهى تخطيطية وناقصة الى حد ما باستثناء حالتين احداهما خطاب يفهم منه أنه صادر من ملك خزرى ـ وسوف نعالجه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ـ والحالة الثانية هى كتاب أسفار كتبه ابن فضلان وكان مثل بريسكس عضوا فى بعثة دبلوماسية من بلاط متمدين الى برابرة الشمال .

وكان هذا البلاط هو بلاط الخليفة العباسى المقتدر . وقد سافرت البعثة الدبلوماسية من بغداد عبر فارس وبخارى الى أرض بلغار الفولجا ـ وكانت الذريعة الرسمية لهذه البعثة المهيبة خطاب دعوة بعثه ملك البلغار يطالب فيه الى الخليفة العباسى (أ) بأن يرسل اليه فقهاء ليهدوا شعبه الى الدين الاسلامى (ب) وأن يشيد له الخليفة حصنا يمكنه من تحدى سيده الأعلى ملك الخزر ـ كذلك أتاحت هذه الدعوة ـ التى لابد أن مهدت لها من قبل اتصالات دبلوماسية ـ نقول أتاحت هذه الدعوة فرصة لخلق شعور ودى بين القبائل التركية المختلفة التى تقطن الأقاليم التى كان لزاما على البعثة المرور فيها حيث راحت البعثة تنشر رسالة القرآن الكريم بين الناس وتوزع كميات كبيرة من الذهب صدقة عليهم .

تقول الفقرات التى استهل بها رحالتنا كتابه :

هذا كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن رسيد بن حماد وهو موظف فى خدمة (القائد) محمد بن سليمان سفير (الخليفة) المقتدر الى ملك البلغار وفيه يروى ما شاهده فى أرض الأتراك والخزر والروس والبلغار

والبشـكير وغـيرهم ، ويعرض للأنواع المختلفة لديانتهم وتواريخ ملوكهم وأساليبهم فى شتى مناحى الحياة ٠

لقد وصل خطاب ملك البلغار الى أمير المؤمنين المقتدر وفيه طلب بأن يبعث اليه من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الاسلام ويبنى له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة فى بلده وجميع مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له (يقصد ملك الخزر) وقد استجاب الخليفة الى كل ما طلبه الملك واخترت لقراءة رسالة الخليفة الى الملك ولأسلمه الهدايا التى أرسـلها اليه الخليفة ولأشرف على عمـل المدرسين ومفسرى الشريعة ــ (ثم يلى ذلك بيانات عن تمويل البعثة وأسماء أعضائها) وهكذا بدأنا سفرنا يوم الخميس المـوافق ١١ صفر سنة ٣٠٩ هجرية (٢١ يونيه ٩٢١) من مدينة السلام (بغداد عاصمة الخلافة) ٠

ويلاحظ أن تاريخ البعثة متأخر كثيرا عن الأحداث التى جاء وصفها فى القسم السابق ولكن ليس هناك على الأرجح فارق يذكر فيما يتعلق بعبادات جيران الخزر الوثنيين ونظمهم ثم ان النظرات الخاطفة التى تلقيها على حياة هذه القبائل البدوية تنقل على الأقل فكرة عما كان عليه الخزر فى أثناء تلك الفترة المبكرة ــ قبل تحولهم الى اليهودية ــ حين شايعوا صيغة من الشامانية شـبيهة بتلك التى ظـل جـيرانهم يمارسـونها فى زمن ابن فضلان ٠

وكانت مسيرة أعضاء البعثة بطيئة وخلت من أحداث هامة فيما يبدو حتى وصلوا الى خوارزم وهى المقاطعة الواقعة فى حدود الخلافة جنوبى بحر آرال وهنا حاول حاكم هذه المقاطعة أن يمنع البعثة من مواصلة سيرها بحجة أن البلاد الواقعة بين مقاطعته ومملكة البلغار يقطنها آلاف من القبائل الكافرة التى لابد وأنها سوف تفتك بأعضاء البعثة ــ وحقيقة الأمر ــ كانت هناك على الأرجح دوافع أخرى لمحاولات هذا الحاكم اغفال تعليمات الخليفة فى الترخيص للبعثة بالمرور ــ فقد أدرك أن البعثة كانت موجهة بطريق غير مباشر ضد الخزر الذين أقام معهم تجارة رابحة وعلاقات ودية ــ ولكنه اضطر فى النهاية الى الموافقة وأذن لأعضاء البعثة بأن يواصلوا مسيرتهم الى الجورجانية الواقعة عند منبع نهر أم داريا وهنا قضوا ثلاثة أشهر ــ فترة الشتاء ــ حيث كان البرد قارسا ــ وهو موضوع طالما تردد ذكره فى كثير من قصص الرحالة العرب :

« تجمد النهر لمدة ثلاثة أشهر ورنونا ببصرنا فرأينا بلدا ما ظننا الا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه ــ حقا لقـد لاحظت أن ساحة السوق والشوارع خالية تماما بسبب البرد ٠٠ وفى ذات مرة حين خرجت

من الحمام ووصلت الى البيت لاحظت أن لحيتى فد تجمدت وأصبحت كتلة من الجليد واضطررت الى أن أذيبها أمام النار واعتكفت بضعة أيام فى بيت مجاور لآخر (من مجموعة منازل مسورة) تصبت فيه خيمة تركية صنعت من اللباد وتمددت داخل الخيمة متدثرا بالملابس والفراء ولكن رغم ذلك كثيرا ما تجمد خداى على الوسادة ...

وحوالى منتصف فبراير بدأ الثلج يذوب وأخذت البعثة تعد العدة لتنضم الى قافلة كبيرة تتألف من خمســة آلاف رجل وثلاثة آلاف دابة لتجتاز معها السهول الشمالية - فاشترينا حاجياتنا الضرورية : الجمال والقوارب المصنوعة من جلد الجمل المدبوغ لنعبر بها الأنهار - ثم الخبز والدخن واللحوم المتبلة التى تكفينا لمدة ثلاثة أشهر - وقد حذر الأهالى أعضاء البعثة بأنهم ســوف يواجهون فى الشمال طقسا أشـــد برودة وأشاروا عليهم بما يجب ارتداؤه من ملابس :

« فكان كل رجل منا عليه قرطق (قميص يصل الى منتصف الجسم) وفوقه قفطان صوفى فوقه سترة مبطنة بالفراء وفوقها برنس له قلنسوة من الفراء لا يظهر تحتها سوى عينى لابسها - كما ارتدى كل منا زوجا من السراويل التحتية البسيطة (طاق) وزوجا مثله مبطنا - ولبسنا فوقها بنطلونا ووضعنا فى أقدامنا حذاء منزليا مصنوعا من الجلد المدبوغ وفوقه حذاء طويل الساق فكان الواحد منا اذا ركب الجمل فانه لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب » (*) .

ولم يرق ابن فضلان العربى النيق مناخ خوارزم ولا شعبها :

« أنهم من حيث لغتهم وبنية أجسامهم أكثر الناس اثارة للاشمئزاز فلغتهم أشبه بصياح الزرازير وهناك على مسافة سفر يوم واحـد قرية اسمها أردكوا Ardkwa يعرف سكانها باسم الكردلية كلامهم أشبه تماما بنقيق الضفادع .

ورحل ركب أعضاء البعثة فى يوم ٣ مارس وتوقفوا لقضاء ليلة فى خان اسمه زامجان - وهو المدخل الى اقليم الأتراك الغز ومن الآن فصاعدا غدت البعثة فى أرض أجنبية « وتوكلنا على الله سبحانه وتعالى » - وفى أثناء احدى العواصف الثلجية الكثيرة الحدوث ركب ابن فضلان الى جوار تركى راح يشكو قائلا « ترى ماذا يريد الحاكم منا ؟ اننا نقتل على يديه من البرد . لو عرفنا ماذا يريد للبينا طلبه » . فرد عليه ابن فضلان قائلا

(*) رسالة ابن فضلان - سامى الدهان ص ٨٦ - ٨٧ . (المترجم)

« ان كل ما يريده أن يقول كل منكم أشهد ألا اله الا الله » فضحك التركى وقال « لو عرفنا ذلك لفعلنا » .

وهناك أحــداث عرضية مماثلة يرويها ابن فضــلان دون أن يقدر ما تعكسه من حرية الرأى . كذلك لم يدرك مبعوث بغداد ادراكا كاملا ما يكنه رجال القبائل البدوية من احتقار أصيل للسلطة ــ وقد جرى الحادث التالى فى اقليم الأتراك الغز الأقوياء الذين كانوا يدفعون جزية للخزر وكانوا طبقا لما تذكره بعض المصادر وثيقى الصلة بهم (٢٤) :

« وفى صباح اليوم التالى قابلنا أحد الأتراك وكان قمىء المنظر رث الهيئة خسيس المخبر وضيعا فى تصرفانه وكنا نتحرك وسط مطر غزير ــ عندئذ قال « قفوا » فتوقفت القافلة عن آخرها وهى مؤلفة من ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل » ثم أردف قائلا « لن يسمح لأى منكم بمواصلة السير » وتوقفنا اطاعة لأوامره (واضح أن قادة القافلة الكبيرة أرادوا أن يتحاشوا أى اصطدام مع قبائل الغز) ــ ثم قلنا له « نحن أصدقاء الكوذاركن (أى الوالى) فراح يضحك وتساءل « من هو ذلك الكوذاركن ــ أنا أخرى على لحية كوذاركن . ثم قال « بكند » يعنى بلغة خوارزم « أريد خبزا » فأعطيناه عددا قليلا من الأرغفة فأخذها وصاح « لتواصلوا مسيرتكم ــ لقد أشفقت عليكم » (*) .

وأثارت الأساليب الديمقراطية التى مارسها الغز كلما احتاجوا الى اتخاذ قرار فى مسألة ما ــ دهشة أشد عند ابن فضلان مندوب التيوقراطية المتسلطة حيث يقول :

« هم بدو لهم بيوت شعر يحملون ويرتحلون ترى منهم الأبيــات (البيوت) فى مكان ومثلها فى مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم واذا هم فى شقاء وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون الى عقل ولا يعبدون شيئا بل يسمون كبراءهم أربابا فاذا استشار أحدهم رئيسه فى شىء قال له يارب ايس أعمل فى كذا وكذا ؟ وأمرهم شورى بينهم غير أنهم متى اتفقوا على شىء وعزموا عليه جاء أرذلهم فنقض ما قد أجمعوا عليه » (*) .

وكانت عادات الغز الجنسية وكذا عادات غيرهم من القبائل خليطا من التحررية والهمجية :

« لا يضع نساؤهم الحجاب ــ كما انهن لا يغطين أى عضو فى أجسامهن

(★) رسالة ابن فضلان ــ سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٠ ص ٨١ و ص ٩١ و ص ٩٢ . (المترجم)

في حضرة الناس ، ولقد نزلنا يوما على رجل فجلسنا وامرأة الرجل معنا فبينما هي تحدثنا اذ كشفت فرجها وحكته ونحن ننظر اليها فسترنا وجوهنا وقلنا « أستغفر الله » فضحك زوجها وقال للترجمان : قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه ــ فلا يوصل اليه هو خير من أن تغطيه وتمكن منه » · ويقول ابن فضلان انهم « لا يعرفون الزنا ومن ظهر منه على شيء من فعله شقوه نصفين وذلك انهم يحملونه بين أغصان شجرتين ثم يشدونه بالأغصان ويرسلون الشجرتين فينشق الذى شد اليهما » (*) ·

ولا يذكر ابن فضلان عما اذا كانوا يوقعون العقوبة نفسها على المرأة المذنبة ويتحدث في قسم لاحق من تقريره عن بلغار الفولجا فيصف طريقة وحشية مماثلة لشطر الزناة شطرين الذكور والاناث على حد سواء ويلاحظ في شيء من الدهشة أن البلغار ذكورا واناثا يسبحون في الأنهار وهم عرايا دون خجل أو حياء مثلهم في ذلك مثل الغز ·

أما اللواط الذى كان يعتبر في البلاد العربية شيئا متوقعا فان ابن فضلان يقول عنه انه عند الأتراك خطيئة مشينة ولكنه في الحدث الوحيد الذى يرويه ليدلل على صحة قوله يذكر أن الرجل الذى غوى غلاما أمرد فلت من هذا العمل المنكر بغرامة قدرها أربعمائة رأس من الغنم » ·

ولما كان رحالتنا ابن فضلان قد ألف حمامات بغداد الفخمة فانه لم يستطع أن يتغاضى عن قذارة الأتراك : « ان الغز لا يغتسلون بعد أن يتبرزوا أو يتبولوا ولا هم يستحمون بعد التلوث المنوى أو في مناسبات أخرى ــ انهم يرفضون أن تكون لهم أية علاقة بالمياه وخاصة في الشتاء ··· » وحين خلع قائد الغز سترته المترفة من الديباج المقصب ليرتدى سترة جديدة جلبتها له البعثة لاحظ أعضاؤها أن ملابسه الداخلية كانت منسلة من القذارة حيث كان من عادة الغز ألا يخلعوا الثوب الذى يلبسونه ملاصقا لأبدانهم حتى يتحلل « وهناك قبيلة تركية أخرى هي قبيلة الباشغرد يحلق أهلها لحاهم ويأكلون قملهم ــ فهم يبحثون عنه في ثنيات ملابسهم الداخلية ويقضمونه بأسنانهم وحين راقب ابن فضلان عضوا من القبيلة وهو يفعل ذلك قال هذا العضو معلقا « انها لذيذة الطعم » ·

لم تكن الصورة في جملتها صورة مرضية وكان رحالتنا المتأنق يكن للبرابرة احتقارا عميقا وان أثارته فحسب قذارتهم وما ارتآه منافيا للآداب

(*) رسالة ابن فضلان ــ سامى الدهان ــ دمشق ١٩٦٠ ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ·
(المترجم)

مثل الكشف عن الجسد أما وحشية عقوباتهم وطقوسهم القربانية فقد جعلته غير مبال بها تماما وهكذا فانه يصف عقوبة البلغار لمن يرتكب جريمة القتل باهتمام فاتر خال من عبارات السخط التي يكررها في مسائل أخرى فيقول « انهم يصنعون له (يقصد المجرم) صندوقا من خشب البتولا ويضعونه فيه ثم يثبتون غطاءه بالمسامير ويتركون الى جانبه ثلاثة أرغفة من الخبز ووعاء به ماء ويعلقون الصندوق بين عامودين طويلين ثم يقولون : لقد وضعناه بين السماء والأرض كي يتعرض للشمس والمطر ولعل الاله يغفر له » وهكذا يظل معلقا حتى يبليه الزمن وتذروه الرياح ٠

ويصف ابن فضلان أيضا بتحفظ مماثل الطقس الكئيب بتقديم الأضاحي من مئات الخيل وقطعان من حيوانات أخرى والقتل البشع الشعائري لفتاة روسية (*) من الرقيق الى جوار نعش سيدها ٠

ولم يذكر ابن فضلان عن الديانات الوثنية الا الشيء القليل ولكن عبادة قبيلة الباشغرد لقضيب الذكر أثارت اهتمامه حيث سأل أحد المواطنين - عن طريق المترجم - عن سبب عبادته قضيبا خشبيا - ودون اجابته عن سؤاله حيث أجاب المواطن « لأني ولدت من شيء مماثل ولا أعرف خالقا آخر صنعني » - ثم يضيف ابن فضلان « ان بعضهم (الباشغرد) يعتقدون في اثني عشر ربا : فهناك رب للشتاء وآخر للصيف وثالث للمطر ورابع للرياح وخامس للأشجار وسادس للرجال وسابع للحصان وثامن للمياه وتاسع للعمل وعاشر للنهار وحادي عشر للأرض على حين أن الرب الذي يقطن السماء هو أعظم الأرباب كلهم الا أنه يتبادل المشورة معهم وبالتالي فالجميع راضون عن أعمال كل منهم ٠

وقد رأينا طائفة منهم تعبد الثعابين وطائفة تعبد الأسماك وطائفة تعبد الكراكي ٠٠٠

واكتشف ابن فضلان عادة غريبة بين قبائل بلغار الفولجا :

عندما يلحظون رجلا تميز بحدة ذكائه وعلمه فانهم يقولون : خير لهذا الرجل أن يوقر ربنا فيقبضون عليه ويلفون حبلا حول عنقه ويشنقونه على شجرة حيث يتركونه حتى يبلى ٠٠٠

وتعليقا على هذه العبارة يقول المستشرق التركي زكي وليد طوقان (وهو علامة ثقة لا ينازع في سيرة ابن فضلان) ما يلي (٢٥) :

(*) روس معناها هنا المؤسسون الفايكنج الذين أسسوا أوائل المستوطنات الروسية ، انظر فصل ١ ٠

« ليس هناك شيء غامض بشأن المعاملة الوحشية التى أنزلها البلغار بأولئك أصحاب الذكاء المفرط فقد قامت هذه المعاملةعلى التفكير البسيط المتزن ، تفكير المواطنين العاديين الذين أرادوا أن يعيشوا ما اعتبروه حياة سوية فحسب وأن يتحاشـوا أية مجازفة أو مغـامرة قد يقودهم اليها « العباقرة » ــ ثم يستشهد العلامة طوقان بمثل تاتارى يقول « ان كنت تعرف أكثر مما ينبغى فسوف يشنقونك ، وان كنت متواضعا الى حد بعيد فسوف يطأونك بأقدامهم » وينتهى هذا العلامة الى القول « لا ينبغى اعتبار الضحية كأنها مجرد شخصية مثقفة بل كعبقرية صعبة المراس شخصية شديدة البراعة بدرجة غير كاملة · وهذا يؤدى بالمرء الى الاعتقاد بأن تلك العادة يجب اعتبارها مجرد اجراء لحماية المجتمع ضد التغير قل انها عقوبة المنشقين والمبتكرين المحتملين (*) ــ الا أنه يعود بعد أسطر قليلة فيعطى تفسيرا مختلفا :

ان ابن فضلان يصف لا مجرد قتل أصحاب الذكاء المفرط بل عادة من عاداتهم الوثنية : تقديم البشر قربانا للرب فكانوا يختارون لذلك أبرز المتازين من الرجال ــ ويرجح أن هذا النوع من الشعائر لم يتول تنفيذه عامة البلغار بل تولاه أطباؤهم أو بالأحرى شاماناتهم Shamans (كهنة يستخدمون السحر لمعالجة المرضى) الذين كان لأقرانهم بين البلغار والروس سلطة الحكم أيضا بالحياة أو الموت على الناس وذلك باسم دينهم وطبقا لما رواه ابن رسته كان فى سلطة أطباء الروس أن يلفوا الحبل حول عنق أى فرد من الشعب ويشنقوه على شجرة تضرعا لرحمة الرب ــ وعندما يتم ذلك كانوا يقولون « هذا قربان للرب » ·

وربما كان نمطا الدوافع على هذا العمل ممتزجين معا : « حيث ان تقديم الأضاحى شيء ضرورى فلنضحى بمثيرى المتاعب » ·

وسنرى أن الخزر مارسوا هم أيضا تقديم الأضحية البشرية بما فى ذلك شعيرة قتل الملك فى نهاية حكمه · وقد نفترض أنه كانت هناك أوجه شبه كثيرة أخرى بين عادات القبائل التى وصفها ابن فضلان وعادات قبائل الخزر ، ولسوء الحظ حرم ابن فضلان من زيارة عاصمة الخزر فاضطر أن يعتمد على معلومات جمعها فى أقاليم خاضعة لسيادة الخزر وخاصة فى بلاط البلغار ·

١٠ ــ استغرقت البعثة التى أرسلها الخليفة العباسى المقتدر سنة

(*) تأييدا لرأيه يورد الاستاذ طوقان اقتباسات بأصلها التركى والعربى دون ترجمة وهى عادة بغيضة جرى عليها الخبراء العصريون ·

تقريبا (من ٢١ يونيه ٩٢١ ـ ١٢ مايو ٩٢٢) كى تصل الى غايتها أى بلاد بلغار الفولجا ويلاحظ أن الطريق المباشر من بغداد الى الفولجا يتجه عبر القوقاز وبلاد الخزر ومن ثم اضطرت البعثة لتتحاشى هذه البلاد الأخيرة أن تقوم بالتفاف كبير حول الشاطىء الشرقى لبحر الخزر ـ أى بحر قزوين ـ ورغم ذلك فقد نبه أعضاء البعثة على نحو متواصل الى قرب شعب الخزر منهم والى أخطاره الكامنة ٠

وجرى حدث مميز خلال اقامتهم المؤقتة لدى قائد جيش الغز (صاحب الملابس الداخلية الممزقة) فقد لقوا فى أول الأمر ترحيبا طيبا وأقيمت لهم مأدبة ، الا آن قادة الغز غيروا رأيهم بعد قليل بسبب علاقاتهم مع الخزر فجمع الرئيس سائر الزعماء ليقرروا ما ينبغى عليهم عمله ٠

وكان «الطرخان» أبرز الحاضرين وأقواهم نفوذا ـ وكان أعرج وأعمى واحدى يديه مبتورة ـ خاطبهم الرئيس قائلا :هؤلاء هم رسل العرب ولا أحسب أننى مفوض للترخيص لهم بأن يواصلوا مسيرتهم دون أن أستشيركم » بعدئذ تكلم الطرخان « هذا شىء ما رأيناه قط ولا سمعنا به ولا اجتاز بلادنا رسول سلطان مذ كنا وآباؤنا وما أظن الا أن السلطان قد أعمل الحيلة ووجه هؤلاء الى الخزر كى يثيرهم ضدنا والأفضل أن يقطع هؤلاء الرسل نصفين نصفين ونأخذ ما معهم (*) وقال آخر منهم « لا بل نأخذ ما معهم ونتركهم عراه يرجعون من حيث جاءوا » ـ وقال ثالث « لا لا ولكن لنا عند ملك الخزر أسرى منا فلنرسل له هؤلاء الناس فدية لنحرر أسرانا » ٠

وظلوا يتناقشون فيما بينهم سبعة أيام وابن فضلان ورجاله « فى حالة الموت » من الفزع ـ وفى آخر الأمر أطلق الغز سراحهم ولا نعرف سبب ذلك ويحتمل أن ابن فضلان نجح فى اقناعهم أن بعثته هى فى الحقيقة موجهة ضد الخزر وجدير بالذكر أن الغز كانوا قد سبق لهم أن حاربوا الى جانب الخزر ضد قبيلة بشنج Pechenegs التركية ولكنهم اتخذوا أخيرا موقفا عدائيا نحوهم ـ ومن ثم جاء ذكر الرهائن الذين احتجزهم الخزر ٠

ولاح فى الأفق خطر الخزر الجسيم طيلة الرحلة ـ فقام أعضاء البعثة بحركة التفاف واسعة أخرى شمال بحر قزوين قبل أن يصلوا الى مخيم البلغار القائم فى بقعة قرب التقاء نهرى الفولجا وكاما وهناك كان ملك البلغار وقادتهم ينتظرونهم فى تلهف شديد ـ وحالما انتهت مراسم الاستقبال

(*) رسالة ابن فضلان ـ سامى الدهان ـ طبعة دمشق سنة ١٩٦٠ ص ١٠٤ (المترجم) ٠

والحفلات البهيجة استدعى الملك ابن فضلان ليبحث معه مهمة البعثة وراح يذكر ابن فضلان فى أسلوب حاسم (بدا صوته وكأنه يتكلم من قاع برميل) بهدف البعثة الأساسى – يعنى المبلغ المطلوب دفعه اليه – وأضاف الملك « حتى أستطيع أن أبنى حصنا يحمينى من اليهود الذين استعبدونى) – ولسوء الحظ فان هذا المبلغ وقدره أربعة آلاف دينار – لم تستطع البعثة تسلمه قبل سفرها بسبب الروتين الحكومى فلما علم ملك البلغار بذلك وهو شخص مهيب عريض المنكبين بدين ، أوشك أن ييأس وساوره الشك فى أن البعثة احتالت عليه واستولت على المبلغ فوجه الى ابن فضلان السؤال التالى : « ماذا ترى فى رجل دفع الى قوم مالا ليسلموه لشعب ضعيف محاصر يضطهد واذا بهم يحتالون ويسلبون المال لأنفسهم ؟ فقلت « هذا لا يجوز ، وهؤلاء قوم سوء » فسأل « هل هذا مجرد رأى أم هو اجماع » قلت « هو اجماع » وشيئا فشيئا استطاع ابن فضلان أن يقنع الملك أن المال تأخر وصوله فحسب (*) ، ولكن لا ليهدىء من قلقه – وراح الملك يكرر بأن موضوع دعوة البعثة قام أساسا على طلب بناء حصن لأنه كان يخشى ملك الخزر وواضح أنه كان لديه كل ما يبرر خوفه حيث يقول ابن فضلان :

« ان ابن ملك البلغار (الصقالبة) كان قد أخذه ملك الخزر رهينة لديه وبلغ ملك الخزر أن لملك البلغار ابنة جميلة فأرسل رسولا ليخطبها وراح ملك البلغار يتعلل بمعاذير تبرر عدم موافقته فأرسل ملك الخزر رسولا ثانيا وأخذ ابنة ملك البلغار غصبا وهو يهودى وهى مسلمة ولكنها ماتت عنده – وأرسل ملك الخزر رسولا جديدا وطلب يد ابنة ملك الصقالبة الثانية ولكن حدث فى الساعة التى وصل فيها رسول الملك أن سارع ملك البلغار بتزويجها الى أمير أسكل Askil الذى كان خاضعا له – وقد فعل ملك البغار ذلك خشية أن يأخذ ملك الخزر إبنته الثانية بالقوة كما فعل بأختها من قبل – وكان هذا الأمر وحده السبب الذى دفع ملك البلغار الى الكتابة الى الخليفة المقتدر وأن يطلب اليه أن يساعده فى بناء حصن لأنه كان يخاف ملك الخزر » .

وهكذا كان الحديث بين ملك البلغار وابن فضلان أشبه بعبارة تتكرر على نحو موصول فى قصيدة أو أغنية – ويفصل ابن فضلان أيضا الجزية السنوية التى التزم ملك البغار بدفعها الى الخزر : فراء سمور من كل أسرة فى مملكته – وكان عدد الأسر البلغارية (أى عدد الخيام) – يقدر

(*) واضح أن المبلغ وصل فى وقت ما فيما بعد حيث لم يرد ذكر لهذا الموضوع بعد ذلك .

وقتئذ بحوالى خمسين ألف أسرة ـ ولما كان فراء السمور باهظ القيمة فى أنحاء العالم فقد كانت هذه الجزية اتاوة سخية ٠

١١ ـ ويلاحظ أن ما يقصه ابن فضلان علينا عن الخزر مبنى ـ كما ذكر من قبل ـ على الأخبار التى جمعها فى أثناء رحلته ولكن كان معظمها فى البلاط البلغارى ـ وخلافا لسائر روايته التى صدرت عن ملاحظات شخصية مليئة بالحيوية فان الصفحات التى دونها عن الخزر نحوى معلومات جمعها من مصادر ثانويه أى بطريق غير مباشر ومن ثم فهى قليلة القيمة نوعا ما وعلاوة على ذلك فان مصادر معلوماته متحيزة نظرا لكراهية ملك البلغار لسيده ومولاه ملك الخزر ـ وهى كراهية ندرك أسبابها ـ فى حين أن سخط الخلافة على مملكة تعتنق ديانة منافسة أمر يكاد لا يحتاج الى تأكيد ٠

وينتقل ابن فضلان فجأة فى حكايته من وصف بلاط الروس الى بلاط الخزر فيقول :

أما فيما يختص بملك الخزر الذى يلقب بالخاقان فهو يظهر للجمهور مرة واحدة كل أربعة أشهر ويطلقون عليه اسم الخاقان العظيم أما مساعده فيطلق عليه اسم « خاقان بك » وهذا هو الذى يقود الجيوش ويمونها ويدير أمور الدولة ويظهر أمام الجمهور وهو القائد فى الحروب ـ ويطيع أوامره الملوك جيرانه ثم هو يمثل يوميا فى حضرة الخاقان العظيم فى احترام وتواضع وهو حافى القدمين ويحمل فى يده عصا من الخشب وعندما يدخل على الخاقان ينحنى أمامه ثم يشعل العصى وعندما تحترق تماما يجلس على العرش الى يمين الملك ويليه فى المكانة رجل يطلق عليه كندر خاقان ويلى هذا جاوشغر خاقان ٠

ومن عادة الخاقان العظيم ألا تكون له علاقات اجتماعية مع الشعب وألا يتكلم معهم وألا يسمح لأحد بالدخول اليه فيما عدا أولئك الذين ذكرناهم ـ أما سلطة اعتقال الناس واطلاق سراحهم وفرض العقوبات وحكم البلاد فقد كانت كلها من اختصاص مساعده الخاقان بك ٠

وهناك عادة أخرى تخص الخاقان العظيم ذلك أنه عندما يموت يشيد له مبنى عظيم يحوى عشرين حجرة وتحفر فى كل منها مقبرة له وتفتت أحجار حتى تصبح مسحوقا ينثر على الأرضية ويغطى بالقار ويجرى تحت المبنى نهر كبير تتدفق مياهه بسرعة ويحولون ماء النهر الى فوق القبر ويقولون انهم يعملون هذا حتى لا يستطيع أن يصل الى القبر شيطان أو انسان أو دودة أو أية كائنات زاحفة ـ وبعد أن يتم دفن الملك تضرب أعناق من دفنوه حتى لا يعرف أحد فى أية حجرة يقع قبره ـ ويطلق على

القبر اسم « الجنة » وليم فى ذلك قول مأثور : « **انه دخل الجنة » ــ وكل الحجرات مكسوة بقماش مقصب يتخلله نسيج من خيوط الذهب ٠**

واعتاد ملك الخزر أن تكون له خمسة وعشرون زوجة كل منهن ابنة ملك من الملوك الذين يدينـون بالولاء له ويتزوجهن بالرضا أو بالقوة ــ وعلاوة على ذلك يتخذ ستين فتاة محظيات له ــ كل منهن ذات جمال فاتن ٠

ثم يواصل ابن فضلان قصته ليعطى وصفا خياليا الى حد ما لحريم الملك فيقول ان لكل من الخمس والثمانين زوجة وخليلة قصرا خاصا بها وخادما أو خصيا يحضر سيدته للملك فى لمح البصر فور طلبه ٠

بعد أن يورد ابن فضلان قليلا من الملاحظات التى هى أكثر مدعاة للشك ــ عن عادات خاقان الخزر (وسنرجع اليها فيما بعد) فانه يذكر بعض بيانات حقيقية عن البلاد :

للملك مدينة كبيرة على ضفتى نهر اتل (الفولجا) يعيش المسلمون على احـدى الضفتين ويعيش فى الأخرى الملك وحاشيته ويتولى حـكم المسلمين مـوظف مسلم من موظفى الملك ويسهر على قضـايا المسلمين المقيمين فى عاصمة الخزر وكذا قضايا التجار الوافدين اليها من الخارج ولا يسمح لغيره بالتدخل فى أمورهم أو الفصل فى قضاياهم ٠

وينتهى تقرير ابن فضـلان عن رحلته بقـدر ما بقى منه سـليما بالكلمات التالية :

ان الخزر وملكهم هم جميعا (*) يهود ــ ويخضع له البلغار وجميع جيرانهم ويبجلونه ويطيعونه طاعة عمياء ويرى البعض أن يأجوج ومأجوج هم الخزر ٠

١٢ ــ لقد أسهبت فى الاقتباس من ملحمة ابن فضلان ولم يكن ذلك بسبب المعلومات الضئيلة التى قدمها عن الخزر أنفسهم ولكن بسبب الضوء الذى تلقيه على العالم الذى أحاط بهم وبالبربرية الصارخة التى كانت عليهـا الشعوب التى عاشت بينهم مما يعكس ماضيهم هم قبل

(*) يبدو فى هذه العبارة نوع من المغالاة حيث يوجد فى العاصمة نفسها طائفـة من المسلمين ــ ومن ثم يلاحظ أن الأستاذ زكى وليدى طوقان حذف لفظ « الجميع » ــ وعلينا أن نفترض أن كلمة « الخزر » تشير الى الشعب أو القبـلة الحاكمة فى نطاق التشكيلة العرقية التى تؤلف شعب الخزر ــ وأن المسلمين تمتعوا باستقلال ذاتى دينيا وشرعيا ولكنهم لم يعتبروا خزرا أصليين ٠

تحولهم الى اليهودية · ذلك لأن بلاد الخزر وقت زيارة ابن فضلان للبلغار كانت على نحو ينير الدهشة ـ بلادا عصرية بمقارنتها بجيرانها ·

ويؤيد هذا الفارق ما دونه مؤرخون عرب آخرون (*) وهو فارق قائم على كل مستوى من الاسكان الى ادارة القضاء ـ فتذكر تقارير هؤلاء المؤرخين أن البلغار كانوا ـ على وجه الحصر ـ لا يزالون يعيشون في خيام بما فيهم الملك ولو أن الخيمة الملكية « خيمة كبيرة جدا » تسع ألف شخص أو أكثر (٢٦) ومن جهة أخرى يسكن خاقان الخزر قصرا مشيدا من الآجر المحروق ويقال ان نساءه يقطن « قصورا سقوفها من خشب الساج » (٢٧) وللمسلمين مساجد عديدة مئذنة أحدها أعلى من القصر الملكى (٢٨) ·

وفى الأقاليم الخصبة تمتد ضياعهم والمساحات المزروعة على نحو متصل لمسافة تزيد على ستين أو سبعين ميلا كما أن لهم مزارع كروم متميزة ـ وبالتالى يقول ابن حوقل « هناك فى كزر (يقصد بلاد الخزر) مدينة اسمها اسميد (سمندار) فيها العديد من بساتين الفاكهة والحدائق الى حد أن الريف الممتد من داربند الى سرير تكسوه حدائق ومزارع تابعة لهذه المدينة ويقال ان عددها حوالى أربعين ألفا كثير منها ينتج عنبا(٢٩) ·

وكان الاقليم الواقع شمال القوقاز وافر الخصوبة جدا ، وفى سنة ٩٦٨ حدث أن قابل ابن حوقل رجلا زار هذا الاقليم عقب غارة روسية فكتب ما يلى :

« قال الرجل ليس هناك حتى النزر اليسير للفقراء فى أى كرم أو حديقة بل وليست هناك أية ورقة نبات فوق غصن من الأغصان (ولكن) نظرا لخصوبة أرضهم ووفرة محاصيلها فلن يستغرق اعادتها الى ما كانت عليه ثلاث سنوات » هذا ولا يزال « النبيذ » القوقازى مشروبا يبعث على البهجة وتستهلك منه كميات وفيرة فى الاتحاد السوفيتى ·

ومع ذلك كانت التجارة الخارجية المصدر الرئيسى لدخل الخزانة الملكية ـ وقد أشار ابن فضلان الى مجرد حجم قوافل التجارة التى تذرع طريقها بين آسيا الوسطى واقليم الفولجا أورال ونذكر أن القافلة التى انضمت اليها بعثته فى جرجانى تألفت من خمسة آلاف رجل وثلاث آلاف دابة ، واذا التمسنا له عذرا فى المبالغة فى هذا العدد فلابد أن القافلة بعد ذلك كله كانت قافلة ضخمة ـ ونحن لا نعرف كم من هذه القبائل

(*) مصادر الصفحات التالية هى مؤلفات الاصطخرى والمسعودى وابن رسته وابن حوقل ·

كانت في حالة تنقل من مكان الى آخر في أي فترة كما لا نعرف السلع التي نقلتها ولو أن المنسوجات والفواكه المجففة والعسل والشمع والتوابل لعبت دورا هاما فيما يبدو . وكان هناك طريق هام ثان للتجارة عبر القوقاز الى أرمينيا وجورجيا وفارس وبيزنطة ، أما الطريق التجاري السالف الذي احتوى التجارة المتزايدة لأساطيل تجار الروس النازلة في الفولجا الى شواطىء بحر الخزر الشرقية فقد كانت تحمل في الغالب الفراء الثمينة التي كان يتهافت على شرائها صفوة من المسلمين كما كانت تلك الأساطيل تحمل الرقيق من الشمال لبيعهم في سوق العاصمة اتل ـ وقد فرض حاكم الخزر ضريبة قدرها عشرة في المائة من قيمة السلعة على كل هذه السلع المارة ببلاده بما في ذلك الرقيق . وعلاوة على هذه الضريبة كانت هناك جزية يدفعها البلغار والمجريون والبورنا وغيرهم جرا ـ من ذلك يدرك المرء أن بلاد الخزر كانت بلادا مزدهرة ولكنه يدرك أيضا أن ازدهارها اعتمد الى حد كبير على قوتها العسكرية وما أضفته من هيبة ووقار على رجالها من محصلي الضرائب وموظفي الجمارك .

وبصرف النظر عن الأقاليم الخصبة في الجنوب بكرومها وبساتينها فقد كانت بلاد الخزر فقيرة في مواردها الطبيعية ـ يقول مؤرخ عربي (الاصطخري) ان غراء السمك كان المحصول المحلي الوحيد الذي صدروه ولا شك أن في هذا القول مبالغة أيضا ـ ومع ذلك فالواقع ان نشاطهم التجاري الرئيسي يبدو أنه تضمن اعادة تصدير السلع المجلوبة من الخارج ومن هذه السلع التي شدت خيال الحولي العربي العسل والشمع وهكذا يقول المقدسي : « تتكاثر في بلاد الخزر قطعان الأغنام وننتج من العسل كميات وفيرة ويعيش فيها العديد من اليهود » (٣٠) . حقا يذكر أحد المصادر ـ « دارباند نامه » ـ مناجم الذهب والفضة في أراضي الخزر ولكن لم يتم تحديد موقعها ومن جهة أخرى تشير مصادر عديدة الى سلع خزرية شوهدت في بغداد ، وكذا الى وجود تجار خزر في القسطنطينية والاسكندرية بل وفي جهات نائية مثل سامراء وفرغانه .

وهكذا لم تكن بلاد الخزر اطلاقا منعزلة عن العالم المتمدين ـ بل كانت بمقارنتها بجيرانها بلادا متحررة من الأحقاد القومية أو المحلية ومفتوحة لمختلف الثقافات والأديان ومع ذلك ظلت تدافع بحماس عن استقلالها ضد القوتين الروحانيتين العالميتين وسنرى أن هذا الموقف مهد السبيل للتطور المفاجىء المثير أو قل الانقلاب الذي أرسى اليهودية دينا رسميا للدولة .

ويبدو أن الفنون والحرف بما في ذلك الأزياء الرفيعة المبتكرة تقدمت وازدهرت عند الخزر فعندما تزوج قنسطنطين (الذي أصبح فيما بعد

الامبراطور قنسطنطين الخامس) ابنة خاقان الخزر (انظر قسم ١ أعلاه) أحضرت مع مهرها ثوبا رائعا بلغ من اعجاب الحاشية البيزنطية به أن اتخـذه أعضاؤها رداء طقسـيا للرجال وأطلقوا عليه اسـم تزيتزاكيون tzitzakion اشتقاقا من الاسم الخزرى التركى الذى استخدم لتدليل الأميرة وهو تشى تشاق Chichak أى الزهرة (الى أن عمدت باسم ايرين) ويعلق العلامة توينبى على ذلك بقوله « لدينا هنا نقطة مضيئة من التاريخ النقافى » (٣١) ـ وعندما تزوجت أميرة خزرية أخرى حاكم أرمينيا المسلم تضمن موكبها ـ الى جانب الخدم والرقيق ـ عشر خيام ركبت على عجلات ـ « وصنعت الخيام من أرق أنواع الحرير ولها أبواب مكسوة بالذهب والفضة ـ وأرضيتها مغطاة بفراء السمور وكان هناك عشرون خيمـة أخـرى نقلت مهرها المكون من الأوانى الذهبيـة والفضـية وكنوز أخرى (٣٢) ـ أما الخاقان نفسـه فقد ارتحل فى خيمـة متحركة كانت تجهيزاتها أكثر ترفا وكانت تعلوها رمانة من ذهب ٠

١٣ ـ وكان الفن الخزرى ـ شأنه شأن فن البلغار والمجر ـ قائما فى الأكثر على المحاكاة حيث صيغ على النماذج الفارسية الساسانية ، وقد شدد عالم الآثار الروسى الأستاذ بادر Bader (٣٣) على دور الخزر فى نشر الطراز الفارسى للأوانى الفضية نحو أقطار الشمال ٠ وربما أعيـد تصدير بعض هذه الكنوز على يد الخزر تمشيا مع دورهم بوصفهم وسطاء بينما كانت غيرها مقلدة صنعت فى ورش الخزر التى اكتشفت أطلالها على مقربة من الحصن الخزرى القديم حصن ساركل (*) ـ فقد تبين أن المجوهرات التى عثر عليها فى منطقة الحصن كانت صناعة محلية (٣٤) ، ويتحدث عالم الآثار السويدى الأستاذ آرن عن أطباق ومشابك وحلى معدنية زخرفية وجدت فى أماكن نائية حتى فى السويد نفسها وأنها من وحى ساسانى وبيزنطى وتم صنعها فى بلاد الخزر أو فى المناطق التى كانت خاضعة لنفوذهم (٣٥) ٠

وهـكذا كان الخزر الوسطاء الرئيسـيين فى نشر الفن الفـارسى والبيزنطى بين القبائل شبه البربرية فى شرق أوربا وبعد أن قام العلامة بارتا بمسح شامل دقيق للأدلة الأثرية والوثائقية (ومعظمها من مصادر روسية) انتهى الى القول :

أن نهب الخزر مدينة تفليس الذى يحتمل أنه حدث فى ربيع ٦٢٩ هو أمر وثيق الصلة بموضوعنا ٠٠٠٠ (ففى أثناء فترة الاحتلال) أرسل

(*) لسوء الحظ فان ساركل وهى أهم بقعة أثرية خزرية قد غمرتها اليوم مياه خزان حديث أقيمت فوق مبناه محطة لتوليد الكهرباء بالقوى المائية ٠

الخاقان مفتشين للاشراف على صناعة المنتجات من الذهب والفضة والحديد والنحاس ـ كذلك كانت الأسواق والتجارة بصفة عامة بل ومواطن صيد السمك تحت مراقبتهم .... (وهكذا) اتصل الخزر فى عضون حملاتهم القوقازية المتوالية خلال القرن السابع بثقافة نبعت ونمت من الفكر الفارسى الساسانى وبناء على ذلك انتشرت ثمار هذه الثقافة الى شعوب السهوب لا عن طريق التجارة وحدها بل عن طريق السلب وحتى عن طريق فرض الضرائب .... وجدير بالذكر أن كل السبل التى حرصنا على سلوكها أملا فى الكشف عن أصول الفن المجرى فى القرن العاشر رجعت بنا فى النهاية الى بلاد الخزر » (٣٦) .

وتشير الملاحظة الأخيرة للعلامة المجرى الى الاكتشافات المثيرة المعروفة باسم كنز ناجى زينتميكلوس Nagyzentmiklos فى متحف تاريخ الفن Kunsthistorisches فى فيينا ـ ويتألف هذا الكنز من ثلاثة وعشرين آنية ذهبية يرجع تاريخها الى القرن العاشر ، وقد عثر عليها فى سنة ١٧٩١ على مقربة من قرية بهذا الاسم ، هى الآن فى رومانيا وتسمى حاليا سينيكولول مارى Sinnicolaul Mare ويلفت بارتا النظر الى أن تمثال الأمير الظافر » وهو يشد أسيرا من شعره وكذا المنظر الخرافى المرسوم على ظهر الآنية الذهبية ورسوم الأشياء الزخرفية الأخرى ، توضح الصلات الوثيقة بينها وبين النفائس التى عثر عليها فى نوفى بازار Novi Pazar فى بلغاريا وفى ساركل ببلاد الخزر ـ ولا غرابة فى هذا حيث خضع المجريون والبلغار كلاهما لسيادة الخزر فترات طويلة فالمحارب وسائر قطع الكنز تعطينا على الأقل فكرة عن الفنون التى مارسها الناس داخل امبراطورية الخزر (وكما يتوقع المرء يغلب عليها الأثر الفارسى والبيزنطى) (*) .

وتصر مدرسة من علماء الآثار المجريين على أن صناع الذهب والفضة الذين عملوا فى المجر فى القرن العاشر الميلادى كانوا فعلا من الخزر(٣٧). وكما سنرى فيما بعد (الفصل الثالث ٧ ، ٨) حين هاجر المجريون الى المجر سنة ٨٩٦ كانت تقودهم قبيلة خزر منشقة تعرف باسم كابار Kabar استقرت معهم فى موطنهم الجديد وكان الكابار الخزر مشهورين بمهاراتهم فى صناعة الذهب والفضة وقد اكتسب المجريون (الأصليون والأكثر بدائية) هذه المهارات فى بلدهم الجديد ـ وبناء على ذلك فان النظرية القائلة

(*) سيجد القارىء الذى يهمه هذا الموضوع مجموعة رائعة من الصور الفوتوغرافية فى مجلد :
(Gyula Laszlo : The Art of the Migration Period.
ولو أن تعليقاته التاريخية ينبغى أن تؤخذ بحذر .

الأصل الخزرى لبعض الاكتشافات الأثرية فى المجر ليست غير محتملة – كما سيتضح أكثر فى ضوء الروابط الخزرية التى سنعالجها فيما بعد ·

١٤ – وسواء كان المحارب الواردة صورته على الآنية الذهبية من أصل مجرى أو خزرى فانه يساعدنا على تصور هيئة فارس تلك الفترة ولعله انتمى الى فرقة ممتازة – يقول المسعودى انه فى الجيش الخزرى يمتطى سبعة آلاف من هؤلاء الفرسان (*) صحبة الملك بعضهم رماة السهام يلبسون الدروع الواقية لصدورهم والخوذات والمزرودات وبعضهم حاملو الرماح مجهزون على غرار ما فى يد المسلمين من آلات السلاح وليس لأحد من الملوك فى هذا الجزء من العالم جيش دائم الا ملك الخزر – يقول ابن حوقل « لهذا الملك اثنا عشر ألف جندى فى خدمته فان مات واحد منهم اختير على الفور شخص آخر يحل مكانه » ·

ولدينا هنا مفتاح آخر لهيمنة الخزر : جيش محترف دائم وحرس امبراطور خاص سيطر وقت السلم سيطرة فعالة على الخليط العرقى فى البلاد – وكون فى وقت الحرب النواة الأساسية للحشد المسلح الذى ازداد أحيانا الى مائة ألف رجل كما رأينا (**) ·

(★) يقول الاصطخرى ان عددهم ١٢ ألف ·

(★★) طبقا لما ذكره المسعودى « تألف الجيش الملكى من المسلمين الذين هاجروا من الأقاليم المجاورة لخوارزم – فمنذ زمن بعيد عقب ظهور الاسلام – وقعت حروب فى بلادهم وأصابها جدب ووباء فنزحوا الى بلاد ملك الخزر – وكان هذا حين يحارب المسلمين يصبح هؤلاء المهاجرين المسلمين فى جيشه فى فرقة مستقلة حتى لا يحاربوا أبناء دينهم ولا شك أن القول بأن الجيش تألف من المسلمين قول فيه مبالغة – بل ان المسعودى نفسه نقض ذلك بعد أسطر قليلة حيث يذكر أن الفرقة المسلمة لها وضع مستقل فى جيش الخزر – كذلك يقـــول ابن حوقل ان للملك حاشية قوامها أربعة آلاف مسلم وله ١٢ ألف جندى فى خدمته – ويحتمل أن الخوارزميين كانوا نوعا من الحرس السويسرى داخل الجيش – ولعـل حديث زملائهم عن « رهائن » (انظر قسم ١٠ أعلاه) يشير اليهم · وعلى عكس ذلك كان للامبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيروجينيتوس فرقة مختارة Corps d'Elite من الحرس الخزرى – تحرس بوابات قصره – وكانت هذه ميزة كلفت من يفوز بها ثمنا باهظا « حيث كان هؤلاء الحراس يتناولون مكافآت سخية – ومن ثم تكالبوا على شراء هذه الوظائف بمبالغ ضخمة كانت مرتباتهم بالنسبة لها تمثل دخلا سنويا يتراوح ما بين ٢٫٢٥/ الى ٤/ (عن رسالة الامبراطور قسطنطين بورفيروجينيتوس ص ٦٩٢ – ٦٩٣ – بروتوكول البـــلاط ،
شلن جـــ
مثال ذلك أن الخزرى الذى كان يحصل على ٤ ٧ دفع للحصول على وظيفة فى الحرس
شلن جـــ
المذكور ٨ ٣٠٢ (عن كتاب بيورى ص ٢٢٨)» ·

١٥ – يحتمل انه فى بادىء الأمر كانت عاصمة هذه الامبراطورية المختلطة العناصر هى قلعة بلانجار القائمة على التلال السفحية الشمالية لجبال القوقاز ثم نقلت بعد غارات العرب فى القرن الثامن الى سمندار على الشاطىء الغربى لبحر قزوين ثم الى اتل فى مصب نهر الفولجا .

ولدينا أوصاف كثيرة لبلدة اتل وكلها متطابقة الى حد ما – كانت اتل مدينة ثنائية بمعنى أنها قامت على جانبى النهر سمى نصفها الشرقى « خزران » وسمى نصفها الغربى اتل (*) – يصل بينهما جسر عائم زوارق يحيط النصف الغربى سور منيع مبنى من الآجر احتوى قصور الخاقان والخاقان بك وأفنيتها ومساكن خدمهما (**) ومساكن الخزر « اصحاب الدم الخزرى الخالص » . وكان للسور أربع بوابات تواجه احداها النهر . وعاش المسلمون وعبدة الأوثان (٣٨) عبر النهر على الساطىء الشرقى واحتوى هذا الجزء المساجد والأسواق والحمامات وغيرها من المرافق العامة – ولقد أعجب كثير من كتاب العرب بعدد المساجد القائمة فى الحى الاسلامى وبمئذنة المسجد الرئيسى الشاهقة – كما دأبوا على تأكيد الاستقلال الذى نعمت به المحاكم الاسلامية ورجال الدين – واليك ما قاله المسعودى – هيرودوت العرب – فى هذا المجال فى كتاب مروج الذهب ومعادن الجواهر :

« جرى العرب فى عاصمة الخزر أن يكون بها سبع قضاة منهم اثنان للمسلمين واثنان للخزر يفصلان فى القضايا طبقا للتوراة (شريعة موسى) ، واثنان للمسيحيين يفصلان فى القضايا طبقا للانجيل وقاض للصقالبة والروس وسائر الجاهلية (الوثنيين) يصدر أحكامه طبقا لأحكام الجاهلية (الوثنية) ... ويعيش فى مدينة ملك الخزر مسلمون كثيرون بين تجار وحرفيين جاءوا الى بلاده ينشدون عدله وما يوفره لهم من أمن وأمان – ولهم مسجد رئيسى له مئذنة يفوق ارتفاعها القصر الملكى علاوة على مساجد أخرى بها مدارس لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم » (٣٨أ) .

ان قراءة هذه الأسطر التى كتبها المؤرخ العربى الكبير فى النصف الأول من القرن العاشر (بين ٩٤٣ و ٩٤٧ م) قد تغرى المرء على أن يتصور أن الحياة فى مملكة الخزر كانت أشبه بتلك التى تصفها الأناشيد الرعوية – حياة توحى بالرضا والطمأنينة – وهكذا نطالع فى مقال عن الخزر

(*) أطلق على هذه المدينة أسماء أخرى فى فترات مختلفة فمثلا سميت فى وقت ما « المدينة البيضاء » .

(**) ويرى المسعودى أن هذه المبانى قامت فى جزيرة قريبة من الشاطىء الغربى او فى شبه جزيرة .

ورد في دائرة المعارف اليهودية ما يلي : في عصر ساد فيه التعصب والجهل والفوضى في أوربا الغـربية استطاعت مملكة الخزر أن تفخـر بحكومتها العادلة المتسامحة (*) ٠

وقد كان هذا كما رأينا ـ صحيحا الى حد ما ولكن الى حد ما فحسب٠ وليس لدينا أى دليل على آن الخزر تورطوا فى اضطهاد دينى سواء قبل أو بعد تحولهم الى اليهودية ـ وفى هذه الناحية يمكن وصفهم بأنهم أكثر تسامحا وتنورا من الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الاسلام فى مراحله الأولى ـ ومن جهـة أخرى يبـدو أنهم احتفظوا ببعض الطقوس البربرية التى ورثوها عن ماضيهم القبلى وقد حدثنا ابن فضلان عن قتل حفارى قبور الملوك ـ وذكر شيئا آخر عن عادة قديمة : عادة قتل الملوك ـ قال ابن فضلان : ان مدة حكم ملك الخزر هى أربعون سنة فان تجاوزها بيوم واحـد قام رعاياه وخدمه بقتله زاعمين ان تفكيره قد غدا معتما وبصيرته مشوشة » ٠

ويذكر الاصطخرى رواية أخرى عن الموضوع نفسه فيقول :

> **عندما يريدون تنصيب هذا الخاقان فانهم يلفون حبلا حريريا حـول عنقه ويشدونه حتى يوشك على الاختنـاق ثم يسألونه : ما طول الفترة التى تعتزم تولى الحكم فيها ؟ ـ فاذا حدث ولم يمت قبـل السـنة التى حـددها فانه يقتـل حين يبلغها ٠**

ويساور العـلامة بيورى (٣٩) الشـك فى تصديق هذا النوع من روايات الرحالة العرب وقد يميل المرء حقا الى رفضها لولا أن شعيرة قتل الملوك كانت ظاهرة واسعة الانتشار بين الشعوب البدائية (وتلك التى ليست شديدة البدائية) ـ وقد أكد فريزر العلاقة بين فكرة ألوهية الملك والالتزام المقدس بقتله بعد فترة محددة عندما تذبل حيويته وذلك كى توفق السلطة الالهية الى العثور على شخصية أكثر شبابا ونشاطا (**) ٠

(*) دائرة المعارف اليهودية Jewish Encyclopaedia (١٩٠١ ـ ١٩٠٦)

وتحوى دائرة معارف يهودية أخرى اسمها Encyclopaedia Judaica طبعة ١٩٧١ مقالا مثاليا من حيث موضوعيته كتبه الأستاذ دانلوب ٠

(**) كتب فريزر بحثا بهذا المعنى عنـوانه « قتل ملوك الخزر » فى مجـلة Folklore بالعدد ٢٨ الصادر سنة ١٩١٧ ٠

ومما يؤيد الاصطخرى أن الشعيرة الشاذة عن «خنق ملك المستقبل» قد ورد ما يفيد وجودها في زمن أقل قدما نوعا ما بين شعب آخر هم الترك ـ الكوك Kok-Turks فقد اقتبس العلامة التركى زكى وليدى طوقان عن عالم الآثار الفرنسى سان جوليان عبارات كتبها هذا الأخير سنة ١٨٦٤ جاء فيها ما يلى :

« عندما يتم انتخاب الرئيس الجديد ··· يساعده ضباطه وخدمه على أن يمتطى صهوة جواده ··· ثم يشدون شريطا حريريا حول عنقه دون أن يخنقوه ثم يرخون الشريط ويسألونه فى اصرار شديد « كم سنة تستطيع أن تكون خانا علينا » واذ يعجز الملك ـ وقد اضطرب فكره ـ أن يحدد عددا من السنوات فان رعاياه يقررون ـ بناء على الكلمات التى عجز عن نطقها ـ مدة حكمه من حيث طولها أو قصرها » (٤٠) ·

وانا لا نعرف ما اذا كانت شعيرة قتل الملك عند الخزر (اذا صح وجود هذه الشعيرة اطلاقا) قد توقفت مؤقتا عندما اتخذ هؤلاء اليهودية دينا لهم وفى هذه الحالة يكون الكتاب العرب قد خلطوا ممارسات الماضى بالحاضر كما فعلوا طول الوقت وهم يجمعون روايات الرحالة الذين سبقوهم ونسبوها الى معاصريهم ومهما يكن من شىء فان الموضوع الذى يجب ألا يغيب عن ذهننا والذى لا جدال فيه هو الدور المقدس المعزو الى الخاقان بصرف النظر عما اذا كان انطوى على التضحية به فى النهاية ـ لقد علمنا من قبل انه كان مبجلا ولكنه كان فى عزلة فعلا لا يتصل بالشعب الى يوم دفنه فى حقل مهيب ـ أما شئون الدولة بما فيها قيادة الجيش فكان يتولاها البك (ويسمى أحيانا خاقان بك) الذى جمع فى يده كل السلطة الفعالة ـ وفى هذه النقطة تتفق المصادر العربية والمؤرخون العصريون ـ ويصف الأخيرون نظام حكم الخزر بأنه ملكية ثنائية حيث يمثل الخاقان السلطة الدينية ويمثل البك السلطة الدنيوية ·

وقد شبهت ملكية الخزر الثنائية بالحكومة الثنائية الاسبرطية وبالقيادة الثنائية لمختلف القبائل التركية والمماثلة لها فى الظاهر الا أن ملكى اسبرطة المنحدرين من أسرتين عريقتين كانت لهما سلطات متساوية ـ أما القيادة الثنائية التى سادت بين القبائل البدوية فليس لدينا دليل على وجود توزيع واضح لاختصاصاتها كما كان الحال بين الخزر (*) ·

(★) فى رأى الأستاذ الفولدى Alfoldi كان الزعيمان هما القائدان لجناحى القبيلة (اقتبس دانلوب هذا الرأى فى كتابه ص ١٠٩) ·

والتنسبيه الأصح هو نظام الحكم في اليابان الذى قام منذ العصور الوسطى حتى سنة ١٨٦٧ حيث كانت السلطة الدنيوية مركزة في يد الشوجان بينما كان الميكادو يعبد من بعد بوصفه رئيسا صوريا مقدسا ·

ورأى كاسل (٤١) تشابها جزئيا جذابا بين نظام حكم الخزر ومباراة الشطرنج فالملكية الثنائية يمثلها على رقعة الشطرنج الملك (الخاقان) والوزير (البك) — ويحرص اللاعب على أن يحتفظ بالملك في عزلة — يحميه خدمه وله سلطة ضئيلة ولا يمكنه التحرك سوى خطوة قصيرة كل مرة — أما الوزير فهو بالمقارنة أقوى القطع الموجودة على الرقعة وهو الذى يهيمن عليها — ومع ذلك فقد يخسر اللاعب الوزير وتظل المباراة مستمرة على حين ان سقوط الملك يعنى الكارثة النهائية التى تنهى المباراة فورا ·

وهكذا يبدو أن الملكية التنائية تدل على تمييز مطلق بين ما هو مقدس وما هو دنيوى في ذهن الخزر — وتبدو خصائص الخاقان المقدسة واضحة جلية في الفقرة التالية المنقولة عن ابن حوقل (*) :

« ينبغي أن يكون الخاقان دائما من العرق الامبراطورى (يقول الاصطخرى ···· من عائلة الوجهاء (٤١أ) ولا يسمح لأحد أن يدنو منه الا لعمل هام : وعندئذ ينبطحون أمامه ويمسحون وجوههم في الأرض حتى يصدر لهم أوامره بالدنو منه والتكلم اليه ··· وعندما يموت الخاقان فعلى كل من يمر قرب مقبرته أن يسير على قدميه ويقدم احتراماته أمام المقبرة وعليه عند الرحيل ألا يمتطى جوادا طالما ظلت المقبرة في نطاق رؤيته ·

وسلطة هذا العاهل مطلقة تماما بحيث تطاع أوامره طاعة تامة الى حد أنه اذا بدا له أنه من صالحه أن يموت واحد من وجهائه وقال له « اذهب واقتل نفسك » فان الرجل عندئذ كان يذهب على الفور الى بيته

(*) ابن حوقل هو جغرافى ومؤرخ عربى آخر تجول في بلاد كثيرة وألف كتابه : « صورة الأرض » حوالى ٩٧٧ م · والفقرة المقتبسة هنا هى فعلا صورة مما كتبه الاصطخرى قبل ذلك بأربعين سنة ، ويقول المؤلف أنه التزم بترجمة أوسلى Ouseley التى نشرت سنة ١٨٠٠ لابن حوقل ، وفيما يلى النص الأصلى العربى الوارد في كتاب ابن حوقل « صورة الأرض » الذى نشره في هولنده المستشرق كرامرز وعدد من زملائه ص ٣٩٤ — طبعة ١٩٣٩ :

ولا يصل اليه (الى الخاقان) أحد الا لحاجة واذا دخل عليه المرء تمرغ له في التراب وسجد وقام من بعد حتى يأذن له بالقعود ···· واذا مات خاقان ودفن لم يمر بقبره أحد الا ترجل له وسجد ولا يركب ما لم يغب عن قبره » (المترجم) ·

ويعد نفسه طوعا لأمر مولاه · واذ رسخت وراثة عرش الخاقان على هذا النحو فى الأسرة نفسها (يقول الاصطخرى : فى أسرة من آلوجهاء الذين لا يملكون نفوذا أو ثروة (٤١ب)) فعندما يحل الدور على من يستحق الوراثة من أعضائها فانه يبت فى المنصب الرفيع رغم أنه قد لا يملك درهما واحدا ولقد سمعت من أشخاص جديرين بالثقة أن شابا ما اعتاد الجلوس فى حانوت صغير فى السوق العام يبيع فيه سلعا بسيطة (يقول الاصطخرى انه كان يبيع خبزا) وأن الناس دأبوا على أن يقولوا : عندما يرحل الخاقان الحالى فسوف يليه على العرش هذا الشاب — (يقول الاصطخرى : ليس هناك من هو أجدر بالخاقانية أكثر منه (٤١جـ)) ولكن الشاب كان مسلما وهم يعطون الخاقانية لليهود وحدهم ·

وللخاقان عرش ومقصورة من الذهب ولا تجوز هذه الأشياء لغيره — وقصر الخاقان أكثر ارتفاعا من المبانى الأخرى » (٤٢) ·

ان الفقرة السابقة عن الشاب العفيف الذى كان يبيع الخبز أو أية سلعة أخرى فى السوق تبدو وكأنها قصة عن هرون الرشيد — فاذا كان ذلك هو الشاب الوريث للعرش الذهبى المحجوز لليهود فلم اذن ربى بوصفه مسلما فقيرا ؟ اذا كان لنا أن نجعل لهذه القصة معنى بأية حال فلزام علينا أن نفترض أن الخاقان كان يختار على أساس فضائله الرفيعة مع ملاحظة أنه كان يختار من بين أعضاء « العرق الامبراطورى » أو « أسرة الوجهاء » ، والواقع ان هذا هو رأى أرتامونوف الروسى وزكى وليدى طوقان — اذ يعتقد أرتامونوف أن الخزر وغيرهم من الشعوب التركية حكمتهم سلالة أسرة تركوت Turkut الحكام السابقين لامبراطورية الترك المندثرة (انظر فقرة ٣ أعلاه) — ويرى زكى وليدى أن « العرق الامبراطورى » أو « أسرة الوجهاء » التى ينبغى أن ينتمى اليها الخاقان تشير الى أسرة أسينا Asena القديمة التى ورد ذكرها فى المصادر الصينية — وأسرة أسينا تلك هى نوع من الأرستقراطية الصحراوية جرى العرف أن ادعى الانتساب اليها الحكام الترك والمغول — وهذا الرأى يبدو مقبولا الى حد ما ويؤدى بطريقة ما الى التوفيق بين المعانى المتناقضة المفهومة ضمنا فى القصة المقتبسة للتو : قصة الشاب النبيل الذى لا يملك درهما — والأبهة والاحتفال المحيطين بالعرش الذهبى — الواقع اننا نشهد تداخل نوعين من التقاليد أشبه بما نشهده على الشاشة من تشابك صورتين : تقشف قبيلة بدو الصحراء وهى تعيش حياة شاقة ، وتألق حاشية ملكية يعيش أفرادها حياة مزدهرة بفضل تجارتهم وبراعتهم فى حرفهم الفنية ويجاهدون كى يبرزوا منافسيهم فى بغداد والقسطنطينية ومع

ذلك فان العقائد التى آمن بها أولئك أصحاب الفخامة رجال الحاشية الملكية انما أوحى بها أيضا فى الماضى أنبياء الصحراء المتقشفون ٠

وكل هـذا لا يفسر التقسيم المثير للدهشـة أعنى تقسيم السلطة الدينية والدنيـوية وواضح أنه تقسـيم فريد فى تلك الفترة وفى ذلك الاقليم ، وعلى حد ما كتبه العلامة بيورى (٤٣) « ليس لدينا معلومات ـ تحدد الوقت الذى استبدلت فيه سلطة الشاجان الفعالة ليكون رئيسا صوريا مقدسا ـ أو لماذا رفع الى مركز يشبه مركز امبراطور اليابان وفيه يعتبر وجوده هو ـ لا حكومته ـ أمرا جوهريا لازدهار الدولة ٠

ولتفسير هذه المسألة هناك نظرية طرحها أخيرا الأستاذ أرتامونوف اذ يرى أن اتخاذ الخزر اليهودية ديانة رسمية لهم كان نتيجة انقـلاب coup d'etat خفض فى الوقت نفسه منزلة الخاقان بوصفه سليل أسرة وثنية لا يمكن فى الواقع ضمان ولائه لشريعة موسى ـ فجعله رئيسـا صوريا فحسب ـ وهذه فرضية سليمة شأنها شأن أى فرضية أخرى وبالمثل لها دليل ضئيل يدعمها ٠ ومع ذلك يبدو من المحتمل أن الحادثين ـ أعنى اعتناق الخزر الديانة اليهـودية وقيـام الملكية الثنـائية كانا مرتبطين بطريقة ما (*) ٠

(★) قبل تحول الخزر الى اليهودية كان يروى عن الخاقان أنه مازال يلعب دورا فعالا مثال ذلك فى معاملاته مع جستنيان ـ ومما يزيد الأمر ارتباكا أن المصادر العربية تشير أحيانا الى الخاقان على حين أنه واضح أنهم يقصدون « البك » ذلك لأن الخاقان كان المصطلح العام للفظ الحاكم بين قبائل كثيرة ، وهم أيضا يطلقون أسماء مختلفة على « البك » كما يتضح من القائمة التالية التى أخذناها عن العلامة مينورسكى : حدود العالم » ص ٥٤١ :

قسطنطين بورفيروجينيتوس	خاقان	بك
ابن رسته	خازار خاقان	آيشـه
المسعودى	خاقان	ملك
★ الاصطخرى	ملك خزر	خاقان خزر
ابن حوقل	خاقان خزر	ملك خزر أو بك
الجرديزى	خزر خاقان	ابشاد

(★) يبدو أن الاصطخرى بدل ترتيب الحكام ٠

٢ اعتناق دين جديد

١ ـ يقول العلامة بيورى فى كتابه « تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية » كان لديانة اليهود أثر عميق على الاســلام كما كانت عنصرا أساسيا للمسيحية ـ وقد كسبت كثيرين ممن تحولوا اليها فى شتى البقاع ولــكن تحــول الخــزر الى ديانة يهــوه اله اليهــود يعتبر حادثا فريدا فى التاريخ » (١) ٠

ترى ماذا كان الباعث على هذا الحادث الفريد ؟ ليس من اليسير أن نتعرف على دخيلة أمير خزرى ـ وأن نكشف عن خباياه ـ ولكننا اذا فكرنا بلغة سياسة القوة التى تمتثل أساسا للقواعد نفسها خلال العصور فسوف يكون هناك تشابه مقبول الى حد ما ٠

جدير بالذكر أنه فى أوائل القرن الثامن أُستقطب العالم بين قوتين عظميين تمثلان المسيحية والاســـــلام ـ والتحمت مذاهبهما الايديولوجية بسياسة القوة التى تابعناها بوسائل الدعاية الكلاسيكية والتدمير والفتح العسكرى ـ ومثلت امبراطورية الخزر قوة ثالثة حيث أثبتت أنها تعادل أيا من القوتين العظميين سواء كانت خصما أم حليفا الا أن سبيلها الوحيد للاحتفاظ باستقلالها انحصر فى ألا تتخذ المسيحية أو الاسلام دينا لها لأن اعتناقها احدى هاتين الديانتين كان معناه خضوعها بطريقة آلية اما لسلطان الامبراطور الرومانى أو لسلطان خليفة بغداد ٠

ولم يتوان بلاط كل من القوتين العظميين عن بذل المحاولات لتحويل الخزر الى المسيحية أو الاسلام ولكن لم ينتج عن كل هذه المحاولات سوى

تبادل المجاملات الدبلوماسية والتزاوج بين الأسر وعقد أحلاف عسكرية متغيرة تقوم على المصلحة الشخصية المتبادلة ونظرا لأن مملكة الخزر اعتمدت على قوتها العسكرية فقد عقدت العزم . ومعها ما جاورها من قبائل تابعة لها على أن تحتفظ بمكانتها بوصفها القوة الثالثة زعيمة شعوب السهوب الغير مرتبطة بأى من القوتين العظميين ٠

وفى الوقت نفسه فان اتصالات الخزر الحميمة ببيزنطة وبالخلافة قد علمتهم أن شامانيتهم البدائية لم تكن بربرية وعتيقة فحسب اذا قورنت بعقيدة التوحيد بل كانت أيضا عاجزة عن أن تضفى على الزعماء تلك السلطة الروحية والشرعية التى نعم بها حكام القوتين الثيوقراطيتين (الدينيتين) العالميتين ـ الا أن اعتناق ديانة أى من أحدهما كان لابد أن يعنى الخضوع ونهاية الاستقلال وبالتالى كان لا مفر من أن يحبط الهدف منه ٠ ترى ماذا كان أفضل منطقيا من اعتناق عقيدة ثالثة غير مرتبطة بأى من العقيدتين الأخريين ولكنها تمثل الأساس المبجل لكليهما ٠

وبديهى أن منطق القرار يرجع بطبيعة الحال الى الصورة الخادعة التى تنوش الخاطر فيما بعد ، والواقع أن التحول الى اليهودية يتطلب عملا عبقريا ـ ومع ذلك فمهما اختلفت المصادر العربية والعبرية كلتاهما فى تفاصيل تاريخ هذا التحول فانها تشير الى مجرى التفكير كما هو موضح أعلاه ، ولنعد للعلامة بيورى مرة أخرى حيث يقول :

« لا جدال فى أن الحاكم (حاكم الخزر) كان مدفوعا ببواعث سياسية فى اعتناقه اليهودية ذلك أن اعتناق الاسلام كان لابد أن يجعله التابع الروحى للخلفاء الذين حاولوا فرض دينهم على الخزر كما يكمن فى اعتناق المسيحية الخطر فى أن يصبح تابعا كنسيا للامبراطورية الرومانية الشرقية ـ على حين كانت اليهودية ديانة لها كتب مقدسة احترمها المسيحيون والمسلمون على حد سواء ـ ورفعته فوق البرابرة الوثنيين وصانته ضد تدخل الخليفة أو الامبراطور بيد أنه لم يتخذ ـ الى جانب شعيرة الختان ـ تعصب العقيدة اليهودية فسمح لعامة شعبه البقاء فى عالمهم الوثنى وعبادة آلهتهم الزائفة » (٢) ٠

وعلى الرغم من أنه لا شك فى أن ملك الخزر ومستشاريه وكبار رجال الدولة اعتنقوا اليهودية نتيجة بواعث سياسية فانه أمر مناف للعقل أن نتصور أنهم اعتنقوا بين عشية وضحاها وبتهور ديانة كانت معتقداتها مجهولة لهم ، وحقيقة الأمر أنهم كانوا من جهة أخرى على معرفة طيبة باليهود وشعائرهم الدينية لمدة قرن سابق على الأقل لتحولهم الى اليهودية ـ وذلك

عن طريق تدفق المهاجرين اليهود الفارين من الاضطهاد الديني في بيزنطة وكذلك وبدرجة أقل ، أولئك الوافدين من بلاد آسيا الصغرى التي فتحها العرب . ونعرف أن بلاد الخزر كانت بلدا متمدينا نسـبيا بين برابرة الشمال الا أنها لم تكن مرتبطة بأي من العقيدتين المتنـازعتين ومن ثم أصبحت المأوى الطبيعي لهجرات جماعات اليهود المتـكررة التي جاءت اليهـا هربا من الحكم البيزنطي الذي هددهم باعتنـاق دين غير دينهم بالقوة وبممارسة ضغوط أخرى عليهم حيث بدا اضطهاد اليهود بأشكال متنوعة ابتداء من حكم جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥) واتخذ شـكلا قاسيا بنوع خاص تحت حكم كل من هرقل في القرن السابع وليـو الثـالث في القرن الثـامن وبازل وليـو الرابع في القرن التاسع ثم رومانوس في القرن العـاشر . فمثـلا حاول ليو الثالث الذي حكم خلال العقدين السابقين مباشرة لتحول الخزر الى اليهودية حاول أن ينهي بضربة واحدة الأمر الشاذ القائم (وضع اليهود المسموح به) فأصـدر أمرا يقضي بتعميد كل رعاياه اليهود وعلى الرغم من أن تنفيذ هذا الأمر بدا غير فعال الى حد ما الا أنه دفع أعدادا كبيرة من اليهود الى الفرار من بيزنطة ، وفي ذلك يقول المسعودي :

« هناك في هذه المدينة (اتل عاصمة الخزر) مسلمون ومسيحيون ويهود ووثنيون ـ أما اليهود فهم الملك وحاشيته والخزر من جنسه (*) ـ ولقد أصبح ملك الخزر يهوديا في عهد هارون الرشيد (**) ـ ولحق به يهود جاءوا من بلاد الاسلام ومن مملكة الروم (بيزنطة) ـ وحقيقة الأمر أن ملك الروم الحالي ـ سنة ٣٣٢ هجرية (٩٤٣ ـ ٩٤٤ م) أجبر اليهود في مملكته على اعتناق المسيحية ... وبالتالي فر كثير من اليهود من بلاد الروم الى بلاد الخزر » (٣أ) .

وتشير الجملتان الأخيرتان المقتبستان عن المسعودي الى أحداث جرت بعد مائتي سنة من تحـول الخزر الى اليهودية وتوضحان كيف تتابعت موجات الاضطهاد الواحدة بعد الأخرى في تكرار متواصل طوال القرون ولكن كان اليهود بالمثل مثابرين على صمودهم فتحمل كثيرون منهم التعذيب أما أولئك الذين لم تكن لديهم القدرة على المقاومة فقد رجعوا فيما بعد الى دينهم ـ كما تعود الكلاب الى قيئها » (٤) على حد ما كتبه مؤرخ مسيحي من مؤرخي الحوليات بأسلوب فصيح ـ وهناك لكاتب عبري وصف مثير

(*) يقصد القبيلة الحاكمة أي الخزر البيض ـ انظر الفصل الأول قسم ٣ .

(**) أي بين سنة ٧٨٦ ـ ٨٠٩ يلاحظ أن المسعودي اسـتخدم معلما تاريخيا مناسبا ـ والواقع أن اعتناق ملك الخزر اليهودية تم حوالي سنة ٧٤٠م .

مماثل لطريقة لجأ اليها الامبراطور الرومانى بازل لاجبار أفراد الطائفة اليهودية فى أوريا Oria بجنوب ايطاليا على اعتناق المسيحية :

« كيف أجبروهم ؟ ان أى شخص يرفض اعتناق عقيدتهم الخاطئة كان يوضع فى معصرة الزيتون تحت مكبس خشبى ثم يعصرونه بنفس الطريقة التى يعصر بها الزيتون فى المعصرة » .

ويعلق مصدر عبرى آخر على الاضطهاد فى عهد الامبراطور الرومانى رومانوس (وهو الملك الذى يشير اليه المسعودى) فيقول :

« وبعدئذ سيظهر ملك يضطهدهم لا عن طريق ابادتهم بل باقصائهم خارج مملكته رحمة بهم » .

والرحمة الوحيدة التى أظهرها التاريخ لأولئك الذين لاذوا بالفرار أو دفعوا اليه كانت فى وجود بلاد الخزر سواء قبل تحولها الى اليهودية أو بعده ـ فقد كانت هذه البلاد ملاذ اللاجئين قبل هذا التحول ثم صارت بعده نوعا من الوطن القومى لهم .

وكان اللاجئون نتاج ثقافة رفيعة ـ فكانوا دون شك عاملا هاما فى خلق تلك النظرة العالمية المتسامحة التى تركت انطباعا قويا فى مؤرخى الحوليات العرب الذين سبق أن اقتبسنا عنهم « وكان لابد لأثر هؤلاء اللاجئين وخاصة لحماسهم التبشيرى أن يظهر بداية وفى المقام الأول بين رجال الحاشية والوجهاء البارزين وربما أضافوا الى جهودهم التبشيرية حقائق لاهوتية ونبوءات عن المخلص المنتظر مع تقييم ذكى للمزايا السياسية التى سيحصل عليها الخزر من اعتناقهم دينا محايدا » (*) .

وفضلا عن ذلك جلب المنفيون معهم الفنون والحرف البيزنطية والطرق المتقدمة فى الزراعة والتجارة والأحرف العبرية المتقنة ولا نعرف نوع الكتابة التى استخدمها الخزر قبل ذلك ولكن يذكر لنا ابن النديم فى كتابه الفهرست ، وهو نوع من الببليوجرافية العالمية كتبه حوالى سنة ٩٨٧ بأن الخزر فى زمنه استخدموا الأحرف العبرية حيث أوفت بالغرض المزدوج للتحدث بالعبرية بوصفها لغة جديرة بالمثقفين (الأمر الذى يناظره

(*) لقد كان هذا العصر الذى كان يعتبر فيه تحويل غير المؤمنين بالقوة أو بالاقناع أمرا بالغ الخطورة ـ والواضح أن اليهود تورطوا فى التبشير لديانتهم حيث ان القانون البيزنطى منذ عهد جستنيان هدد بتوقيع عقوبات صارمة على كل من يحاول تحويل مسيحيين الى اليهودية كما كانت عقوبة اليهود الذين يضايقون من تحولوا الى المسيحية هي الاعدام حرقا .

استخدام الغرب لاتينية العصور الوسطى) وكذا كأحرف للكتابة لمختلف اللغـــات التى كان الخزر يتكلمونها (وهو أمر منـــاظر لاستخدام الأحرف اللاتينية فى اللغات القومية المختلفة فى غرب أوربا) ويبدو أن الكتابة العبرية انتشرت من بلاد الخزر الى البلاد المجاورة لها وهكذا يقرر العـلامة شونسون Chwolson انه وجدت على شواهد قبور من فاناجوربا وبارثينيت فى القرم كتابات بأحرف عبرية بلغة غير سامية (ويجوز أن تكون بلغتين غير ساميتين) ولم يتم فك رموزها بعد (*) (خضعت القرم كما رأينا لحكم الخزر فى فترات متقطعة ولكن كان بها أيضا مجتمع يهودى عريق وربما نرجع الكتابات المذكورة الى زمن سابق لتحول الخزر الى اليهودية) ــ كذلك تسربت بعض الأحرف العبرية (شن shin وتسادى tsadei) الى الابجدية السيريالية (أبجدية صقلبية قديمة وهى غير السريانية لغة العبرانيين) وعلاوة على ذلك عثر على العديد من عملات فضية بولندية يرجع تاريخها الى القرن الثـــانى عشر أو الثالث عشر وعليهـا نقوش بالأحرف العبرية مثال ذلك (ليزك كرول بولسكى أى ليزك ملك بولندا) جنبا الى جنب عملات عليها نقوش كتبت بالأبجدية اللاتينية ، ويعلق الأستاذ بولياك على ذلك بقوله « ان هذه العملات هى الدليل الحاسم على انتشار الأبجدية العبرية من بلاد الخزر الى البلاد الصقلبية المجاورة ولم يكن لاستخدام هذه العملات علاقة ما بأى مسألة تخص الدين ، وانما سكت هذه العملات لأن كثيرين من البولنديين كانوا أكثر ألفة بهذا الطراز من الكتابة منهم بالكتابة الرومانيــــة وذلك دون أن يعتبرها كتابة يهـــــودية مميزة على وجه التخصيص » (١٠) •

وهكذا فبينما جاء التحول الى اليهودية دون شـــك بسبب دوافع انتهازية بوصفه مناورة سياسية بارعة ــ فقد جلب فى أعقابه تطورات ثقافية لم تكن بالكاد فى ذهن من بدأوه ــ وكانت الأبجدية العبرية هى فاتحة هذه التطورات ــ وبعد أن مضت ثلاثة قرون بدأ تدهور دولة الخزر بقيام حركات متكررة لأبناء صهيون تنبىء بالمسيح المخلص الذى ينقذ العبرانيين وظهور مخلصين زائفين (أمثال دافيد آل ــ روى David El-Roi بطل احـدى روايات دزرائيـلى) يقودون حروبا صليبية دونكيخوتيـة (وهمية) لاعادة فتح بيت المقدس •

(*) هذه الكتابات هى صنف لا علاقة له بتزييفات فيركوفش السيئة السمعة بين المؤرخين •

وعقب هزيمة العرب فى سنة ٧٣٧ م ارتد الخاقان فورا عن الاسلام الذى كان قد أجبر عليه وكان اعتناقه الاسلام هذا مجرد اجراء شكلى لم يترك ـ فيما يبدو ـ أى أثر على شعبه على حين أن التحول الاختيارى الى اليهودية أثمر نتائج ثابتة ٠

٢ ـ ان ظروف التحول الى اليهودية قد أبهمتهـــا الأساطير ولكن الروايات الرئيسية عن هذا التحول ـ العربيــة منها والعبرية على حد سواء ـ تتفق فى بعض صورها الأساسية ٠

وجدير بالذكر أن رواية المسعودى عن الحكم اليهودى فى بلاد الخزر والتى سبق اقتباسها تنتهى باشارة الى كتاب سابق له أورد فيه وصفا لتلك الظروف ، وقد فقد هذا المؤلف ولكن هناك روايتان قامتا على أساسه جاءت أولاهما فى مؤلف للدمشقى (كتب حوالى سنة ١٣٢٧ م) وفيه يكرر القول انه فى عهد هارون الرشيد أجبر الامبراطور البيزنطى اليهود على الهجرة من بلاده وأن هؤلاء المهاجرين وفدوا الى بلاد الخزر حيث وجدوا شعبا ذكيا لكنه غير مثقف وعرضوا عليه ديانتهم وأن أبناء هذه البلاد رأوا انها تفضل ديانتهم فاعتنقوها (١١) ٠

أما الرواية الثانية وهى الأكثر تفصيلا فقد وردت فى كتاب البكرى « الممالك والمسالك » (القرن الحادى عشر) حيث يقول :

ان سبب تحول ملك الخزر الى اليهودية بعد أن كان وثنيا فى الماضى يتلخص فيما يلى : كان الملك قد اعتنق المسيحية ثم أدرك بهتانهـــا (*) فناقش هذه المسألة مع أحد كبار موظفيه فقال له هذا « أيها الملك ان من لهم كتب مقدسة ينقسمون الى جماعات ثلاث فارسل فى استدعائهم واطلب اليهم أن يوضحوا قضيتهم ثم اتبع من يمتلك الحقيقة » ٠

بناء على ذلك استدعى ملك الخزر من المسيحيين أسقفا وكان مع الملك يهودى بارع فى الجدل أغراه بالدخول فى مناظرة فسأل الأسقف « ماذا تقول فى موسى بن عمران وفى التوراة التى أوحيت اليه ؟ » فأجاب الأسقف « ان موسى رســول وان التوراة تنطق بالحقيقة » وعندئذ قال اليهودى « لقد اعترف فعلا بصدق عقيدتى فلتسأله الآن بماذا يؤمن هو : فسأله الملك وأجاب الأسقف « أقول ان عيسى المسيح بن مريم هو الكلمة وأنه

(*) يقول المؤلف انه على حد معرفته لم يرد هـــذا القول فى أى مصدر آخر وأن القراء المســلمين قد يجدون فى هذا الكلام بديلا أكثر استساغة نظرا للفترة القصـــيرة التى اعتنق فيها خاقان الخزر الاسلام قبل تحوله الى اليهودية ٠

أوحى بالأسرار باسم الرب » وهنا قال اليهودى للملك « انه يبشر لمذهب لا أعرفه على حين أنه يقر أقوالى » ولكن الأسقف لم يكن قويا فى ابراز حججه ثم أرسل الملك يستدعى مسلما فأرسلوا اليه عالما ذكيا برع فى المناقشات ولكن اليهودى رشا شخصا ما دس له السم فمات وهو فى طريقه الى الملك — وهكذا نجح اليهودى فى كسب ملك الخزر الى عقيدته فاعتنق اليهودية (١٢) ٠

ومما لا ريب فيه أن المؤرخين العرب تميزوا بالقدرة على تحلية الدواء المر ليصبح مقبولا يستسيغه شاربه أو يحتمل مرارته ولو أن العالم المسلم اشترك فى المناظرة لكان مصيره الوقوع فى نفس الفخ الذى وقع فيه الأسقف اذ أقر كلاهما صدق العهد القديم حين خسر مؤيدا العهد الجديد والقرآن الكريم فى التصويت بنسبة ٢ : ١ لكل منهما ويلاحظ أن تصديق الملك على هذا الاستدلال وما صحبه من حجج أمر له دلالته ذلك أنه مستعد فقط لقبول عقائد يشترك فيها الثلاثة جميعا — ورفض أن يورط نفسه فى أى من الادعاءات المنافسة التى تجاوز ذلك الحد ٠ انه مرة أخرى مبدأ الحياد وقد طبق فى مجال اللاهوت ٠

وتشير هذه الرواية — كما ألمح بيورى — الى أن النفوذ اليهودى فى بلاط ملك الخزر لابد أنه كان قويا قبل التحول الى اليهودية حيث ان الأمر استلزم « طلب استدعاء » الأسقف والعالم المسلم فى حين أن اليهودى كان فعلا موجودا معه (مع الملك) ٠

٣ — ننتقل الآن من المصدر العربى الرئيسى عن اعتناق الخزر اليهودية أعنى المسعودى ومصنفيه — الى المصدر اليهودى الرئيسى — المعروف باسم « رسائل الخزر » وهى خطابات باللغة العبرية تبودلت بين حسداى بن شبروط اليهودى أهم وزراء خليفة قرطبة ويوسف ملك الخزر أو بالأحرى بين كاتبيهما الخاصين ، ولقد كانت مصداقية هذه الرسائل موضع خلاف ولكنها أصبحت اليوم مقبولة بصفة عامة مع شىء من التسامح نظرا لأهواء الناسخين الذين جاءوا فيما بعد ٠

والواضح أن تبادل تلك الرسائل جرى فى الفترة بعد سنة ٩٥٤ وقبل سنة ٩٦٠ أى تقريبا فى المدة التى كتب فيها المسعودى — ولبيان أهمية هذا الموضوع يجب ذكر كلمة عن شخصية حسداى بن شبروط الذى يرجح أنه كان ألمع شخصية فى العصر الذهبى لليهود فى أسبانيا (٩٠٠ — ١٢٠٠ م) ٠ (الأرجح أنه لم يمنح لقب الوزير رسميا) ٠ (المترجم)

في سنة ٩٢٩ م نجح عبد الرحمن الناصر (*) (٩١٢ - ٩٦١ م) أحد أعضاء الأسرة الأموية في توحيد ممتلكات المسلمين في جنوب شبه جزيرة ايبريا ووسطها ووضعها تحت حكمه وأسس بذلك الخلافة الأموية وأصبحت عاصمته قرطبة تمثل عظمة أسبانيا ومجدها ومحفل الثقافة الأوربية فيما بعد وبها مكتبة تحوي أربعمائة ألف مجلد كلها مفهرسة . وفي قرطبة سنة ٩١٠ ولد حسداي بن شبروط في أسرة عريقة وكان أول ما جذب انتباه الخليفة اليه تلك الأدوية الشافية التي كان يصفها لمرضاه وهو يمارس مهنة الطب فعينه الخليفة عبد الرحمن طبيبا في بلاطه ووثق في رأيه ثقة تامة الى حد أنه طلب اليه أولا أن ينظم شئون الدولة المالية ثم ندبه وزيرا للخارجية وخبيرا في حل المنازعات الدبلوماسية في علاقات الخلافة الجديدة المعقدة مع بيزنطة والامبراطور الألماني أتو ومع قشتالة ونافارا وأراجون وغيرها من الممالك المسيحية في شمال اسبانيا - وكان حسداي رجلا صاحب نزعة عالمية Uomo Universale سبق عصر النهضة بقرون واستطاع وسط زحمة شئون الدولة أن يجد وقتا لترجمة بعض الكتب الطبية الى اللغة العربية وأن يراسل العلماء من أحبار اليهود في بغداد وأن يقوم بدور مايسناس Maecenas راعي هوراس وفرجيل فكان هو النصير السخي لعلماء النحو والشعراء العبرانيين .

كان حسداي (**) شخصية مستنيرة على نحو بين وعلاوة على ذلك كان يهوديا متعصبا استخدم اتصالاته الدبلوماسية كي يجمع معلومات عن الجماعات اليهودية المشتتة في أنحاء العالم وليتدخل لصالحهم ما أمكن - وكان مهتما بشكل خاص بموضوع اضطهاد اليهود في الامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور رومانوس (انظر قسم ٣ أعلاه) ولحسن الحظ كان له نفوذ كبير في البلاط البيزنطي الذي كان مهتما اهتماما جوهريا بتدبير حياد قرطبة الخير في أثناء الحملات البيزنطية ضد

(*) قدر المؤرخون الحديثون عبد الرحمن الناصر أعظم التقدير فقال فيه المستشرق « دوزي » انه أقرب الى حكام العصر الحديث منه الى ملوك العصور الوسطى - وقال ليفي بروفنسال : ان عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوربا كلها في كل العصور وأشار اليه المؤرخ أرنولد توينبي واتخذه مثالا للحاكم المستنير الذي يتخطى عصره بملكاته وبمواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق بمسئوليات الحاكم وقدرته على القيام بها جميعا ، د. حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣١ . (المترجم)

(**) كان أبو يوسف حسداي بن اسحق بن شبروط من كبار يهود الأندلس ولد في الأندلس - وتثقف ثقافة عالية في اللغة العربية وآدابها والى جانب ذلك كان طبيبا ماهرا - د. حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ ص ٣٢١ . (المترجم)

المسلمين فى الشرق وانتهز حسداى فرصة توليه المفاوضات ليتوسط لصالح الشعب اليهودى البيزنطى ونجح فى ذلك على نحو ملموس (١٤) .

وطبقا لرواية حسداى نفسه كانت أول مرة علم فيها بوجود مملكة يهودية مستقلة خبرا سمعه من بعض تجار القوافل من خراسان فى فارس ولكنه شك فى صحة خبرهم وراح بعد ذلك يسأل أعضاء بعثة دبلوماسية بيزنطية فى قرطبة فأكدوا رواية التجار وقدموا له قدرا كبيرا من التفاصيل الحقيقية عن المملكة الخزرية بما فى ذلك اسم يوسف ـ ملكها الحالى ـ وبناء على ذلك قرر أن يبعث رسلا يحملون خطابا منه الى الملك يوسف ٠

ويحتوى الخطاب (وسنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد) على عدد من الأسئلة عن دولة الخزر : شعبها ـ نظام حكومتها ـ قواتها المسلحة وهلم جرا بما فى ذلك السؤال عن : أية قبيلة (سبط) من القبائل الاثنتى عشرة ينتمى الملك يوسف وهذا فيما يبدو يوحى بأن حسداى ظن أن اليهود الخزر هم أصلا من فلسطين ـ شأنهم شأن اليهود الأسبان ـ بل وربما يمثلون واحدة من القبائل (الأسباط) الضائعة ٠ واذ كان يوسف ملك الخزر لا ينحدر من أصل يهودى فانه لا ينتسب بطبيعة الحال لأى من القبائل ـ وفى الرد الذى بعث به الى حسداى زوده ـ كما سنرى ـ بسلسلة من الأنساب من نوع مختلف ـ وكان همه الأول هو أن يدلى الى حسداى برواية مفصلة ـ ولو أنها أسطورية ـ عن تحول الخزر الى اليهودية ـ الأمر الذى حدث قبل ذلك بقرنين ـ والظروف التى أدت اليه ٠

وتبدأ قصة يوسف بمدح جده الأعلى الملك بولان بوصفه الفاتح العظيم والرجل الحكيم الذى « طرد السحرة وعبدة الأوثان من بلاده » ومن ثم ظهر ملاك للملك بولان فى أحلامه راح يحثه على أن يعبد الاله الصحيح الوحيد ووعد مقابل ذلك بأن الاله سوف « يبارك ذرية بولان ويزيدها وسوف يلقى بأعدائه بين يديه ويبقى على مملكته حتى نهاية العالم » ٠

ولا شك أن هذه الرواية أوحت بها قصة العهد القديم فى سفر التكوين ثم هى تلمح الى أن الخزر أيضا ادعوا أنهم فى مرتبة الشعب المختار الذين صاغوا عهدهم الخاص بهم مع الاله على الرغم من أنهم ليسوا من نسل ابراهيم ولكن عند هذه النقطة تتخذ رواية يوسف منعطفا غير متوقع ٠ ان الملك بولان على استعداد تام لخدمة المولى ولكنه يثير عقبة :

« أنت تعرف يا مولاى نوايا قلبى الكامنة ٠ ولقد فحصت أنت كليتى لتؤكد أن ثقتى مودعة فيك ولكن أفراد الشعب الذين أحكمهم لهم آراء وثنية ولا أعرف ما اذا كانوا سيصدقوننى فان كنت قد حظيت بعطفكم

وبرحمتكم فانى أتوسل اليكم أن تظهروا أيضا لأميرهم الكبير كى تحنوه على تأييدى .

وقد استجاب الخالد الأحد لطلب بولان وظهر لهذا الأمير فى الحلم فلما استيقظ الأمير فى الصباح جاء الى الملك وأخبره بما حدث » .

ويلاحظ أن سفر التكوين وكذلك روايات العرب عن اعتناق الخزر الديانة اليهودية لم يرد فيها اطلاقا شيء عن أمير كبير يتعين عليهم الحصول على موافقته ـ انها اشارة جلية الى ملكية الخزر الثنائية فالأمير الكبير واضح أنه « البك » ولكن لم يكن من المستحيل أن « الملك » كان هو « البك » وأن « الأمير » كان هو الخاقان . وفضلا عن ذلك فطبقا للمصادر العربية والأرمنية فان قائد جيش الخزر الذى غزا بلاد ما وراء القوقاز سنة ٧٣١ م (أى قبل التاريخ المفترض لتحول الخزر الى اليهودية بسنوات قليلة) كان يدعى « بولخان » (١٥) .

وتواصل رسالة يوسف الحديث فتروى كيف ظهر الملاك مرة أخرى للملك الحالم وأمره بأن يشيد مكانا للعبادة يمكن للرب أن يقيم فيه « لأن السماء والسموات التى تعلوها ليست متسعة الى حد كاف لتحتوينى » ويجيب الملك بولان فى حياء أنه لا يملك الذهب والفضة اللازمين لمشروع كبير كهذا ، ويعيد الملاك طمأنته : ان كل ما على بولان القيام به هو أن يقود جيوشه الى داريلا وأردبيل فى أرمينيا وسوف يجد فى انتظاره هناك كنزا من الفضة وآخر من الذهب وتتفق هذه الرواية مع غارة بولان أو بولخان التى سبقت تحول الخزر الى اليهودية كما تتفق مع المصادر العربية التى تذكر أنه فى فترة ما سيطر الخزر على مناجم الفضة والذهب فى القوقاز (١٦) .

وينفذ بولان أمر الملاك ويعود منتصرا ومعه الغنائم فيبنى هيكلا متنقلا للعبادة (خيمة) ويجهزه بصندوق مقدس (تابوت العهد) وشمعدان ومذبح وأدوات مقدسة حفظت الى اليوم ولا تزال فى عهدتى (عهدة الملك يوسف) .

واضح أن خطاب يوسف ـ وقد كتب فى النصف الثانى من القرن العاشر أى بعد أكثر من مائتى سنة من الأحداث التى يزعم وصفها ـ هو مزيج من الحقيقة والأسطورة وان وصفه للأثاث الهزيل فى مكان العبادة والآثار القليلة القديمة الباقية ينم عن فارق صارخ عما يذكره فى أجزاء أخرى من خطابه عن الازدهار الذى تنعم به بلده ـ أما عهد جده الأعلى بولان فانه يبدو له وكأنه ينتمى الى عصر سحيق حين لو يتوفر

للملك الفقير ــ ولكنه رجل فاضل عف ــ المال اللازم لبناء الهيكل المقدس الذى لم يكن رغم كل شىء سوى خيمة فحسب ٠

ومع ذلك فان خطاب يوسف حتى هـذه النقطة هو مجرد مقدمة للدراما الحقيقية دراما اعتناق دين جديد حيث يبدأ الآن فى تلاوة قصتها ــ واضح أن ارتداده عن عبادة الأوثان لصالح الاله الحق الواحد كان الخطوة الأولى فحسب ــ الخطوة التى أبقت أمامه الاختيار مفتوحا بين ثلاث عقائد توحيدية ــ هذا هو على الأقل ــ ما ينطوى عليه ما جاء فى تتمة خطابه فيما يبدو ٠

« عقب المعارك البطولية (غزو أرمينيا) ذاعت شهرة الملك بولان فى كل البلاد وبلغت أخباره ملك ايدوم (بيزنطة) وملك بنى اسماعيل المسلم يقصد (الخليفة) فأرسلا اليه مبعوثين فوق العادة ومعهم هدايا ثمينة ومالا الى جانب علماء ليهدوه الى عقائدهما ولكن الملك كان حكيما حيث أرسل فى طلب يهودى واسع العلم كثير الفطنة وجمع الثلاثة معا لمناقشة تعاليمهم » ٠

وهكذا فان لدينا هيئة خبراء أخرى أو مؤتمر مائدة مستديرة تماما كما جاء فى المسعودى فيما عدا أن المندوب المسلم لم يدس له أحد السم مقدما ولكن أسلوب الحوار هو نفسه تقريبا ــ وبعد نقاش طويل عديم الجدوى أجل الملك الاجتماع لمدة ثلاثة أيام عاد الأعضاء الثلاثة كل الى خيمته الخاصة للراحة ثم لجأ الملك الى حيلة بارعة فدعاهم كلا على حدة وبدأ بسـؤال المسيحى : أى الديانتين الأخريين أقرب الى الحقيقة ؟ وأجاب المسيحى : « ديانة اليهود » ثم واجه المسلم بالسؤال ذاته وحصل منه على الرد نفسه ــ وهكذا فازت روح الحياد مرة أخرى ٠

٤ ــ هذا ما ورد فى رسائل الخزر بشأن التحول الى اليهودية ترى ماذا نكتشف أيضا فى هذه الرسائل الخزرية الشهيرة ؟ ٠

لنأخذ أولا رسالة حسداى : انها تبدأ بقصيدة عبرية نظمت على غرار الأسلوب الأنيق الذائع وقتئذ فى أشـعار بالغة الحماسة تحوى تلميحات خفية أو ألغازا وكثيرا ما تشكل حروف أول أبياتها أو أواخرها ــ اذا جمعت معا ــ حكمة أو عبارة معينة ــ وتشيد القصيدة بانتصارات المخاطب الحربية ــ أعنى الملك يوسف ــ وفى الوقت نفسه تشكل الحروف الأولى لبيوت القصيدة مجتمعة الاسم الكامل لصاحب الرسالة : حسداى بار اسحاق بار عزرا بار شبروط ويتبعه الاسم الكامل لسكرتيره مناحم ابن شاروك وكان هذا شاعرا عبريا مشهورا ومعجميا ونحويا وسـكرتيرا

لحسداى وتحت رعايته ، وواضح أنه عهد اليه بكتابة مشروع الرسالة الموجهة الى الملك يوسف فانتهز هذه الفرصة ليخلد نفسه بوضع اسمه بعد اسم راعيه على النحو الذى أشير اليه فى هذه الفقرة . ولمناحم بن شاروك مؤلفات كثيرة أخرى مصانة وليس هناك شك فى أن رسالة حسداى هى من انجاز مناحم شخصيا .

وبعد القصيدة والتحيات والعبارات الدبلوماسية المنمقة ترسم الرسالة صورة وردية لازدهار اسبانيا المسلمة وما ينعم به اليهود من رخاء تحت حكم خليفتها عبد الرحمن وهى حالة لم يعرف لها مثيل قط فقد حظى بالرعاية الضعفاء المنبوذون وشلت أسلحة مضطهديهم وطرحت العبودية ويسمى البلد الذى نعيش فيه باللغة العبرية « سفراد » ولكن يطلق عليه الاسماعيليون (المسلمون) الذين يقطنونه اسم « الأندلس » .

ثم يواصل حسداى كلامه فى رسالته ليوضح كيف سمع لأول مرة عن وجود مملكة يهودية من تجار خراسان ، ثم بطريقة أكثر تفصيلا من المبعوثين البيزنطيين وينقل ما قاله له هؤلاء المبعوثون .

« لقد سألتهم (يقصد البيزنطيين) عنها فأجابوا بأن ما سمعته صحيح وأن اسم المملكة هو الخزر ـ وأن بين القسطنطينية وهذه البلاد (الخزر) رحلة تستغرق خمسة عشر يوما بطريق البحر (*) أما طريق البر فهناك شعوب كثيرة بينها وبينهم أما الملك الحاكم فسمه يوسف. وتنقل الينا السفن القادمة من بلادهم السمك والفراء وكافة أنواع السلع وهم فى تحالف معنا ونحن نجلهم ونتبادل معهم السفارات والهدايا وهم أشداء ولهم قلعة لمخافرهم الأمامية ولجنودهم الذين يخوضون المعارك فى غزواتهم بين وقت وآخر (**) .

واضح أن الهدف الذى رمى اليه حسداى من تقديمه هذا القدر الضئيل من المعلومات عن مملكة الخزر الى ملكها يوسف هو أن يثيره

(★) يحتمل أن هذا يشير الى ما هو معروف « بالطريق الخزرى » من القسطنطينية عبر البحر الأسود ثم صعودا فى نهر الدون وبعدها تنقل المراكب برا من الدون الى الفولجا وتهبط فى نهر الفولجا الى اتل عاصمة الخزر ، وكان هناك طريق بديل أقصر يمتد من القسطنطينية الى الشاطىء الشرقى للبحر الأسود .

(★★) واضح أن القلعة هى قلعة ساركل على نهر الدون ـ ويلاحظ أن عبارة « نحن نجلهم » تتفق مع عبارة قنسطنطين بورفيروجينتوس عن الخاتم الذهبى الخاص الذى استخدم فى الرسائل الموجهة الى الخاقان . وكان قنسطنطين هذا هو الامبراطور البيزنطى فى الوقت الذى أرسلت فيه البعثة الدبلوماسية الى اسبانيا ويعرف بقنسطنطين السابع (٩١٢ / ٩٥٨) .

ليتحدث اليه عنها بالتفصيل . لقد كانت سيكولوجية بارعة : ولابد أن حسداى قد أدرك أن نقد البيانات الخاطئة يتدفق من القلم على نحو أسهل عنه من شرح أصيل .

ثم يقص حسداى محاولاته الأولى للاتصال بالملك يوسف فقال انه أرسل فى بادىء الأمر رسولا يدعى اسحاق بارناتان وزوده بتعليمات للسفر الى بلاط الخزر ولكن اسحاق لم يتجاوز فى رحلته مدينة القسطنطينية حيث عومل بلطف وكياسة ولكنه منع من مواصلة سفره (وهو أمر مفهوم : نظرا لموقف الامبراطورية نحو المملكة اليهودية فلا شك أنه لم يكن فى صالح قنسطنطين تيسير عقد حلف بين مملكة الخزر وخلافة قرطبة ورئيس وزرائها اليهودى) ـ من ثم عاد رسول حسداى الى اسبانيا دون أن تتمكن البعثة من اتمام رسالتها ، ولكن سرعان ما سنحت فرصة أخرى : فقد وصلت الى قرطبة سفارة من شرق أوربا كان بين أعضائها يهوديان : مارصاءول وماريوسف تطوعا أن يحملا خطاب حسداى الى الملك يوسف (يفهم من الرد الذى أرسله يوسف الى حسداى أن خطاب حسداى سلمه للملك شخص ثالث يدعى اسحاق بن اليعازر) .

وبعد أن شرح حسداى فى اسهاب كيف تمت كتابة خطابه وكذا محاولاته لضمان وصول هذا الخطاب الى صاحبه راح يوجه سلسلة من الأسئلة التى تعكس حرصه الشديد فى الحصول على معلومات أوفى عن كل ناحية تخص بلاد الخزر : من جغرافيتها الى طقوسها الخاصة بالاحتفال بيوم الراحة الاسبوعى (يوم السبت) ـ أما الفقرة الختامية فى خطابه فانها تضرب على وتر مختلف تماما عن تلك الفقرات التى استهل بها حيث يقول :

« أحس بدافع يحثنى على أن أعرف الحقيقة من حيث عما اذا كان هناك حقا مكان على الأرض يمكن لاسرائيل المنهكة أن تتولى حكم نفسها ولا تكون خاضعة لأحد ـ فاذا قدر لى أن أعرف أن لهذه البقعة وجودا حقيقيا فلن أتردد فى أن أتخلى عن كل ما أتمتع به من امتيازات ـ وأن أستقيل من منصبى وأهجر أسرتى وأجتاز الجبال والسهول وأخوض البر والبحر حتى أبلغ الأرض التى يحكمها مولاى الملك (اليهودى) ولى أيضا التماس اضافى واحد : أن أخطر عما اذا كان لديك أى علم (بالتاريخ المحتمل) للمعجزة الختامية (قدوم المسيح المخلص) التى ننتظرها طيلة تجوالنا من بلد الى آخر أما وقد لحقنا الذل والهوان فى شتاتنا فلزاما علينا أن ننصت فى صمت لأولئك الذين يقولون : لكل شعب أرضه الخاصة وأنتم وحدكم لا تملكون ثمة شبح بلد على هذه الأرض » .

ان صدر الخطاب يمتدح حظ اليهود السعيد فى اسبانيا على حين يعبر ختامه عن مرارة المنفى والحماسة الصهيونية والأمل فى قدوم المخلص المنتظر ــ لقد تعايشت هذه المواقف المتناقضة على مر العصور فى مشاعر اليهود الممزقة ويضفى التناقض الوارد فى خطاب حسداى مسحة من الصحة على كلماته ترى الى أى حد يمكننا أن نأخذ بجدية عرضه الذى ألمح اليه فى رسالته بالانخراط فى خدمة ملك الخزر ــ الواقع أن هذه مسألة أخرى لا نستطيع الاجابة عنها ــ ولعله لم يستطع هو أيضا .

وجاء رد الملك يوسف فى صيغة أقل صقلا واثارة من خطاب حسداى وعلى حد قول العلامة كاسل : ليس غريبا أن العلم والثقافة لا ينتشران بين يهود الفولجا بل يسودان على طول أنهار أسبانيا ــ وكان الجزء البارز الأهمية فى رد الملك يوسف هو ذلك الذى يحكى فيه قصة اعتناق اليهودية ــ والذى ذكرناه أعلاه ــ ولا شك أن يوسف استخدم بدوره كاتبا لتحرير رده لعله كان لاجئا مثقفا من بيزنطة ورغم ذلك فان الرد يبدو وكأنه صوت من العهد القديم Old Testament اذا قورن بالعبارات المتناغمة المصقولة التى تميز بها خطاب رجل الدولة الحديث ابن القرن العاشر .

يبدأ رد يوسف بعبارات تحيات رنانة ثم يردد الفقرات الأساسية الواردة فى خطاب حسداى مؤكدا فى فخر أن مملكة الخزر دليل واضح على كذب أولئك الذين يزعمون « أن صولجان يهوه قد سقط الى الأبد من أيدى اليهود » وأنه لا مكان فى الأرض لمملكة خاصة بهم ثم يلى هذه الفقرة ملاحظة خفية المعنى نوعا ما مؤداها أن آباءنا سبق لهم أن تبادلوا الرسائل الودية المحفوظة فى دور سجلاتنا وانها معروفة لشيوخنا (*) .

ثم يواصل يوسف رده فيقدم بيانا بسلسلة نسب أبناء قومه وأصل سلالتهم ورغم كونه قوميا يهوديا متعصبا فهو لا يرجع أصلهم الى سام بل يرجعه الى يافث الابن الثالث لنوح أو بعبارة أدق الى حفيد يافث جرأة « لقد عثرنا فى سجلات الأسرة التى تركها آباؤنا أنه كان لتاجورما
جرأة « لقد عثرنا فى سجلات الأسرة التى تركها أباؤنا أنه كان لتاجورما
عشرة أبناء وأن أسماء ذريتهم هى كالآتى : أوجور ــ دورسو ــ آفار ــ

(*) قد تشير هذه العبارة الى الرحالة اليهودى الداد هادانى (القرن التاسع الميلادى) صاحب الحكايات الغريبة التى ذاعت قراءتها فى العصور الوسطى وقد أورد فيها اشارات الى بلاد الخزر فيقول ان هذه البلاد يقطنها ثلاث من أسباط اسرائيل الضائعة ــ وأنها تجبى اتاوات من اثنين وعشرين مملكة مجاورة لها ــ وقد زار الداد اسبانيا حوالى سنة ٨٨٠م وربما يكون قد زار أو لم يزر بلاد الخزر ــ ويلاحظ أن حسداى أشار اليه فى خطابه اشارة عابرة وكأنه يتساءل عن مدى مصداقيته .

عون ــ بازل ــ تاريناخ ــ خزر ــ زاجور ــ بلغار ــ سابير ــ واننا نحن أبناء خزر أى الذرية السابعة » .

وجدير بالذكر أن هوية بعض جمـلة القبائل بأسمائهـا الواردة بالأحرف العبرية هى موضع شك ولكن هذه مسألة هامشية ــ والظاهرة المميزة فى استخدام سلسلة النسب تلك هى ادماج سفر التكوين مع الروايات المأثورة القبلية التركية (*) .

وبعد أن أورد يوسف سـلسلة النسب يذكر فى ايجاز بعض الفتـوحات الحربية التى قام بهـا أسلافه حتى بلغوا نهر الطونة ويروى باسهاب طويل قصة اعتناق بولان الديانة اليهودية ويضيف قائلا « ومن اليوم فصاعدا أمده الاله بقوة وعاونه وتمت عملية الختان له ولأتباعه كما استدعى حكماء اليهود وعلموه الشريعة وشرحوا له الوصايا العشر » وراح بعد ذلك يحصى أمجاده الأخرى وانتصاراته العسكرية والشـعوب التى أخضعها ... الخ ثم يورد الفقرة التالية :

« وعقب هذه الأحداث أصبح عباديه أحد أحفاد بولان ملكا وكان رجلا شجاعا محترما أصلح القانون ومجد الشريعة طبقا للتعاليم والعرف وبنى المعابد والمدارس وجمع حشدا من حكماء اسرائيل وأغدق عليهم الهدايا السخية من ذهب وفضة وعهد اليهم تفسير الكتب الأربعة والعشرين (الكتب المقدسة) والمشنا (مجموعة القوانين التى جمعت حوالى سنة ٢٠٠ م وهى أساس التلمود) والتلمود وبيان ترتيب الطقوس وما يصحبها من كلمات » .

ويتبين من هذا انه بعد بولان بحوالى جيلين حدث احياء دينى أو اصلاح دينى (لعله اقترن بانقلاب طبقا للمخطط الذى تصوره الأستاذ الروسى ارتامونوف) . وفى الواقع يبدو أن تهويد الخزر سار فى مراحل عديدة فنحن نذكر أن الملك بولان طرد السحرة وعبدة الأوثان قبل أن يظهر له الملاك وأنه أبرم عهده مع الاله الذى ارتآه الاله الصحيح قبل أن يقرر ان كان هو اله اليهود أو اله المسيحيين أو اله المسلمين ويبدو من المحتمل جدا ان اعتناق الملك بولان واتباعه الديانة اليهودية كان بمثابة مرحلة وسطى أخرى ذلك لأنهم اعتنقوا شكلا بدائيا أو أوليا من اليهودية قام على الكتاب المقدس وحده BIBLE دون أن يدخلوا فى اعتبارهم التلمود

(*) تلقى سلسلة النسب أيضا ضوءا جانبيا على تكرار وصف الخزر بأنهم شعب ماجوج . ومعروف أن ماجوج الوارد ذكره فى سفر التكوين (الاصحاح العاشر ــ ٢ ــ ٣) كان العم المفترى عليه لتوجارما .

وكتابات الأحبار ولا الشعائر المستمدة منهـــا ـ وهم فى هذا يشبهون القرائين الذين هم طائفة أصولية نشأت فى فارس فى القرن الثامن الميلادى وانتشرت بين يهود العالم كله وخاصة فى جزء من بلاد الخزر يسمى « الخزر الصغرى » أعنى شبه جزيرة القرم ـ وقد افترض الأستاذ دانلوب وبعض الثقـــاة الآخرين انه فى الفترة بين عهد بولان وعهـــد عبادية (بين سنة ٧٤٠ ـ ٨٠٠م) ساد البـلاد نوع من مذهب القرائين Karaism وأن اليهودية « الحبرية » القويمة دخلت البلاد فى أثناء فترة الاصلاح الدينى الذى قام به عبادية ـ ولهذه الفرضية بعض الأهمية اذ واضح أن القرائية بقيت حتى النهاية كما ظلت باقية فى العصور الحديثة فهناك قرى أهلها يهود قراءون يتكلمون التركية وهم دون ريب من أصـــل خزرى (انظر الفصل الخامس قسم ٤) .

وهكذا كان تهويد الخزر عملية تدريجية أحدثتها ذريعة سياسية ثم تغلغلت على مهل الى الطبقات الأعمق فى أذهانهم وانتجت فى آخر الأمر مسياوية Messianism عصر تدهورهم أى الاعتقاد فى المسيح المخلص. بيد أن تمسكهم بدينهم ظل على حاله بعد سقوط دولتهم واستمر كما سنرى فى المستوطنات الخزرية اليهودية فى روسيا وبولندة .

٦ ـ وبعد التنويه بالاصلاحات الدينية التى قام بها عباديه يدرج الملك يوسف فى رده قائمة بخلفائه (خلفاء عباديه) وهم هسكيا ابنه ـ وابنه منسه وشانوكا شقيق عبادية واسحاق ابنه ومنسه ابنه ـ ونيسى ابنه ـ ومناحم ابنه ـ وبنيامين ابنه وآرون ابنه ـ ثم انا يوسف بن آرون المبارك ـ وكلنا كنا أبناء ملوك ولم يسمح لغريب أن يتولى عرش آبائنا » .

ثم يحاول يوسف بعد ذلك الاجابة عن أسئلة حسداى عن مساحة بلاده وطبوغرافيتها ولكن لا يبدو أن لديه فى بلاطه من يضارع الجغرافيين العرب فى علمهم فان اشـــاراته الغامضة الى البـــلاد والشعوب الأخرى لا تضيف شيئا يذكر بالنسبة لما نعرفه من ابن حوقل والمسعودى وغيرهما من المصادر العربية والفارسية وهو يزعم أنه يجبى أتاوة من سبعة وثلاثين شعبا وهو قول يبدو الى حد ما غير قابل للتصديق الا أن الأستاذ دانلوب يلفت النظر الى أن تسعة من هذه الشعوب هى قبائل تقيم فى قلب بلاد الخزر وان ذكر الشعوب الثمانية والعشرين الآخرين يتفق تماما مع ما أشار اليه ابن فضـــلان عن الخمسة والعشرين زوجة كل منهن ابنة ملك تابع (كما تتفق مع قصص الداد هادانى المشكوك فيها) وفضـــلا عن ذلك علينا أن نتذكر حشود القبائل الصـــقلبية التى تعيش على طول أعالى

نهر الدنيبر الى أصقاع بعيدة حتى موسكو وكلهـــا كانت تدفع أتاوة للخزر كما سنرى •

ومهما يكن من شيء فان خطاب يوسف لا يتضمن أية اشارة الى حريم الملك وانما يقتصر على ذكر ملكة واحدة فقط ووصيفاتها وأغواتها ويروى أن هؤلاء يقيمون فى حى مستقل من الأحياء الثلاثة التى تنقسم اليها اتل عاصمة الملك يوسف « ويسكن الحى الثـــانى اسرائيليون واسماعيليون (مسلمون) ومسيحيون وأقوام أخرى تتكلم لغات أخرى أما الحى الثالث وهو جزيرة فهو الحى الذى أسكنه أنا نفسى مع الأمراء والرقيق والخدم الذين يتبعونى •••• (*) ونحن نقيم فى المدينة طيلة الشتاء وعندما يحل شهر نيسان (مارس/ابريل) نشرع فى الخروج منها ويتوجه كل فرد للعمل فى حقله وحديقته ولكل عشيرة عزبة موروثة يهرع أفرادها اليها فرحين مبتهجين ولا تسـمع هناك صـوتا لدخيل ولا ترى فيهـا عدوا ولا يسقط مطر غزير فى البلاد ولكن فيها أنهار كثيرة تحوى كميات هائلة من الأسماك الكبيرة ولهذه الأنهار منابع عديدة والبلاد بصفة عامة خصبة وفيرة المحصول سواء فى حقولها وكرومها أو بساتينها التى ترويها الأنهار وتنتج فاكهــة كثيرة ممتازة •••• وبمعونة الله فانى أعيش فى أمن وطمأنينة » •

وتتناول الفقرة التالية تاريخ قدوم المسيح المخلص Messiah :

« نحن نرقب حكماء الفرس وبابل ورغم اننا نعيش بعيدا عن صهيون الا أننا علمنا أن التكهنات خاطئة نظرا لوفرة الخطايا بدرجة كبيرة ونحن لا نعرف شيئا وانما الخالد وحده هو المسيطر على كل شيء وليس لدينا شيء ننتظره غير تنبؤات النبى دانيال نسأل الخالد أن يعجل خلاصنا » •

وتتضــــمن الفقرة الختامية فى خطاب يوسف اجـابة عن عرض حسداى الواضح برغبته فى الانخراط فى خدمة الملك الخزرى :

« لقد أعربت فى خطابك عن رغبتك فى رؤية وجهى وانى بدورى أرغب وأتطلع لمشاهدة وجهك السمح وهيبتك الرائعة وحكمتك وعظمتك ــ وأتمنى أن تتحقق كلماتك وأن أدرك سعادة ضمك الى حضنى وأن أرى سيماء وجهك المحبوب الودود السائغ وسوف تكون لى بمثابة الأب وسوف أكون لك بمثابة الابن وسوف يقبل شفتيك جميع أفراد شعبى وســوف نسلك النهج الذى تشير به طبقا لنصحك الحكيم » •

(*) ان تقسيم اتل الى ثلاث مناطق ورد ذكره أيضا فى بعض المصادر العربية •

وهناك فى خطاب يوسف فقرة غامضة نوعا ما تتناول موضوعات سياسية محلية :

« بفضل معونة المولى جل شأنه فانى أتولى حراسة مصب النهر (الفولجا) ولا أسمح بالمرور للروس الذين يفدون فى سفنهم ــ بغزو أرض العرب ... وانى أقاتلهم (أى الروس) فى حروب عنيفة ذلك لأنى اذا تركت لهم الحبل على الغارب فسوف يدمرون أراضى اسماعيل (يقصد العرب) حتى بغداد نفسها .

وهنا يظهر يوسف وكأنه حامى خلافة بغداد ضد الغزاة النورمان ــ الروس (انظر الفصل الثالث) وقد يبدو هذا موقفا تعوزه اللباقة نظرا للخصومة اللدودة القائمة بين الخلافة الأموية فى قرطبة (التى كان حسداى فى خدمتها) والخلافة العباسية فى بغداد ــ ومن ناحية أخرى فان تقلبات السياسة البيزنطية تجاه الخزر جعلت من الملائم ليوسف أن يظهر فى دور المدافع عن الاسلام بغض النظر عن الشقاق القائم بين الخلافتين ومن ثم ساوره الأمل على الأقل فى أن حسداى سوف يفهم ما لمح اليه .

وجدير بالذكر انه لم يعقد قط اجتماع بين صاحبى الخطابين ــ ان كانت هناك على الاطلاق فكرة لعقده ــ كذلك لم يحتفظ برسائل أخرى ــ ان كانت هناك أية رسائل أخرى تبودلت بينهما ــ والواقع ان مضمون رسائل الخزر المتبادلة ضئيل ولا يضيف سوى النزر اليسير الى ما نعرفه من قبل من مصادر أخرى وانما يرجع سحر تلك الرسائل الى الصور الذهبية الغريبة المفككة التى تنقلها مثلها مثل نور كشاف ضال ركز على مناطق غير مترابطة وسط الضباب الكثيف الذى يسود العصر .

٧ ــ ومن بين المصادر العبرية الأخرى هناك وثيقة كمبردج (وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى المكان المودعة فيه حاليا وهو مكتبة جامعة كمبردج) وقد اكتشفت فى نهاية القرن الماضى هى ووثائق أخرى لا تقدر بثمن عثر عليها فى مخزن لمعبد يهودى قديم فى القاهرة ومن ثم تعرف باسم جنيزة القاهرة Cairo Geniza وقد اكتشفها عالم من كمبردج اسمه سولومون شيختر Solomon Schechter ــ والوثيقة فى حالة سيئة وهى مجرد خطاب (أو صورة من خطاب) يحوى مائة سطر باللغة العبرية سقط منه أوله وآخره ومن ثم يستحيل معرفة اسم من كتبه وكذا اسم من وجه اليه ــ وقد ورد فيه اسم الملك يوسف بوصفه معاصرا وأشير اليه بلفظ « مولاى » كما جاء ذكر بلاد الخزر بوصفها « بلدنا » وبناء على هذا فان الاستنتاج الأكثر قبولا هو أن الخطاب كتبه خزرى

يهودى من بلاط الملك يوسف وفى حياته أى فى وقت معاصر لرسائل الخزر المتبادلة وعلاوة على ذلك يرى بعض الثقاة أن الخطاب كان موجها الى حسداى شبروط وسلم فى القسطنطينية لمندوبه الفاشل اسحاق بارتاتان الذى حمله اليه فى عودته الى قرطبة (ومن هناك انتقل الخطاب فيما بعد الى القاهرة حين طرد اليهود من أسبانيا) وعلى أية حال فان الدليل المتضمن فى صلب الوثيقة يوحى بأنها كتبت فى فترة لا تتجاوز القرن الحادى عشر والأرجح انها كتبت فى حياة الملك يوسف أى فى القرن العاشر •

وتحوى الوثيقة رواية أسطورية أخرى عن تحول الخزر الى الديانة اليهودية بيد أن أهميتها الأساسية تكمن فى مغزاها السياسى ـ حيث يتحدث محرر الوثيقة عن هجوم على بلاد الخزر شنه شعب الآلان بتحريض بيزنطى وكان يحكم بلاد الخزر وقتئذ آرون المبارك والد يوسف ولم يرد ذكر لهذه الحملة فيما يبدو فى المصادر الروسية والعربية ولكن هناك فقرة هامة وردت فى مؤلف الامبراطور قنسطنطين بورفيروجينتوس بشأن ادارة الامبراطورية De Administrando Emperio الذى كتب (حوالى سنة ٩٤٧ ـ ٩٥٠ م) وتضفى تلك الفقرة بعض المصداقية على ما ذكره الكاتب المجهول الذى حرر الخطاب :

« فيما يتعلق ببلاد الخزر ـ كيف يمكن اعلان الحرب عليهم ـ ومن الذى يعلنها ـ نظرا لأن الغز قادرون على أن يشنوا الحرب على الخزر لقربهم منها فان حاكم الانيا يستطيع هو أيضا اذا أراد أن يغير على الخزر ويلحق بهم أضرارا ومحنا جسيمة نظرا لقرب المناطق المناخية التسعة فى بلاد الخزر وشمال القوقاز الخصيب من بلاده ولأن الالان قادرون على ذلك » •

أما وقد ورد فى خطاب يوسف أن حاكم الآلان كان يدفع له أتاوة ـ وسواء كان يدفع هذه الأتاوة فعلا أم لم يدفعها ـ فان مشاعره نحو الخاقان كانت فيما يرجح تماثل تقريبا مشاعر ملك البغار ـ ثم ان الفقرة التى ذكرها قنسطنطين والتى تكشف عن جهوده لحث قوم الآلان على محاربة الخزر تذكرنا على نحو ساخر ببعثة ابن فضلان لهدف مماثل • واضح أنه فى عهد يوسف كانت فترة التقارب البيزنطى الخزرى قد انتهت منذ أمد طويل ولكننى أتوقع تطورات لاحقة وهذه سوف تعالج فى الفصل الثالث •

٨ ـ وبعد انقضاء حوالى قرن على رسائل الخزر المتبادلة والتاريخ المفترض لوثيقة كمبردج ـ كتب جودا هاليفى Jehuda Halevi

مؤلفه المشهور «الخزر» ويعتبر هاليفى (١٠٨٥ ـ ١١٤١) (*) بصفة عامة أعظم شاعر عبرى أنتجته أسبانيا الا أنه كتب باللغة العربية أيضا ومن أشهر ما ألفه منها كتاب « الحجج والدليل فى نصر الدين الذليل » الذى ترجم فيما بعد الى العبرية .

وكان هاليفى من أبناء صهيون مات فى أثناء قيامه بالحج الى بيت المقدس وكتب مؤلفه « الخزر » قبل وفاته بسنة واحدة ـ والكتاب بحث فلسفى يقرر فيه أن الشعب اليهودى هو الوسيط الوحيد بين الله وسائر الجنس البشرى وأن كل الشعوب الأخرى ستتحول فى نهاية الأمر الى اليهودية وأن تحول الخزر الى هذه الديانة هو رمز أو علامة على هـذا الحدث النهائى ـ وعلى الرغم من عنوان الكتاب فان البحث لا يورد شيئا يذكر عن بلاد الخزر نفسها بل اتخـذها أساسا سـتارة خلفية لرواية أسطورية أخرى عن اعتناق الخزر الديانة اليهودية فتروى قصة الملك والملاك والعالم اليهودى الخ ـ وكذا المحاورات الفلسفية والدينية التى دارت بين الملك وأنصار الديانات الثلاث .

ومع ذلك فهناك اشارات قليلة الى حقائق ثابتة تدل على أن هاليفى اما أنه قرأ الرسائل المتبـادلة بين حسداى ويوسف أو أنه كان يملك مصادر أخرى للمعلومات عن الخزر وهكذا يخطرنا فى كتابه أنه بعد ظهور الملاك كشف ملك الخزر عن سر حلمه الى قائد جيشه « ويبدو هذا القائد فيما بعد شخصية عظيمة الأهمية وهذه اشارة واضحة الى الحكم الثنائى الذى قام فى بلاد الخزر حيث كان هناك الخاقان والبك ـ ويذكر هاليفى أيضا « تواريخ » و « كتب الخزر » الأمر الذى يعيد الى ذهن المرء حديث يوسف عن « دور سجلاتنا » حيث تحفظ وثائق الدولة . وأخيرا ذكر هاليفى مرتين وفى مكانين مختلفين من كتابه تاريخ تحول الخزر الى الديانة اليهودية فقال ان هذا التحول تم منذ « أربعمائة سنة » وأنه حدث فى سنة ٤٥٠٠ (طبقا للتقويم اليهودى) وهذا التاريخ يشير الى سنة ٧٤٠ م وهو التاريخ الأكثر احتمالا ـ وعلى أية حال فالكتاب فى جملته حصيلة هزيلة من الحقائق رغم ذيوعه وانتشاره بين يهـود العصـور الوسطى الا أن الحقائق كانت لا تشد ذهن انسان العصور الوسطى بقدر ما تشده الأساطير لذلك كان اليهود أكثر اهتماما بقدوم المسيح المخلص Messiah

---

(*) هو الشاعر الفيلسوف يهوذا صـموئيل اللاوى ويكنى بأبى الحسن اللاوى ويعتبره الكثير من اليهود أحسن من نظم شعرا بالعبرية .

د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ٧٤ ـ ٧٦ . (المترجم) .

منهم بالحقائق الجغرافية وبالمثل كان للجغرافيين والحوليين العرب موقف متسامح نحو المسافات والتواريخ والحدود الفاصلة بين الحقيقة والخيال ٠

وينطبق هذا أيضـــا على الرحالة اليهودى الألمانى الحاخام بتاكيا Petachia حاخام راتزيون الذى زار شرق أوربا وغرب آسيا بين سنة ١١٧٠ وسنة ١١٨٥ وجلى أن وصفه لأسفاره الوارد فى كتابه « رحلة حول العالم » Sibub Ha'olam قد تولى كتابته أحد تلاميذه بناء على ما دونه هو فى مذكراته أو أملاه عليه ــ وفيه يروى كيف صدم الحاخام الفاضل حين شاهد اليهود الخزر فى شمال القرم يمارسون طقوسا بدائية عزاها الى تأثرهم بهرطقة القرائين Karaite Heresy ٠

« وسألهم الحاخام بتاكيا « لماذا لا تؤمنون بأقوال الحكماء (أعنى أصحاب التلمود) فأجابوا لأن آباءنا لم يعلموها لنا » ــ ومن شعائرهم أنهم فى ليلة السبت يقطعون الخبز الذى يأكلونه يوم راحتهم وعبادتهم ــ السبت ــ وهم يأكلونه فى الظلام ويجلسون طول اليوم فى مكان واحد وتقتصر صلواتهم على المزامير وحدها » (*) (١٧) ٠

واشتد سـخط الحاخام لدرجة أنه حين اخترق فيما بعـــد بلاد الخزر كان كل ما أدلى به أنه قضى ثمانية أيام « سمع خلالها عويل النساء ونباح الكلاب » (١٨) ٠

بيد أنه يذكر أنه حين كان فى بغداد شاهد مبعوثين من مملكة الخزر يبحثون عن طلاب فقراء يهود من العراق أو حتى من مصر « كى يعلموا أطفالهم التوراة والتلمود » ٠

وفى حين جازف قلة من الرحالة اليهود من المغرب القيام بالرحلة الخطيرة الى الفولجا فقد سجل هؤلاء لقاءات مع اليهود الخزر فى كل الحواضر الكبرى من العالم المتمدين وقابلهم الحاخام بتاكيا فى بغداد ــ وهناك رحالة شهير فى القرن الثانى عشر اسمه بنيامين وهو من بلدة تطيله (بشمال أسبانيا) زار أعيان الخزر فى القسطنطينية والاسكندرية ــ ويذكر الرحالة ابراهام بن داود وهو معاصر للشاعر جودا هاليفى انه شاهد فى طليطلة بعض أفراد من سلالتهم « يتتلمذون على حكماء » (١٩)

(*) كان قضاء يوم الراحة (السبت) فى الظلام عادة من عادات القرائين المأثورة ٠ والقراءون هم طائفة يهودية أنشأها عنان بن داود فى القرن الثامن الميلادى معارضا حاخامات اليهـــود ورجال الدين فى عصره ونافيا لقدسية التلمود وداعيا اليهود الى التمســك بالعهد القديم ونبذ كل ما جاء فى التلمـــود ــ د٠ محمـــد بحر عبدالحميـد : اليهـــود فى الاندلس ص ٧٨ (المترجم) ٠

ويروى أن هؤلاء كانوا أمراء خزر ــ الأمر الذى يعيد الى أذهاننا ما درجت عليه الهند من ايفاد أمرائها الصغار للدراسة فى جامعة كمبردج .

ومع ذلك فهناك توافق غريب بين اتجاهات ومشاعر متناقضه تجاه الخزر من قبل زعماء اليهودية الأصولية فى الشرق والمركزة فى أكاديمية التعاليم التلمودية فى بغداد ــ فان جاعون Gaon (وهو لفظ عبرى معناه صاحب السعادة) الذى رأس الأكاديمية كان الزعيم الروحى للمستوطنات اليهودية المنتشرة فى جميع أنحاء الشرق الأدنى والأوسط بينما مثل الاكزيلارك Exilarch أو «أمير الأسر» السلطة الدنيوية فى تلك المجتمعات المستقلة ذاتيا تقريبا ــ وقد ترك سعدية جاعون (٨٨٢ ــ ٩٤٢) وهو أشهر أصحاب السعادة الروحيين مؤلفات تملأ مجلدات ضخمة أشار فيها مرارا وتكرارا الى الخزر وهو يذكر يهوديا من العراق ذهب الى بلاد الخزر ليقيم فيها كما لو كان هذا الحدث يجرى كل يوم ويتحدث فى شىء من الابهام عن البلاط الخزرى ــ ويوضح فى موضع آخر أن التعبير الانجيلى حيرام صور ــ لا يعنى ان لفظ حيرام اسم علم بل هو لقب ملكى مثله مثل لقب « الخليفة » أى حاكم العرب ومثل لقب « الخاقان » أى ملك « الخزر » .

وهكذا أخذت بلاد الخزر وضعها فعلا « على الخريطة » بالمعنى الحرفى والمجازى ــ فان زعماء هيئة الكهنوت اليهودية الشرقية اهتموا بها اهتماما بالغا ولكن فى الوقت نفسه كان ينظر الى أهلها الخزر بشىء من الريبة سواء من الناحية العرقية أو بسبب ميولهم نحو الهرطقة القرائية وقد شرح مؤلف عبرى عاش فى القرن الحادى عشر اسمه يافث بن على وهو نفسه من طائفة القرائين ــ نقول شرح لفظ « مامزر » Mamzer أى الابن غير الشرعى أو الزائف ــ بالتمثيل بالخزر الذين أصبحوا يهودا دون أن ينتسبوا الى العرق اليهودى ويعرض معاصره يعقوب ابن روين وجهة نظر مناقضة لهذا الموقف . وذلك بالتحدث عن الخزر بوصفهم شعبا فريدا لا يتحمل نير المنفى بل انهم محاربون أشداء لا يدفعون أتاوة لحكام اممين (غير يهود) Gentiles

وباستعراض المصادر العبرية التى وصلت الينا عن الخزر يحس المرء برد فعل مختلط بين الحماس والشك وفوق ذلك كله بالحيرة ولابد ان شعبا محاربا من اليهود الأتراك قد بدا للحاخامات شعبا غريبا ــ فخلال ألف سنة من الشتات نسى اليهود كيف كان الحال حين كان لهم ملك ووطن ــ أجل ان المسيح المخلص Messiah كان أقرب الى الواقع لهم من الخاقان .

والحاقا لحديثنا عن المصادر العربية والعبرية عن اعتناق الخزر الديانة اليهودية يجب الاشارة الى مصدر مسيحى أقدم من هذه وتلك ففى تاريخ سابق لسنة ٨٦٤ كتب الراهب المسيحى الويستفالى دروثمار Druthmar راهب اكويتانيا رسالة باللاتينية عنوانها عرض لانجيل متى يقول فيها : هناك شعب يعيش تحت السماء فى أقاليم لا يمكن العثور فيها على مسيحيين ويعرف باسم يأجوج ومأجوج وهم هون ومنهم قوم يسمون الخزر يخضعون لشعيرة الختان ويمارسون الديانة اليهودية بحذافيرها « وتقع هذه الملاحظة بمناسبة ما جاء فى انجيل متى الاصحاح ١٤٠٢٤ » (*) الذى ليس له صلة واضحة به – ثم لم يسمع شىء آخر عن الموضوع ٠

٩ – وفى حالى الوقت نفسه الذى دون فيه الراهب دروثمار ما عرفه عن اليهود الخزر عن طريق السماع حاول مبشر مسيحى مشهور أرسله الامبراطور البيزنطى أن يحول الخزر الى المسيحية ولم يكن صاحب هذه الشخصية سوى القديس سيريل رسول الصقالبة والذى يقال انه مصمم الأجرف الهجائية السيريلية وقد عهد اليه والى أخيه الأكبر القديس ميثوديس St. Methodius بهذه المهمة وبغيرها من البعثات التبشيرية التى أرسلها الامبراطور ميخائيل الثالث بناء على نصيحة البطريرك فوتياس (واضح أن فوتياس هذا كان من سلالة الخزر ويقال ان الامبراطور أطلق عليه مرة وهو غاضب اسم صاحب الوجه الخزرى) ٠

ويبدو أن جهود سيريل التبشيرية كللت بالنجاح بين الشعوب الصقلبية فى شرق أوربا ولكنه فشل مع الخزريين فقد سافر الى بلادهم عن طريق خرسون Cherson فى القرم وقضى فى خرسون ستة أشهر يدرس اللغة العبرية استعدادا لبعثته التبشيرية ثم سلك « الطريق الخزرى » – معبر الدون والفولجا (حيث تنقل المراكب والسلع بينهما برا) الى اتل ومن هناك سار بموازاة بحر قزوين ليقابل الخاقان (لم يذكر مكان المقابلة) وتعاقبت المناظرات اللاهوتية المعتادة دون أن يكون لها أثر يذكر على اليهود الخزر بل ان كتاب « حياة قنسطنطين » VITA CONSTANTINE (اسم سيريل الأصلى) والمتسم بالمداهنة اقتصر على القول ان سيريل ترك أثرا طيبا فى نفس الخاقان وأنه تم تعميد عدد قليل من الناس وأطلق الخاقان سراح مائتى أسير من المسيحيين دلالة على شعوره الودى وكان هذا أقل ما أمكنه عمله لمبعوث الامبراطور الذى تجشم عناء كبيرا ٠

(*) ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى » ٠انجيل متى – الاصحاح ١٤/٢٤ ٠

وهناك معلومات عرضية تستلفت النظر أضافها الى القصة طلاب فقه اللغة الصقلبية فقد جرى العرف على أنه ينسب الى سيريل الفضل ليس فقط فى ابتكاره الأحرف الأبجدية السيريلية بل أيضا أحرف الأبجدية الجالجوليتية Galgolytic وكانت هذه الأخيرة ـ طبقا لما ذكره للأحرف الأبجدية العبرية بأحد عشر حرفا على الأقل تمثل الأصوات الصقلبية ـ وهذه الأحرف الأحد عشر هي :
(A, B, V, G, E, K, P, R, S. Sch. T.)

ولعل هذا يؤكد ما ذكر من قبل عن أثر الأحرف الأبجدية العبرية فى نشر معرفة القراءة والكتابة بين جيران الخزر ·

٣ الاضمحلال

١ ـ كتب د٠ سينور(١) Sinor في مقال له عن الخزر نشر في دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٣٧) يقول « بلغت امبراطورية الخزر أوج مجدها في النصف الثاني من القرن الثامن أي بين اعتناق بولان اليهودية والاصلاح الديني الذي قام به عباديه ، ولا يعني هذا التلميح بأن الخزر يدينون بنجاحهم الى دياناتهم اليهودية بل العكس هو الأصح الى حد ما فقد استطاعوا أن يكونوا يهودا لأنهم كانوا أقوياء اقتصاديا وعسكريا ٠

وكان الرمز الحي لسلطانهم هو الامبراطور ليو الخزري الذي حكم بيزنطة في الفترة ٧٧٥ ـ ٧٨٠ م ٠ وقد سمي بهذا الاسم الخزري نسبة الى أمه زهرة الأميرة الخزرية ـ التي ابتكرت زيا جديدا في البلاط ـ فنحن نذكر أن زواجها عقد بعد فترة قصيرة من الانتصار الباهر الذي أحرزه الخزر على العرب في معركة أردبيل التي ورد ذكرها في خطاب يوسف وفي غيره من المصادر ، ويعلق الأستاذ دانلوب على ذلك بقوله : انه يكاد يكون من المتعذر فصل ما بين الحادثين (٢) ـ من ترابط ٠

ومع ذلك ففي غضـون الفترة المليئة بالدسائس والمؤامرات كان الزواج والخطوبة بين الأسر أمرا محفوفا بالمخاطر وكثيرا ما كان سببا في اشعال حرب أو على الأقل كان ذريعة لنشوبها ـ وجلي أن اتيلا Attila حاكم الخزر الأعلى قديما ، سن القدوة لذلك حيث يقال انه في سنة ٤٥١ تلقى رسالة ومعها خاتم خطوبة من « هونوريا » شقيقة الامبراطور الروماني الغربي فالنتنيان Valentinian الثالث حيث توسلت هـــذه السيدة

المقامرة الطموحة الى الزعيم الهونى أن ينقذها من مصير أسوأ اليها من الموت الا وهو اجبارها على زواج عضو مجلس شيوخ عجوز - ومن ثم أرسلت خاتمها الى اتيلا الذى استجاب لعرضها على الفور وطالب بهـا بوصفها عروسـا الى جـانب نصف الامبراطورية مهـرا لها فلما رفض فالنتنيان طلبه غزا اتيلا بلاد الغال ٠

وتبرز عبر التاريخ الخزرى صور مختلفة لهذا الموضوع الشبيه بما سنه أتيلا من قبل - فنحن نذكر غضب ملك البلغار الشديد لخطف ابنته وكيف جعله السبب الرئيسى لطلبه الى الخليفة ضرورة بناء حصن له يحميه من الخزر - واذا سلمنا بما ذكرته المصادر العربية فهناك أحداث مماثلة (وان اختلف مسارها) أدت الى اشعال آخر حرب بين الخزر والعرب فى نهاية القرن الثامن وبعد أن ساد السلام بينهما فترة طويلة ٠

وطبقا لما رواه الطبرى حدث فى سنة ٧٩٨ (*) أن الخليفة حرصا منه على تأمين حدوده مع الخزر أمر حاكم أرمينيا بأن يتزوج ابنة خاقان الخزر - وكان هذا الحاكم من أسرة البرامكة القوية النفوذ (ونذكر عرضا بهذه المناسبة أن هذه الأسرة تذكرنا بقصة من قصص ألف ليلة وليلة - قصة الأمير الذى ينتسب الى أسرة مسماة باسمه والذى دعا سائلا يوما ما الى وليمة احتوت على أغطية ثمينة وضعت على أطباق لا تحوى شيئا) ووافق الحاكم البرمكى على ما طلبه الخليفة وأرسلت الأميرة الخزرية اليه مع حاشيتها ومهرها فى موكب عظيم (انظر الفصل الأول بند ١٠) ولكنها توفيت بعد قليل فى المخاض ومات المولود أيضا ٠ وألمح أعضاء حاشيتها الى الخاقان عند عودتهم الى بلاد الخزر أنها ماتت مسمومة - فانطلق الخاقان على الفور يغزو أرمينيا وأخذ (طبقا لمصدرين عربيين (٣)) خمسين ألف أسير واضـطر الخليفة أن يطلق سراح آلاف المجرمين من السجون وأن يزودهم بالسلاح للمساهمة فى وقف زحف الخزر ٠

وتذكر المصادر العربية حادثا آخر على الأقل فى القرن الثامن عن زواج أسرى فاشل ٠

وتضـيف الحوليـة الجورجيـة Georgian Chronicle الى قائمة أحداث هذه الزوجات حادثا رهيبا على نحو مثير (وفيه بدلا من أن يدس السم للأميرة تقوم هى نفسها بالانتحار حتى تنجو من مضجع الخاقان) وكمـا هى العـادة فان التفاصيل والتواريخ الصحيحة لهذه الأحداث هى موضع شك (٤) ، وكذلك الدافع الحقيقى وراء تلك الحملات

(*) الا أن هذا التاريخ غير مؤكد ٠

العسكرية ، بيد أن تكرار اشارة الحوليات الى عرائس المقايضة والملكات المسمومة قد أثارت دون ريب من الخيال ما ترك أثره فى عقول الناس وأفكارهم ، ولعل من أثره ما امتد أيضا الى الأحداث السياسية ·

٢ ـ وبعد نهاية القرن الثامن الميلادى لم يعد هناك ما يذكر عن وقوع قتال بين الخزر والعرب ، ونعم الخزر منذ بداية القرن التاسع الميلادى بالسلام لأجيال عديدة فلا نرى سوى اشارات قليلة عنهم عرضت لها الحوليات فاذا قيل ان التاريخ لم يعرض لها فان ذلك لا يعنى أن ليس هناك ما يثير ـ والواقع انه تم تهدئة الحدود الجنوبية لبلادهم واستقرت علاقاتهم مع الخلافة بميثاق ضمنى بعدم الاعتداء واستمرت علاقاتهم مع بيزنطة ودية على نحو واضح ·

الا أنه فى منتصف هذه الفترة التى تبعث على الطمأنينة والرضا نسبيا ـ وقع حادث انذر بأخطار جديدة ـ ذلك أنه فى سنة ٨٣٣ أو حوالى ذلك أرسل الخاقان والبك مندوبين على مستوى عال الى الامبراطور الرومانى الشرقى ثيوفيلس لطلب تزويدهما بمعماريين وحرفيين مهرة ليشيدوا لهما قلعة على اللسان الممتد أدنى نهر الدون واستجاب الامبراطور لهذا الطلب فى سرعة وحزم وعن طيب خاطر وأرسل أسطولا عبر البحر الأسود وبحر آزوف صعد الى مصب نهر الدون الى المركز الاستراتيجى المختار لبناء القلعة ـ وهكذا ظهرت الى الوجود قلعة ساركل Sarkel المعروفة وغدت فعلا أثرا بالغ الأهمية أتاح لنا ادراك الكثير من خفايا تاريخ الخزر ـ الى أن غمرتها مياه خزان تسيمليانسك Tsimlyansk الملاصق لقناة الفولجا والدون ـ ويقول قنسطنطين بورفيروجينتوس الذى روى هذا الحادث بشىء من التفصيل أنه نظرا لأن أحجار البناء لم تكن متيسرة فى ذلك الاقليم فقد بنيت قلعة ساركل بالآجر بعد حرقه فى أتون شيد خصيصا لذلك ولم يذكر الحقيقة الغريبة (التى اكتشفها الأثريون السوفييت حين كان الوصول الى البقعة ممكنا أى قبل أن تغمرها مياه الخزان) فقد استخدم البناءون أيضا أعمدة من الرخام أصلها بيزنطى ـ يرجع تاريخها الى القرن السادس ويحتمل أنها نقلت من بعض أطلال المبانى البيزنطية ـ وهو مثل طريف لحرص الامبراطور على الاقتصاد فى النفقات (٥) ·

وكان العدو المحتمل الذى شيدت ضده هذه القلعة المنيعة بجهود مشتركة بين الخزر والرومان هم أولئك الوافدون الخطرون الجدد على مسرح العالم والذين أطلق عليهم الغرب اسم الفايكنج Vikings

أو النورسمن (أهل الشمال) Norsemen (أهل اسكندناوة) وسماهم الشرق روس (*) ٠

وقبل ذلك بقرنين زحف العرب الفاتحون على العالم المتمدين فى حركة كماشة ضخمة وصل فكها الأيسر جبال البرانس وفكها الأيمن عبر القوقاز والآن فى غضون غارات الفايكنج بدأ التاريخ مسارا جديدا أشبه بمرآة تعكس أحداث ذلك الدور الجديد من أدوار التاريخ حين بدأ العرب ينحدرون فى فتوحاتهم الاسلامية جنوبا عبر الصحراء العربية الى الجنوب من العالم المعروف حينذاك بينما بدأ الفايكنج غاراتهم فى أقصى الشمال أعنى اسكندناوة وقد زحف العرب شمالا عن طريق البر وزحف النورسمن جنوبا عن طريق البحر والمجارى المائية ــ وقام العرب ــ على الأقل نظريا ــ بحرب مقدسة على حين شن الفايكنج حروبا غير مقدسة للقرصنة والنهب ولكن النتائج كانت هى نفسها تقريبا بالنسبة للضحايا ولم يستطع المؤرخون فى الحالين أن يقدموا ايضاحات مقنعة عن الأسباب الاقتصادية والبيئية والدينية التى حولت تلك الأقاليم الهادئة دون جدال نقصد بلاد العرب واسكندناوة ، لتصبح بين عشية وضحاها براكين ثائرة مفعمة بالحيوية وقد لجت فى مغامرة مثيرة استنفدت قوتهما خلال قرنين من الزمان ولكنهما تركا بصماتهما على العالم وتطور كلاهما فى هذه الفترة الزمنية من الهمجية والولع بالتدمير الى تحقيق انجازات ثقافية رائعة

وحوالى الوقت الذى شيدت فيه قلعة ساركل بجهود بيزنطة والخزر معا توقعا لهجوم الفايكنج الشرقيين كان رجال فرعهم الغربى أى الفايكنج الغربيون قد تغلغلوا فى المجارى المائية الرئيسية فى أوربا وفتحوا نصف ايرلندة ــ وفى خلال العقود القليلة التالية استعمروا ايسلندة وفتحوا نورماندى ونهبوا باريس مرارا وأغاروا على ألمانيا ودلتا الرون وخليج جنوة وأبحروا مطوفين حول شبه جزيرة ايبريا ٠ وهاجموا القسطنطينية عن طريق البحر المتوسط والدردنيل وذلك فى نفس الوقت الذى هجم فيه الروس منحدرين فى نهر الدنيبر وعبر البحر الأسود ٠ وعلى حد ما كتبه الأستاذ توينبى (٦) : « فى القرن التاسع وهو القرن الذى اعتدى فيه الروس على الخزر وعلى الروم الشرقيين كان الاسكندنافيون يغيرون ويفتحون ويستعمرون جزءا من الأرض شكل قوسا هائلا امتد فى نهاية الأمر نحو الجنوب الغربى ٠٠٠٠ الى أمريكا الشمالية ونحو الجنوب الشرقى الى ٠٠٠٠ بحر قزوين » ٠

(*) ورد الاسم فى الأصل الانجليزى فى ثلاث صور كالآتى : Rhous, Rhos, Rus

ازاء هـذا الخطر الداهم لم يكن غريبا أن يكون من بين ابتهـالات الغرب تلك التى يرفعهـا الكاهن ويرددها المصلون من بعـده ابتهـال جديد : « خلصنا من الخوف يا ربنا »

A Furore Normanorum Libera Nos Domine

ولم يكن غريبا أن احتاجت القسطنطينية حلفاءها الخزر بوصفهم درعها الواقى ضد غارات الفايكنج ــ وقد نقشت سفنهم على أجزائها الأمامية صورة التنين ــ مثلما احتاجت اليهم قبل ذلك بقرنين ضد رايات المسلمين الخضراء رايات رجال النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وكما كان الحال فى المرة الأولى كان على الخزر أن يتحملوا مرة أخرى وطأة الهجوم وأن يروا فى نهاية الأمر عاصمتهم وقد دمرت وغدت خرابا يبابا ·

ولم تكن بيزنطة الدولة الوحيدة التى وجب عليها أن تحمد للخزر جميلهم لاحباطهم تقدم أساطيل الفايكنج الهابطة من الشمال عبر المجارى المائية الكبرى فقد أدركنا اليوم على نحو أفضل معنى الفقرة الغامضة التى وردت فى خطاب يوسف الى حسداى الذى كتب بعـد غارات الفايكنج بقرن من الزمان وفيها يقول : وبمعونة المولى فانى أحرس مصب النهر ولا أسمح للروس الذين يأتون فى سفنهم بغزو بلاد العرب ··· وانى أقاتل (الروس) فى حرب ضروس ·

٣ ــ وقد أطلق البيزنطيون على جماعة معينة من الفايكنج اسم الروس على حين سماهم الحوليون العرب « الفرنجة » Varangians ، والأرجح على حد قول الأسـتاذ توينبى أن لفظ روس Rhos اشتق من الكلمـة السويدية روذر Rodher ومعناها المجدفون (٧) ــ أما لفظ الفرنجة فقد استخدمه العرب كما جاء أيضا فى الحولية الأساسية الروسية ليشير الى النورسمن أو الاسكندنافيين · والواقع ان البحر البلطى كان يعرف لدى العرب باسم « بحر الفرنجة » (٨) ــ وعلى الرغم من أن أفراد هذا الفرع من الفايكنج نشأوا أصلا فى الجزء الشرقى من السويد بوصفهم مميزين عن النرويجيين والدانمركيين الذى شنوا غارات على غرب أوربا الا أن زحفهم اتبع النمط ذاته · فقد كان موسميا واتخذوا قاعدة لهم جزرا تقع فى أماكن استراتيجية فكانت هذه بمثابة حصون لهم ومخازن للذخيرة ومراكز للتموين تيسر لهم الغارات على قصبة البلاد التى يزحفون اليها وقد تطورت طبيعة هذا الزحف ــ حيث سمحت الظروف ــ فى غارات النهب والسلب والتجارة الاجبارية الى اقامة مستوطنات دائمة تقريبا ثم الاندماج فى النهاية مع أهالى البلاد التى فتحوها وهكذا بدأ تغلغل الفايكنج فى ايرلندة باستيلائهم على جزيرة ريخرو (لمباى) Rechru (Lambay)

الواقعة على خليج دبلن وغزوا انجلترا عن طريق جزيرة ثانت Thanet. أما القارة الأوربية فقد بدأ تغلغلهم فيها بفتح جزر والشرن Walcheren (المواجهة لهولندة) ونوار موتييه (فى مصب نهر اللوار) .

وفى أقصى الحد الشرقى لأوربا سلك أهل الشمال المخطط ذاته للفتح فبعد آن عبروا بحر البلطيق وخليج فنلندة أبحروا صاعدين فى نهر فولكوف Volkov الى بحيرة المن Ilmen . (جنوب لينتجراد) حيث وجدوا جزيرة فى متناولهم هى جزيرة هولمجارد الوارد ذكرها فى القصص الايسلندية الزاخرة بقصص البطولة ـ فأقاموا على هذه الجزيرة مستوطنة أصبحت فى النهاية مدينة نوفجورود (*) Novgorod ومن هنا واصلوا غارات النهب والسلب متجهين جنوبا نحو المجارى المائية الرئيسية : فى نير الفولجا الى بحر قزوين ، وفى نهر الدنيبر الى البحر الأسود .

وقد اخترق الطريق الأول (طريق الفولجا) بلاد المحاربين البلغار والخزر على حين سار الطريق الثانى (طريق الدنيبر) عبر أراضى قبائل صقلبية مختلفة تعيش فى الأطراف الشمالية الغربية لامبراطورية الخزر وتؤدى اتاوة الى الخاقان ، فكانت هناك قبيلة بولين Polyane فى اقليم كييف وقبيلة فياتكى Viatichi جنـــوب موســكو وقبيلة راديمتسكى Radimischy فى شرق الدنيبر وقبيلة سيفريين Severyane على نهــر درنا (**) .. الخ ، ويبدو أن هؤلاء الصقالبة طوروا نظما متقدمة للزراعة وواضح أنهم كانوا أكثر جبنا من جيرانهم « الأتراك » المقيمين على نهر الفولجا حيث انهم ــ على حــد قول الأستاذ بيورى ــ أصبحوا الفريسة الطبيعية للمغيرين الاسكندنافيين ــ وفى نهاية الأمر غدا هؤلاء يفضلون الدنيبر ــ رغم شلالاته الخطيرة ــ على الفولجا والدون ــ وغدا الدنيبر « المجرى المائى العظيم » من بحر البلطيق الى البحر الأسود وبالتالى الى القسطنطينية ، وقد ورد ذكر هذا المجرى المائى العظيم باسم Austrvegr فى القصص النوردية الزاخرة بالبطولة ــ بل ان الاسكندنافيين أطلقوا على الشــلالات الســبعة أسـماء تنـم عن معنى أسمائها الصقلبية ، ويسرد قنسطنطين فى دقة معنى الترجمتــين (فمثلا اسم أحــد شلالات باللغــة الإسكندنافية « بارو فورس » Baru-Fors واســمه بالصقلبية فولنييه Volnyi ومعنى كليهما « الشلال المتلاطم الأمواج » .

ويبـدو أن هؤلاء الفرنجة ــ الروس كانوا مزيجا فريدا حتى بين

(*) يجب عدم خلطها بمدينة نزنى نوفجورود (المعروفة حاليا باسم جوركى)

(**) يتفق قنسطنطين بورفيروجينتوس والحولية الروسية فى أسماء هذه القبائل وأماكن اقامتها وكذا فى خضوعها للخزر .

أشقائهم الفايكنج • فقد جمعوا بين سمات القراصنة واللصوص وسمات التجار الخادعين الذين يتاجرون وفقا لشروطهم وحدهم يفرضونها بالسيف والفأس فقايضوا الفراء والسيوف والكهرمان بالذهب بيد ان سلعتهم الأساسية كانت تجارة الرقيق •

كتب أحد معاصريهم من الحوليين العرب يقول :

هناك في هذه الجزيرة (نوفجورود) رجال يبلغ عددهم مائة ألف يخرجون على نحو متواصل في سفن للاغارة على الصقالبة ويقبضون عليهم ويأخذونهم أسرى يذهبون بهم الى الخزر والبلغار حيث يبيعونهم (نذكر سوق الرقيق في العاصمة اتل والذى أشار اليه المسعودى) ـ وليس لهؤلاء الرجال أراض زراعية ولا بذور للزراعة ، وانما يعيشون على غنائمهم من الصقالبة ـ وعندما يولد لهم طفل يضعون أمامه سيفا مسلولا ثم يقول الأب « انى لا أملك ذهبا ولا فضة ولا ثروة أستطيع أن أوصى بها لك ـ وانما هذا هو ميراثك فلتحرز به الرخاء لنفسك » (٩) •

وقد لخص هذا الموضوع تلخيصا دقيقا مؤرخ عصرى هو ماك ايفدى McEvedy فقال :

« كان نشاط جماعات الفايكنج ـ الفرنجة والذى امتد من ايسلندة الى حدود التركستان ومن القسطنطينية الى الدائرة القطبية نشاطا يفوق حد التصديق ـ وانه لأمر محزن أن هذا المجهود الضخم بدد فى النهب والسلب ولم ينزل الأبطال الشماليون الى ميدان التجارة الا حين فشلوا فى قهر غيرهم ـ فقد فضلوا الذهب البراق الملطخ بالدم على ربح تجارى ثابت » (١٠) •

وهكذا كانت قوافل سفن الروس المبحرة جنوبا فى فصل الصيف بمثابة أساطيل تجارية وحربية فى الوقت نفسه بحيث تقوم بالعمليتين معا : التجارة والحرب وكان من المستحيل التكهن متى تتحول أساطيل التجار الى أساطيل مقاتلين ـ وكان حجم هذه الأساطيل ضخما ، ويحدثنا المسعودى عن قوة عسكرية من روس دخلت بحر قزوين من الفولجا (فى ٩١٢ ـ ٩١٣ م) وانها كانت مؤلفة من حوالى ٥٠٠ سفينة كل منها عليها مائة شخص ويقول ان من الخمسين ألف هؤلاء لقى ٣٥ ألف مصرعهم فى القتال (*) وقد يكون المسعودى مغاليا ولكن واضح انه لم يشتط كثيرا فى ذلك ـ فان الروس حتى فى المراحل الأولى لأعمالهم الفذة (حوالى سنة

(*) انظر الفصل الرابع قسم ١ فيما بعد •

٨٦٠ م) عبروا البحر الأسود وضربوا حصارا حول القسطنطينية بأسطول تراوح عدد سفنه بين ٢٠٠ الى ٢٣٠ سفينة ٠

ونظرا لعدم امكان التنبؤ بنوايا هؤلاء الغزاة الخطرين وغدرهم الذى كان مضرب الأمثال فقد كان لزاما على البيزنطيين والخزر « التصرف طبقا لما يصل الى آذانهم » جريا على القول السائر ٠ وسارت الأمور تتعاقب لمدة قرن ونصف بعد بناء قلعة ساركل بين عقد اتفاقات تجارية وتبادل السفارات مع الروس تارة ، وبين حروب ضارية معهم تارة أخرى ــ ولم يغير أهل الشمال من طبيعة سلوكهم الا ببطء ورويدا رويدا وذلك باقامة مستوطنات دائمة لتصبغ بالصبغة الصقلبية عن طريق التزاوج مع رعاياهم وأتباعهم وفى النهاية باعتناقهم مذهب الكنيسة البيزنطية وفى ذلك الوقت أى بحلول السنوات الختامية فى القرن العاشر أصبح الروس وقد تحولوا الى روسيين Russians وظل الأمراء والنبلاء الروس الأوائل Rus يحملون أسماء اسكندنافية صبغت بالصبغة الصقلبية فاشتق اسم روريك Rurik من هرورکر Hrorekr ، وأولج Oleg من هيلجى Helgi وايجور Igor من انجفار Ingvar وأولجا Olga من هيلجا Helga وهلم جرا ، ويلاحظ أن المعاهدة التجارية التى أبرمها الأمير ايجار/انجفار مع البيزنطيين عام ٩٤٥ م تحوى قائمة باسماء رفاقه ، ثلاثة منهم فقط لهم أسماء صقلبية بين خمسين اسما اسكندنافيا (١١) ٠ الا أن ابن انجفار وهيلجا اتخذ الاسم الصقلبى سفياتوسلاف Svyatoslav.

ومن ذلك الوقت فصاعدا سارت عملية الامتصاص بخطى حثيثة وفقد الفرنجة Varangians هويتهم شيئا فشيئا بوصفهم شعبا مختلفا وذوت التقاليد الاسكندنافية من التاريخ الروسى ٠

ومن الصعب أن تكون صورة ذهنية عن هذه الشعوب الغريبة التى تبرز فظاظتها حتى فى ذلك العصر البدائى الهمجى ، فالحوليات متحيزة حيث كتبها أبناء شعوب قاست من الغزاة الشماليين ــ أما هؤلاء الغزاة أنفسهم فقد بقيت أخبارهم من جانبهم طى الكتمان حيث ان الأعمال الأدبية الاسكندنافية نشأت بعد عصر الفايكنج بزمن طويل حين ازدهرت أعمالهم البطولية وتطورت الى أسطورة ومع ذلك يبدو أن الأدب الاسكندنافى القديم يؤكد تلهفهم المطلق على القتال وكذا ذلك النوع الغريب من الخبل الذى سيطر عليهم فى هذه المناسبات ٠

ولقد حيرت تلك الشعوب الرواة العرب لدرجة أن الأمر لم يقتصر على أن يناقض كل منهم الآخر بل ناقضوا أنفسهم أيضا عبر أسطر قليلة فيما كتبوه ــ فصديقنا المعروف ابن فضلان مشمئز كل الاشمئزاز من

عادات الروس القذرة وسلوكهم الفاحش وكان قد قابل عددا منهم عند الفولجا فى أراضى البلغار وفيما يلى فقرة عنهم كتبهـا فى رحلته تسبق روايته عن الخزر التى اقتبسناها من قبل :

« انهم أقذر مخلوقات الله ففى الصباح تحضر فتاة اناء مملوءا ماء الى صاحب الدار فيغسل فيه وجهه وشعره ثم يبصق ويتمخط فى الاناء الذى تحمله الفتاة بعد ذلك وتقدمه للشخص التالى فيفعل مثل ما فعله سابقه وهكذا يتم لجميع من فى الدار استخدام الاناء نفسـه فيتمخطون ويبصقون ويغسلون وجوههم وشعورهم فيه » (١٢) .

ومقابل ذلك يكتب ابن رسته عن الروس فى حوالى الزمن نفسه :

« انهم يحافظون على نظافة ثيابهم » ثم يكف عن الحديث عنهم مكتفيا بهذا القدر (١٣) .

ومن ناحية ثانية فان ابن فضلان ساخط على الروس حيث يباشرون اتصالاتهم الجنسية ويتبرزون علانية بما فيهم ملكهم فى حين ان ابن رسته والجرديزى لا يذكران شيئا عن هذه العادات المقززة للنفس الا أن رواياتهما مشكوك فيها ومتناقضة على حد سواء .

وهكـذا يقول ابن رسته « انهم يجلون ضيوفهم ويحسنون وفادة الغرباء الذين ينشدون مأوى عندهم ويساعدون كل من تنزل به محنة بينهم ولا يسمحون لأى فرد منهم أن يستبد بهم وأى شخص بينهم يرتكب خطأ أو يكون ظالما فانهم يكتشفونه ويطردونه من مجتمعهم » (١٤) .

ولكنه بعد فقرات قليلة يرسم صورة مختلفة تماما أو قل صورة موجزة عن أحوال مجتمع الروس فيقول :

« لا يجرؤ أحد منهم على الذهاب وحده حين يريد قضاء حاجة طبيعية له ولكنه يصحب معه ثلاثة مرافقين يتولون حراسته فيما بينهم ـ ويحمل كل منهم سيفا ذلك لانعدام الأمن وذيوع الخيانة بينهم لأنه ان كان لانسان ما ثروة ولو ضئيلة فسوف يطمع فيها أخوه أو صديقه الذى يرافقه وسوف يسعى الى قتله ويسلبها منه » (١٥) .

أما عن مناقبهم العسكرية فان كل المصادر تجمع على أن « هؤلاء القوم أشداء وشجعان وعندما يهبطون الى أرض مكشوفة فلا يمكن لأحد من أهلهـا الفرار منهم دون أن يلقى حتفه ثم انهم يغتصبون نسـاءهم ويأخذونهم رقيقا » (١٦) .

٤ ـ تلك كانت التوقعات التى واجهت الخزر وقتئذ . أجل لقد شيدت قلعـة ساركل فى الوقت المنـاسب فمكنتهم من مراقبة تحركات

أساطيل الروس على طول الأجزاء الدنيا من نهر الدون ومعبرة الدون والفولجا (الطريق الخزرى) وعلى العموم يبدو أنه فى خلال القرن الأول لظهورهم على المسرح كانت غارات السلب والنهب التى قام بها الروس موجهة أساسا ضد بيزنطة (فمن البديهى أن الغنائم هناك كانت أوفر وأنفس) حيث ان علاقاتهم مع الخزر كانت فى جوهرها قائمة على أساس تجارى وان لم تخل من احتكاكات ومناوشات بين حين وآخر — وعلى أية حال فقد استطاع الخزر أن يسيطروا على طرق تجارة الروس وأن يفرضوا ضريبتهم وقدرها ١٠٪ على كل البضائع المحمولة على السفن المارة عبر بلادهم الى بيزنطة والبلاد الاسلامية ٠

كذلك كان للخزر بعض الأثر الثقافى على أهل الشمال الذين رغم أساليبهم العنيفة أبدوا استعدادا ساذجا للتعلم من الشعب الذى اتصلوا به — ويتبين حجم هذا الأثر من اتخاذ الحكام الروس الأوائل فى نوفجورود لقب « الخاقان » لقبا لهم — وهذا ثابت فى كل المصادر البيزنطية والعربية — فمثلا يقول ابن رسته — بعد أن وصف الجزيرة التى أقيمت عليها نوفوجورود — : « ولهم ملك يسمى « خاقان الروس » — وعلاوة على ذلك يقرر ابن فضلان أن لخاقان الروس ضابطا كبيرا يقود الجيش ويمثل الخاقان لدى الشعب » وأشار الأستاذ زكى وليدى الى أن التفويض بقيادة الجيش على هذا النحو أمر تجهله الشعوب الألمانية الشمالية حيث يجب أن يكون الملك هو المحارب الأول وينتهى وليدى الى القول انه جلى ان الروس قلدوا نظام الحكم الثنائى وليس هذا الأمر بعيد الاحتمال نظرا لأن الخزر كانوا أكثر الشعوب رخاء وثقافة من الذين أقام الروس معهم اتصالا اقليميا فى المراحل الأولى لفتوحاتهم ولابد أن هذا الاتصال كان قويا الى حد ما حيث كانت هناك مستعمرة للتجار الروس فى اتل عاصمة الخزر كما كانت هناك جالية من اليهود الخزر فى كييف ٠

وانه لمن المحزن أن نذكر فى سياق هذا الكلام أنه بعد مرور أكثر من ألف سنة على هذه الأحداث بذل نظام الحكم السوفيتى قصارى جهده لمحو ذكرى دور الخزر التاريخى وانجازاتهم الثقافية ففى ١٢ يناير ١٩٥٢ نشرت جريدة التيمز الانجليزية النبأ التالى :

توبيخ مؤرخ سوفيتى قلل من شأن الثقافة الروسية القديمة ٠

لقد انتقدت صحيفة «برافدا» مؤرخا سوفيتيا هو الأستاذ أرتامونوف لتقليله من شأن ثقافة الشعب الروسى القديمة وتطورها ذلك انه فى اجتماع عقدته حديثا شعبة التاريخ والفلسفة بأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى ٠ كرر عرض نظرية كان قد قدمها فى كتاب له نشر سنة ١٩٣٧ ،

فحواها أن مدينة كييف القديمة تدين بالكثير الى الشعوب الخزرية ــ فهو يصور الخزر في دور شعب متقدم وقع فريسة لطموحات الروس العدوانية.

وتقول البرافدا « ان كل هذه الأمور لا علاقة لها بالحقائق التاريخية ذلك لأن مملكة الخزر التى مثلت الاندماج البدائى لقبائل مختلفة لم تلعب دورا ايجابيا فى ابتداع فكرة الدولة بين الصقالبة الشرقيين حيث تثبت المصادر القديمة بأن تشكيلات الدولة نشأت بين الصقالبة الشرقيين قبل أى ذكر عن الخزر بزمن طويل ».

« بل ان مملكة الخزر بدلا من أن تشجع تطور الدولة الروسية القديمة فانها أعاقت تقدم القبائل الصقلبية الشرقية وتشير المواد التى حصل عليها الأثريون الى مستوى الثقافة العالى فى روسيا القديمة ــ وليس فى وسع امرىء أن يتحدث عن تفوق ثقافة الخزر الا اذا هزأ بصدق التاريخ وأهمل الحقائق ــ أجل ان اضفاء المثالية على مملكة الخزر انما يعكس بوضوح بقاء وجهات النظر المتخلفة التى يعرضها المؤرخون البورجوازيون أولئك الذين استخفوا بتطور الشعب الروسى تطورا فطريا ــ وجلى أن هذا المفهوم الخاطىء لا يمكن أن يقبله المؤرخون الروس الرسميون.

والأستاذ ارتامونوف الذى كثيرا ما اقتبست عنه فى هذا الكتاب نشر (الى جانب العديد من المقالات فى المجلات العلمية) أول مؤلفاته فى سنة ١٩٣٧ وقد عالج فيه تاريخ الخزر القديم ــ أما أروع مؤلفاته وهو « تاريخ الخزر » History of the Khazars فقد كان فيما يبدو فى دور الاعداد حين وجهت صحيفة البرافدا طغنتها اليه سنة ١٩٥٢ ونتيجة لذلك لم ينشر الكتاب الا بعد عشر سنوات أى فى سنة ١٩٦٢ وانطوى فى قسمه الأخير على اعتراف علنى بالخطأ من مؤلفه أى ما معناه انكار كل ما ذكره من قبل ــ وبالأحرى انكار كل ما قدمه المؤلف فى حياته ــ وننقل عنه فيما يلى الفقرات الوثيقة الاتصال بهذا الموضوع :

« لقد تفسخت مملكة الخزر ــ وانقسمت الى أجزاء اندمجت منها الغالبية مع شعوب تربطها بها صلة قرابة ، واستقرت الأقلية فى اتل وفقدت صفتها القومية وتحولت الى طبقة طفيلية يهودية الصبغة ».

لم يتجنب الروس أبدا انجازات الشرق القديم الثقافية ... ولكنهم لم يأخذوا شيئا قط من خزر اتل ــ ونذكر بهذه المناسبة أن اليهودية الخزرية المقاتلة لقيت المعاملة نفسها من الشعوب التى ارتبطت بها أعنى المجريين ــ والبلغار والبشنج Pechnegs والآلان Alans والبولوفتسيان Polovtsians ... ان ضرورة مكافحة المستغلين من اتل حفزت على توحيد الغز والسلاف (الصقالبة) حول عرش كييف الذهبى وخلقت هذه

الوحدة بدورها القدرة والتطلع الى المستقبل المتوقع لنمو شديد لا يقتصر على نظام الدولة الروسية بل يشمل أيضا الثقافة الروسية القديمة وهى ثقافة أصيلة لم يكن للخزر ثمة تأثير عليها أما تلك العناصر الشرقية التافهة فى الثقافة الروسية ـ تلك التى نقلها اليها الخزر ويذكرها المرء عادة عند تناول العلاقات الثقافية فانها لم تنفذ قط الى جوهر الثقافة الروسية بل بقيت على انسطح وكانت قصيرة الأمد ضئيلة الأهمية ولا تقدم اطلاقا أى مبرر للاشارة الى فترة خزرية فى تاريخ الثقافة الروسية » ٠

وهكذا آكملت أوامر السياسة الحزبية عملية الطمس التى بدأت بغمر آثار ساركل ٠

٥ ـ ولم تمنع التجارة المكثفة والتبادلات الثقافية الروس عن شق طريقهم شيئا فشيئا الى امبراطورية الخزر باستئثار رعاياهم السلاف (الصقالبة) وأتباعهم فطبقا للحولية الروسية الأساسية حدث بحلول سنة ٨٥٩ أى بعد حوالى خمس وعشرين سنة من بناء قلعة ساركل ان غدت الأتاوة المفروضة على الشعوب السلافية مقسمة بين الخزر وفرنجة فيما وراء بحر بلطيق وقد فرض الفرنجة اتاوة على شعوب الشد Chuds والكريفيشيان Krivichians ٠٠الخ٠أى الشعوب السلافية التى تقطن فى أقصى الشمال ـ بينما واصل الخزر فرض أتاوة على شعوب الفياتيكى Viatichi والسفيان Seviane وأهم منهؤلاء جميعا شعب بولين Polyane فى اقليم كييف الأوسط ـ ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلا فبعد مرور ثلاث سنوات ـ (اذا سلمنا بصحة التاريخ الوارد فى الحولية الروسية) انتقلت المدينة الرئيسية كييف الواقعة على نهر الدنيبر الى أيدى الروس بعد أن كانت تحت سيادة الخزر ٠

وكان هذا حدثا هاما فى التاريخ الروسى وان كان قد وقع فيما يبدو دون صراع مسلح فطبقا للحولية الروسية كانت نوفجوروود فى ذلك العصر يحكمها الأمير روريك (هروركر) (الشبه أسطورى) الذى أخضع لقبضته كل مستوطنات الفايكنج والشعوب السلافية الشمالية وبعض الشعوب الفنلندية ـ وحدث أن اثنين من رجال روريك وهما أوسكولد Oskold ودر Dir رأيا فى أثناء تجوالهما جنوبا على نهر الدنيبر مكانا حصينا فوق جبل اعجبا بمشهده ثم علما أن هذا الموقع هو مدينة كييف وانها تدفع اتاوة للخزر فاستقر كلاهما وأسرتاهما فى هذه المدينة واستقطبا اليهما كثيرين من أهل الشمال وسيطرا على جيرانهما السلاف تماما كما سيطر روريك فى نوفجوروود وبعد مرور عشرين سنة زحف أوليج (هيلجى) ابن روريك جنوبا وقتل أوسكولد ودر وضم كييف الى سلطانه ٠

وسرعان ما بزت كييف نوفجورود فى الأهميـة ـ فقد أصـبحت عاصمة الفرنجة Varangians و « أم المدن الروسية » بينما أصبحت الامارة التى سميت باسمها مهد أول دولة روسية ٠

ويلاحظ أن رسـالة يوسف التى حررت حـوالى قرن بعد احتلال الروس مدينة كييف لم تعد تذكرها فى قائمته التى أوضح فيها أملاك الخزر ولكن بقيت فى المدينة والامارة جماعات يهودية خزرية ذات نفوذ ثم ازداد حجمها بالمهاجرين الخزر الذين وفدوا اليها بأعداد وفيرة بعد تدمير بلدهم تدميرا نهائيا ، وتواصل الحولية الروسية الاشارة الى أبطال وافدين من « بلد اليهود » Zemlya Zhidovskaya وأبقت « بوابة الخزر » على ذكرى حكامها السابقين حية حتى العصور الحديثة ٠

٦ ـ وصلنا الآن الى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى وعلينا قبل أن نواصل قصة التوسع الروسى ان نوجه اهتمامنا الى بعض التطورات الحيوية بين شعوب السهوب وخاصة المجريين ـ فقد سارت هذه الأحداث جنبا الى جنب بزوغ سلطان الروس وكان لها أثر مباشر على الخزر ـ وعلى خريطة أوربا ٠

لقد كان المجريون حلفاء للخزر وأتباعا طوعيين لهم كما هو واضح منذ فجر امبراطورية الخزر ـ كتب الأستاذ مكارتنى (١٧) Macartney يقول : « ان مسائل أصل المجريين وتجولاتهم القديمة حيرت العلماء أمدا طويلا » وفى مكان آخر من مؤلفه يصف هذا الموقف « بأنه لغز من أشد الألغاز التاريخية غموضا » (١٨) ، وكل ما نعرفه عن أصل المجريين عن يقين أنهم كانوا ذوى قرابة بالفنلنديين وأن لغتهم تنتمى الى ما تعرف بأسرة اللغة الفينو ـ أوجريان Finno Ugrian بالاضـافة الى لغة شعوب الفوجول Vogul والاوستياك Ostyak الذين يعيشون فى غابات جبال الأورال الشمالية وبالتالى كانوا أصلا لا تربطهم قرابة بالشعوب السلافية (الصقلبية) والتركية المقيمة فى السهوب والذين جاءوا ليعيشوا بينها ـ الحق أنهم عنصر غريب الأطوار ولا يزالون كذلك الى اليوم فالمجر الحديثة خلافا للشعوب الصغيرة الأخرى ليس لها روابط لغوية مع جيرانها وبقى المجريون فى أوربا شعبا محاطا ببـلاد أهلها يختلفون عنهم من النـاحية العنصرية ـ أقاربهم الوحيدون هم الفنلنديون البعيدون عنهم جغرافيا ٠

وفى تاريخ مجهول خلال القرون الأولى للتقويم المسيحى طردت هذه القبيلة البدوية من موطنها السابق فى جبال الأورال وهاجرت جنوبا عبر السهوب ثم استقرت أخيرا فى الاقليم الواقع بين نهـرى الدون وكوبان وبالتالى صار المجريون جيرانا للخزر حتى قبل أن يرتفع شأن هؤلاء ـ

وقضوا فترة ضمن اتحاد فدرالى ضم شعبا شبه بدوى هم الانوجور Onogurs (أى السهام العشرة أو القبائل العشرة) ويعتقد أن اسم « هنجارى » هو ترجمة سلافية لتلك الكلمة (١٩) على حين أن لفظ مجرى Magyar هو الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم منذ زمن سحيق .

وحوالى منتصف القرن السابع الى نهاية القرن التاسع كان المجريون ـ كما ذكر من قبل ـ رعايا لامبراطورية الخزر ـ والواقع انه مما يلفت النظر أنه طيلة هذه المدة كلها بينما كانت القبائل الأخرى منهكة فى سباق الاستيلاء على الأراضى على نحو ما يجرى فى لعبة الكراسى الموسيقية المهلكة ، فليس لدينا أى شىء مدون عن صراع مسلح واحد بين الخزر والمجريين حيث تورط كل منهما فى فترة أو أخرى فى حروب مع جيرانهم المتاخمين لهم أو البعيدين عنهم : بلغار الفولجا ، بلغار الدانوب، الغز ، البشنج وغيرهم بالاضافة الى العرب والروس ـ وفى شرحه لما جاء فى الحولية الروسية والمصادر العربية كتب توينبى فى مؤلفه عن قنسطنطين بأنه طوال هذه الفترة « أخذ المجريون اتاوة » بالنيابة عن الخزر من الشعوب السلافية والفنلندية المقيمة فى منطقة الأرض السوداء الى الشمال من اقليم السهوب الخاص بالمجريين وفى منطقة الغابات الى الشمال منها ـ والدليل على استخدام اسم « المجرى » بحلول هذا التاريخ (نهاية القرن التاسع) هو بقاؤه فى عدد من أسماء الأماكن فى هذا الاقليم الواقع فى الجزء الشمالى من روسيا والمفروض أن أسماء هذه الأماكن تعين مواقع الحاميات والمخافر الأمامية المجرية السابقة (٢٠) ـ وهكذا هيمن المجريون على جيرانهم السلاف (الصقالبة) ـ وينتهى توينبى الى القول بأن الخزر كانوا يستخدمون المجريين كوكلاء عنهم فى جباية الاتاوة التى يفرضونها ومما لاشك فيه أن المجريين اتخذوا من هذه الوكالة مصدرا للكسب (٢١) .

ويلاحظ أن قدوم الروس غير هذا الوضع المربح تغييرا جوهريا فحوالى الوقت الذى شيدت فيه ساركل قام المجريون بحركة رائعة عبر الدون الى شاطئه الغربى ذلك أنه ابتداء من حوالى سنة ٨٣٠ فصاعدا أعيد توطين غالبية الشعب فى الاقليم الواقع بين نهرى الدون والدنيبر والذى عرف فيما بعد باسم ليبيديا Lebedia ودار نقاش طويل بين المؤرخين حول سبب هذه الحركة ويعتبر تفسير توينبى أنه أحدث التفسيرات وأفضلها مصداقية معا حيث يقول :

قد .. نستنتج أن المجريين كانوا يحتلون السهوب غرب نهر الدون باذن من سادتهم الخزر ـ وحيث ان اقليم السهوب كان من قبل ملكا للخزر وحيث أن المجريين كانوا حلفاء خاضعين للخزر فيمكننا أن

تنتهي الى القول بأن المجريين لم يوطدوا أنفسهم فى هذا الاقليم الخزرى ضد ارادة الخزر ٠٠ الواقع انه يمكننا أن نقـرر بأن الخزر لم يسمحوا للمجريين بتوطيد أنفسهم في غـرب الدون فحسب بل انهـم قاموا فعلا بغرسهم هناك لخدمة أهداف الخزر أنفسهم فقد كانت اعادة تعيين مكان جـديد لاقامة شعب ما لأسباب استراتيجية خطـة طبقها من قبل بنـاة امبراطورية البـدو ٠٠ واستطاع المجـريون في هذا الموقـع الجديد أن يساعدوا الخزر في صد زحف الروس نحو الجنوب الشرقى والجنوب ولابد أن غرس المجريين الى الغرب من الدون كان خطة مرسومة بوصفها جزءا مكملا لبناء قلعة ساركل على الضفة الشرقية لنهر الدون » (٢٢) ٠

٧ ــ وقد نجح هذا التنظيم بصورة مرضية لمدة نصف قرن تقريبا وخـلال هذه المدة زادت العـلاقة بين المجريين والخزر توثقـا وانتهت بحادثين تركا بصماتهما الدائمـة على الشعب المجرى ــ أولهما أن الخزر منحوا المجريين ملكا فأقاموا أول أسرة مجرية والثـانى أن بعض القبائل الخـزرية انخرطت فى سـلك المجـريين وغـيرت صـفتهم العرقيـة تغييرا عميقا ٠

وقد وصف الحادث الأول قنسطنطين فى مؤلفه (حوالى سنة ٩٥٠ م) حول ادارة الامبراطورية De Administrando Imperio وأكد صحته أن الأسماء التى يذكرها تظهر مستقلة فى أول حولية هنجارية (القرن الحادى عشر) ويخبرنا قنسطنطين أنه قبل أن يتدخل الخزر فى الشئون الداخلية للقبائل المجرية لم يكن على هـذه القبـائل ملك له سلطة عليـا موحدة ، وانما كانوا مجتمعا قبليا كل قبيلة عليها شيخها ، كان ألمعهم ذكرا شيخ يدعى ليبيدياس واليه نسبت ليبيديا فيما بعد فسميت باسمه ٠

وكان المجـريون سبع قبـائل لم يكن عليهم حتى ذلك الوقت حاكم من قومهم أو من الأجانب غير هؤلاء الشيوخ ونظرا لما قدموه من عون عسكرى للخزر فقد منح الخاقان حاكم بلاد الخزر زعيمهم ليبيدياس زوجة خزرية نبيلة لينجب منها أطفالا ولكنه لم يرزق منها بذرية ٠

وأخفق بذلك تحالف أسرى آخر ولكن الخاقان كان قد وطد العزم على تدعيم العلاقات التي تربط ليبيدياس وقبائله بمملكة الخزر :

وبعد مرور فترة قصيرة طلب الخاقان حاكم بلاد الخزر الى المجريين بأن يبعثوا اليه كبير شيوخهم ــ فلما مثل ليبيدياس أمام خاقان الخزر وسأل عن سبب استدعائه قال له الخاقان : لقد أرسلنا فى طلبك للسبب الآتى : أنه نظرا لأنك كريم المحتد وحكيم وشجاع ولأنك الرجل الأول

بين المجريين يمكننا أن نعلى من شأنك لتكون أول حاكم لبنى جنسك وأن تكون خاضعا لقوانيننا وأوامرنا » ٠

ولكن يبدو أن ليبيدياس كان رجلا معتزا بكرامته فرفض هذا العرض بعبارات مناسبة عرفانا بالجميل ـ أجل رفض أن يكون ملكا دمية ألعوبة فى يد الآخرين واقترح بدلا منه أن يمنح هذا الشرف اما لشيخ زميل آخر اسمه الموس ALMUS أو لأرباد بن الموس « وارتاح الخاقان لهذا الحديث » وأعاد ليبيدياس ـ صحبه حرس مناسب لمقامه ـ الى شعبه فاختار هؤلاء أرباد ليكون ملكا عليهم ٠ وتم الاحتفال بتنصيب أرباد ملكا « وفق عادات الخزر وعرفهم فرفعوه فوق دروعهم ـ ولكن لم يكن للمجريين اطلاقا قبل ارباد هذا أى حاكم آخر ـ ومن ثم سارت الأمور على أن يكون حاكم المجر دائما من أبنائها الى يوم أن كتب قنسطنطين كتابه هذا ٠

و « هذا اليوم » الذى كتب فيه قنسطنطين كان فى حوالى سنة ٩٥٠ م (أى بعد قرن من تنصيب أرباد ملكا) والواقع ان ارباد قاد شعبه المجرى فى فتح هنجاريا (المجر) وتولت أسرته الحكم حتى سنة ١٣٠١ ، ويلاحظ أن اسمه من أوائل الأسماء التى يحفظها أطفال المدارس المجريين وأن الخزر تركوا بصماتهم على كثير من الأحداث التاريخية ٠

٨ ـ ويبدو أنه كان للحادث الثانى أثر أشد على القومية الهنجارية ففى تاريخ غير محدد على حد ما يذكره قنسطنطين(٢٣) حدث عصيان Apostasia من فريق من الأمة الخزرية ضد حكامها وكان المتمردون من قبائل ثلاث « عرفت باسم الكافار Kavars أو الكابار Kabars وكانوا من سلالة الخزر أنفسهم ـ وسيطرت الحكومة على الموقف وقتل بعض الثوار وفر البعض الآخر واستقروا مع المجريين وتعايش الفريقان وقاموا أيضا بتعليم المجريين لغة الخزر وهم الى اليوم يتكلمون اللهجة نفسها ولكن بالاضافة الى اللغة الأخرى ، لغة المجريين ، ونظرا لانهم أثبتوا أنهم أكثر كفاية فى الحروب وأشجع القبائل الثمانية (القبائل المجرية الأصلية السبعة علاوة على الكابار) ولأنهم القادة فى الحروب فقد اختيروا ليكونوا الجماعة الأولى ـ وهناك قائد واحد بينهم ـ أعنى فى جماعات الكافار الثلاث أصلا) ولا يزال القائد موجودا الى اليوم » ٠

وحرصا منه على أن يضع النقاط على الحروف يستهل قنسطنطين الفصل الثانى من مؤلفه بقائمة تحوى أسماء قبائل الكافار والمجريين وفى مقدمتها تلك التى قطعت علاقتها بالخزر أعنى جماعة الكافار سالفة

الذكر (٢٤) أما الجماعة أو القبيلة التى تسمى نفسها فعلا المجريين فانهـا تأتى الثالثة فى الترتيب فحسب وكان المجريون ـ مجازا وربما حرفيا ـ قد خضعوا لعملية نقل دم من الخزر ـ أثرت عليهم فى نواح كثيرة فاننا ـ أولا وقبل كل شيء ـ قد أثار دهشتنا أن نعلم أنهم تكلموا فى المجر لغتين : لغة المجـر ولغة الخزر ـ وقد علق على هذه الحقيقه الفريدة عدد من الثقاة العصريين فكتب الأستاذ بيورى يقول : ان هذه اللغة الثنائية أنتجت السمة المختلطة للغة الهنجارية الحديثة ـ تلك التى أتاحت حجة مقبولة فى الظاهر للرأيين المتعارضين بشأن أنساب المجريين العرقية (٢٥) ، ويقول الأستاذ توينبى (٢٦) انه على الرغم من أن لغة المجريين لم تعد ثنائية الا أنهم كانوا كذلك فى بدايات دولتهم كما تشهد على ذلك حوالى مائتى كلمـة استعيرت من لهجة الشوفاش القديمـة Chuvash فى اللغـة التركيـة تلك التى تكلمهـا الخزر (انظر الفصل الأول قسم ٣) .

وقد اتخذ المجريون أيضا ـ كما فعل الروس ـ شكلا معدلا لنظام الملكية الثنائية الذى سنه الخزر فمثلا يقول الجرديزى .. يخرج قائدهم ممتطيـا جواده مع عشرين ألفـا من الفرسان ويطلقون عليه اسم كاندا Kende (كنده Kanda باللغة الهنجارية) وهذا هو لقب ملكهم الأكبر أما لقب الشخص الذى يحكمهم فعليـا فانهـم يسمونه يولا Jula ـ وهناك ما يبرر الاعتقاد بأن الأوائل من أصحاب هذا اللقب فى المجر كانوا من قبيلة الكابار Kabars (٢٧) .

وهناك أيضـا من الأدلة ما يشـير الى أنه كان بين قبائل الكابار المنشقة الذين تولوا فعلا قيادة القبائل المجـرية يهود أو أنصار ديانة تهودية (٢٨) ـ ويبدو أنه من المحتمل تماما ـ كما رأى ارتامانوف وبارتا ـ أن تمرد الكابار Kabars كان مرتبطا بشـكل ما بالاصلاحات الدينية التى بدأها الملك عباديه أو أنه كان رد فعل ضـدها ـ فالقانون الحبرى (نسبة الى الأحبار) والتعصب الصارم والافتاءات التلمودية ربما كانت هذه الأمور والى حد بعيد ضـد ميول محاربى السهوب ذوى الدروع البراقة ـ فاذا كانوا قد أعلنوا ايمانهم « بديانة تهودية » فلابد أنها كانت أقرب الى عقيدة عبرانى الصحراء القدامى منها الى تعاليم الأحبار الربوبية الأرثوذكسـية بل لعلهم كانوا من أتباع طائفـة القرائين Karaites الأصولية ـ ولكن هذا هو مجرد تخمين .

.

٩ ـ وانتهى هذا التعاون الوثيق بين الخزر والمجـريين حين رحل هؤلاء عن السهوب الأوراسية واخترقوا سلسلة جبال الكربات وفتحوا

الاقليم الذى صار موطنهم الدائم ـ بيد أن ظروف هذه الهجرة هى بدورها موضع جدل ولكن في وسع المرء أن يدرك على الأقل خطوطها العريضة .

وفى خلال العقود الأخيرة للقرن التاسع الميلادى انضم علاوة على ذلك لاعب فظ الى لعبة الكراسى الموسيقية التى ألفها البدو أعنى قبيلة البشنج (*) Pechnegs والشيء القليل الذى نعرفه عن هذه القبيلة التركية لخصه قنسطنطين فى وصفه اياهم بأنهم مجموعة من البرابرة اشتهروا بالجشع والنهم وهم لا يتوانون مقابل مبلغ من المال عن أن يحاربوا برابرة آخرين وأن يقاتلوا الروس وكانوا يعيشون بين نهرى الفولجا والأورال تحت سيادة الخزر ـ فطبقا لما رواه ابن رسته « كان الخزر يغيرون عليهم كل سنة ، ليجبوا الاتاوة المستحقة لهم » .

وحوالى آخر القرن التاسع نزلت بالبشنج كارثة (لم تكن فريدة فى نوعها اطلاقا) فقد طردهم من بلدهم جيرانهم الشرقيون ولم يكن هؤلاء الجيران سوى الغز الذين كرههم ابن فضلان كرها شديدا ـ فهم احدى القبائل التركية التى لا تعد ولا تحصى والتى انطلقت بين حين وآخر من عقالها فى أواسط آسيا وانجرفت نحو الغرب واضطر البشنج وقد رحلوا عن وطنهم الى محاولة الاستقرار فى بلاد الخزر الا أن الخزر ردوهم على أعقابهم (**) فواصلوا هجرتهم الجماعية نحو الغرب وعبروا نهر الدون وغزوا اقليم المجريين واضطر المجريون بدورهم الى التقهقر بعيدا نحو الغرب داخل المنطقة الواقعة بين نهرى الدنيبر وسيريث وأطلقوا على هذه المنطقة اسم اتل ـ كوز Etel-Koz أى (أرض ما بين النهرين) ويبدو أنهم استقروا بها فى سنة ٨٨٩ م ولكن حدث فى سنة ٨٩٦ أن أعاد البشنج ضربتهم متحالفين مع بلغار الدانوب وعندئذ انسحب المجريون الى ما يعرف اليوم بالمجر .

هذه نبذة موجزة لقصة رحيل المجريين عن السهوب الشرقية ونهاية العلاقة بين المجريين والخزر ـ أما تفاصيلها فهى موضع جدل حيث يرى بعض المؤرخين (٣٢) أصحاب هوى معين أن المجريين هزموا مرة واحدة لا مرتين على يد البشنج وأن اتل كوز (أرض ما بين النهرين) كان مجرد اسم آخر للبلاد « ليبيديا » ـ ومهما يكن من شيء ففى وسعنا أن نترك هذه الأحاجى للاخصائيين ـ والأمر الذى يثير اهتمامنا بدرجة أكبر هو

(*) أو الباشيناك أو باللغة الهنجارية : البسنيوك .

(**) وهذا فيما يبدو تفسير مقبول لقول قنسطنطين بأن الغز والخزر شنوا الحرب على البشنج .

التناقض الظاهر بين صورة المجريين بوصفهم مقاتلين أشداء وبين تقهقرهم المخزى من مواطنهم المتعاقبة فمثلا نعرف من حولية هنكمار ابن بلدة ريمس (٣٣) Hinkmar of Rheims أنهم أغاروا فى سنة ٨٦٠ على امبراطورية الفرنجة الشرقية وكانت غارتهم هذه أول الغارات الهمجية التى روعت أوربا خلال القرن التالى ـ كذلك نسمع عن اللقاء الرهيب الذى صادف القديس سيريل رسول السلاف (الصقالبة) مع قبيلة مجرية سنة ٨٦٠ وهو فى طريقه الى بلاد الخزر وكان يؤدى صلواته حين هجم أفرادها عليه وهم يعوون كالذئاب الا أن قداسته حمته من أى أذى(٣٤) ٠

وتذكر حولية أخرى (٣٥) أن المجريين والكابار حاربوا الفرنجة سنة ٨٨١ ويخبرنا قنسطنطين أنه بعد ذلك بعشر سنوات « شن المجريون الحرب » على سيميون Simeon (حاكم بلغار الدانوب) وجلدوه بعنف وواصلوا زحفهم حتى وصلوا بريسلاف Preslav وبعد أن سجنوه فى قلعة اسمها مندراجا Mundraga قفلوا راجعين الى وطنهم (٣٦) ٠

ترى كيف يوفق المرء بين كل هذه الأعمال الباسلة وبين التقهقرات من الدون الى المجر والتى حدثت فى الفترة نفسها ؟ يبدو أن الاجابة على هذا السؤال أشار اليها قنسطنطين فى الفقرة التى تلت مباشرة تلك التى اقتبسناها للتو :

« ٠٠٠ الا أن سيميون البلغارى بعد أن تصالح مع امبراطور الروم واطمأن الى سلامته أرسل الى البشنج واتفق معهم على أن يشنوا معا الحرب على المجريين ويبيدوهم ـ فلما خرج المجريون فى حملة عسكرية أغار أفراد جماعة البشنج مع سيميون على المجريين وأبادوا أسرهم تماما وطاردوا ـ على نحو يثير الشفقة ـ أولئك المجريين الذين بقوا لحراسة أرضهم ولكن حين عاد المجريون من حملتهم العسكرية الى بلدهم ووجدوه خرابا يبابا هرعوا الى البلد الذى يحتلونه اليوم (المجر) » ٠

وهكذا كان معظم أفراد الجيش « بعيدين عن البلاد » فى حملة عسكرية حين هوجمت بلادهم وأسرهم وفى ضوء ما جاء فى الحوليات سالفة الذكر فقد كانوا كثيرا ما يغيرون على بلاد بعيدة تاركين بيوتهم فى حماية ضعيفة ـ وكان فى وسعهم الانغماس فى هذه العادة المحفوفة بالمخاطر طالما ظل جيرانهم الملاصقون لهم هم سادتهم الخزر وقبائل السلافية (الصقلبية) المسالمة ولكن بقدوم رجال جماعة البشنج الطامعين فى الاستيلاء على الأرض فقد تغير الموقف ـ ولعل الكارثة التى وصفها قنسطنطين كانت آخر سلسلة فى الأحداث المماثلة بيد أنها حملت المجريين على اتخاذ قرار حاسم ألا وهو البحث عن وطن جديد أكثر أمنا فيما وراء الجبال وطن عرفوه من قبل من غزوتين سابقتين على الأقل ٠

وهناك رأى آخر يناصر هذه النظرية فان المجريين فيما يبدو دأبوا على شن الغارات على بلاد أخرى فى النصف الثانى من القرن التاسع فقط أى حوالى الوقت الذى خضعوا فيه للعملية الخطيرة عملية نقل الدم من الخزر ـ ولعل هذه العملية تكشفت عن أنهـا كانت نعمة مختلطة فان جماعة الكابار الذين كانوا « أكفأ فى الحرب وأكثر شجاعة » صاروا ـ كما رأينا ـ القبيلة الرائدة وغرسوا فى مضيفيهم روح المخاطرة التى سرعان ما حولتهم فجعلتهم بلاء أوربا كما كان الهون من قبل ـ ثم انهم علموا المجريين أيضـا تلك التنظيمـات العسكرية الفريدة المميزة التى استخدمها منذ زمن سحيق كل شعب تركى ـ الهون ـ الآفار ـ الاتراك ـ البشنج ـ الكومان ، ولم يستخدمها غيرهم ... مثل الفرسان خفيفى السلاح واستخدامهم الحيل القديمة من تظاهر بالفرار أو التصويب فى أثناء الفرار او الهجوم المفاجىء المقترن بعواء كعواء الذئاب » (٣٧) .

وقد أثبتت هذه الطرق فعاليتها القاتلة خلال القرنين التاسع والعاشر حين غزا المجريون ألمانيا والبلقان وايطاليـا بل وحتى فرنسا ولكنهم لم يوفقوا توفيقـا يذكر ضد البشنج الذين استخدموا الأساليب نفسها والعواء نفسه الذى يبعث القشعريرة فى البدن .

وهكذا بطريق غير مباشر وبالمنطق المعوج للتاريخ كان الخزر أداة فى انشاء الدولة المجرية على حين أن الخزر أنفسهم اختفوا وسط الضباب وللأستاذ مكارتنى رأى مماثل ولكنه يذهب الى أبعد من ذلك فيؤكد الدور الحاسم الذى لعبه الكابار : أن معظم أفراد الشعب المجرى المؤلف من الفينـو ـ أوجريان الأصليين Finno-Ugrians هم نسـبيا (وان لم يكن الى حد كبير) مزارعون مسالمون مقيمون اتخذوا بيوتهم وسط الريف المتموج .. غرب الدانوب ، أما سهل ألفولد Al Fold فكانت تحتله قبيلة الكابار وهم شعب رحـل ، أتـراك خلص : رعاة وفرسان ومقاتلون قل هم القوة المحركة وجيش الأمة ـ هذا هو الشعب الذى كان لا يزال ـ فى عصر قنسطنطين ـ يحتل مكان الصدارة بوصفه « الأول بين قبـائل المجريين » واعتقـد أن شـعب الكابار هـؤلاء هم ـ فى الأغلب ـ الذين أغاروا على السلاف (الصقالبة) والروس من السهوب وقادوا الحملة العسكرية ضد البلغار سنة ٨٩٥ وكانوا الى حد كبير ولفترة تزيد على نصف قرن بعد ذلك مصدر رعب لنصف أوربا (٣٨) .

ومع ذلك نجح المجريون فى الاحتفاظ بهويتهـم العرقية .. وتحمل الكابار وطأة حروب قاسية استمرت ستين عاما ولابد أن قواتهم المسلحة قد تناقصت الى حد كبير نتيجة لذلك ـ وفى الوقت نفسـه زاد عدد

المجريين الأصليين حيث نعموا بحياة سلمية نسبيا » (٣٩) كما نجحوا أيضا بعد فترة ثنائية اللغة في الاحتفاظ بلغتهم الفينو ـ اوجريك Finno-Ugric وسط جيرانهم الألمان والسلاف وذلك على خلاف بلغار الدانوب الذين فقدوا لغتهم التركية الأصلية ويتكلمون الآن لغة سلافية (صقلبية) ٠

ومهما يكن من شيء فقد استمر تأثير الكابار ملموسا في المجر كما أن علاقه الخزر والمجريين لم تنقطع تماما بعد أن أصبحوا منفصلين بحبال الكربات ٠ فطبقا لما ذكره الأستاذ فازيلييف ، حدث في القرن العاشر الميلادى أن دعا الدوق تاكسوني المجرى عددا غير معروف من الخزر ليستقروا في مقاطعته وقد يحتمل أن يكون بين هؤلاء المهاجرين عدد كبير من اليهود الخزر ، كذلك لنا أن نفترض أن كلا الكابار والمهاجرين الذين جاءوا فيما بعد جلبوا معهم بعض حرفييهم المهرة وأن هؤلاء قاموا بتعليم فنونهم للمجريين (انظر الفصل الأول ـ قسم ١٣) ٠

واضطر المجريون في عملية الاستيلاء على وطنهم الجديد الدائم الى طرد شاغليه السابقين، أى المورافيين وبلغار الدانوب فانتقل هؤلاء الى الأقاليم التى لا يزالون يعيشون فيها ـ أما جيرانهم السلاف الآخرون وهم الصرب والكروات فقد كانوا تقريبا فى موضعهم الأصلى Insitu ـ وهكذا نتيجة لسلسلة ردود الفعل التى بدأت في جبال الأورال النائية ـ حيث طارد الغز البشنج ـ وطارد البشنج المجريين وطارد المجريون البلغار والمورافيين نقول نتيجة لذلك بدأت خريطة وسط أوربا الحديثة تتشكل ـ قل ان المشكال Kaleidoscope بمشاهده المتغيرة بدأ يتخذ شكلا واضحا ثابتا تقريبا ٠

١٠ ـ في وسعنا الآن أن نستأنف قصة صعود الروس الى السلطة من حيث تركناها أعنى من تاريخ ضم كييف سنة ٨٦٢ على يد رجال روريك ودون سفك دماء وهذا هو أيضا التاريخ التقريبى الذى طرد فيه جماعة البشنج المجريين نحو الغرب وبطردهم حرم الخزر من حماية جناحهم الغربى مما يمكن أن يفسر فوز الروس بالسيطرة على كييف فى سهولة ويسر ٠

الا أن اضعاف قوة الخزر العسكرية عرض البيزنطيين لهجوم الروس عليهم فما لبث هؤلاء أن استقروا فى كييف حتى أبحرت سفنهم هابطة فى نهر الدنيبر وعبرت البحر الأسود وهاجمت القسطنطينية وقد وصف بيورى هذا الحادث فى أسلوب فنى رائع فيما يلى :

« فى شهر يونيه سنة ٨٦٠ كان الامبراطور (ميخائيل الثالث) يزحف مع جميع قواته ـ ضد العرب ويحتمل أنه قطع شوطا بعيدا حين وصلته الأنباء المذهلة التى استدعته للعودة على عجل الى القسطنطينية ـ ذلك أن جيشا روسيا كان قد أبحر عبر البحر الأسود فى مائتى سفينة ودخل البوسفور ونهب الجند الأديرة والضواحى القائمة على شاطئيه واجتاحوا جزيرة الأمراء وارتبك سكان المدينة وضعفت معنوياتهم تماما وكان جند الحامية Iagmata الذين يتمركزون عادة فى منطقة مجاورة للمدينة ـ كان هؤلاء بعيدين عنها حيث كانوا فى رفقة الامبراطور ٠٠ كما كان الأسطول بعيدا عن القسطنطينية ـ وبعد أن أنزل البرابرة الخراب والدمار بالضواحى أخذوا يستعدون لمهاجمة المدينة ووسط هذه الأزمة ٠٠ نهض البطريرك العالم « فوتياس » الى مستوى المسئولية لمواجهة هذا الظرف فأخذ على عاتقه مهمة اعادة الشجاعة المعنوية الى نفوس زملائه المواطنين ٠٠ وعبر عن الشعور العام حين راح يسهب فى الكلام عن التعارض القائم حيث ان المدينة الامبراطورية « ملكة العالم كله تقريبا » غدت موضع هزء عصابة من الرقيق هم زمرة خسيسة همجية ـ بيد أن الجماهير كانت أكثر تأثرا وارتياحا حين لجأ البطريرك الى السحر الكنسى الذى استخدم بفعالية فى حصارات سابقة ٠ حيث حمل هو نفسه ثوب العذراء الثمين فى موكب طاف حول أسوار المدينة وساد الاعتقاد بأنه غمس فى مياه البحر بهدف اثارة عاصفة من الرياح ولم تهب العاصفة ولكن سرعان ما بدأ الروس بعدئذ فى التقهقر ـ ويرجح أنه لم يكن هناك كثيرون بين المواطنين المبتهجين لم يعزوا خلاصهم الى التدخل المباشر لملكة السماء » (٤١) ٠

ويمكننا أن نضيف على سبيل الاثارة أن البطريرك العالم فوتياس الذى أنقذت فصاحته المدينةالامبراطورية لم يكن سوى « صاحب الوجه الخزرى » الذى أرسل القديس سيريل فى بعثته التبشيرية ـ أما عن تقهقر الروس فقد كان سببه سرعة عودة جيش الروم وأسطولهم ومع ذلك فان صاحب الوجه الخزرى أنقذ الروح المعنوية بين الجماهير فى أثناء فترة الانتظار العصيبة ٠

وللأستاذ توينبى تعليقات ممتعة على هذا الحادث فقد كتب يقول :

انه فى سنة ٨٦٠ أوشك الروس على الاستيلاء على القسطنطينية أكثر من أية محاولة أخرى قاموا بها قبل ذلك التاريخ (٤٢) ـ ثم انه يشارك أيضا الرأى الذى أبداه عدد من المؤرخين الروس والقائل بأن الهجوم الذى شنه أسطول أهل الشمال عن طريق نهر الدنيبر ثم عبر البحر الأسود

كان منسقا مع الهجوم المتزامن لأسطول الفايكنج الغربى الذى كان يقترب من القسطنطينية عبر البحر المتوسط والدردنيل :

« يميل فازيليف وباسكيفكر وفرنادسكى الى الاعتقـاد بأن الحملتين البحريتين اللتين تقاربتا على هذا النحو فى بحر مرمرة لم تكونا متزامنتين فحسب بل كانتا أيضا تعملان فى تعاون وانسجام ــ بل ان هؤلاء المؤرخين راحوا يخمنون هوية العقل الموجه الذى يعتقدون انه رسـم هـذه الخطة الاستراتيجية على نطاق واسع فهم يرون بأن روريك حاكم نوفجورود كان هو نفس الشخص روريك جوتلنده ·

وهذا يجعل المرء يقدر مكانة الخصم الذى كان على الخزر مكافحته ولم تتوان الدبلوماسية البيزنطية فى الاعجاب به وأن تلعب الدور المزدوج طبقا لمقتضيات الظروف ، فتارة تشن الحرب حيث لم يتيسر تحاشيها وتارة تلجأ الى الترضية مدفوعة بالأمل الورع فى أن الروس سوف يتحولون فى النهاية الى المسيحية ويصبحون من رعايا البطريركية الشرقية أما عن الخزر فقد كانوا فى الظروف القائمة مصدر قوة لا يستهان به وسوف يخدعون فى أول فرصة تسنح سواء كانت فرصة مناسبة أو غير مناسبة ·

١١ ــ وقد تناوبت العلاقات البيزنطية الروسية بين كفاح مسلح ومعاهدات صداقة وذلك طيلة مائتى سنة التالية فشنت الحروب فى سنة ٨٦٠ (حصار القسطنطينية) و٩٠٧ و٩٤١ و٩٤٤ و٩٦٩ ــ ٩٧١ وأبرمت المعاهدات فى السنوات ٨٣٨ ــ ٨٣٩ و٨٦١ و٩١١ و٩٤٥ و٩٥٧ و٩٧١ ولا نعرف سوى النزر اليسير عن محتويات هذه الاتفاقيات السرية تقريبـا بل ان القليل الذى نعرفه يكشف عما شاب اللعبة من تعقيد محير ــ فبعد سنوات قليلة من حصار القسطنطينية يروى البطريرك فوتيـاس (وهـو نفسه الذى شاهد الحصار) أن الروس أرسلوا سفراء الى القسطنطينية وطبقـا للصيغة البيزنطية المحبكة للتبشـير « فقد ناشـدوا الامبراطور أن يعمد مسيحيا » وكما يلاحظ الأسـتاذ بيورى « ليس فى وسـعنا القول أى من المستوطنات الروسية أو كم مستوطنة منها مثلتها بعثة السفراء هذه ولكن لابد أن الهدف منها كان اصلاح البين بين البيزنطيين والروس عقب الغارة الأخيرة وربما أيضا للحصول على اذن باطلاق سلاح أسراهم والثابت أن بعض الروس وافقوا على اعتناق المسيحية بيد أن المعاهدة التى أبرمت بين سنة ٨٦٠ ، ٨٦٦ م يحتمل انها أدت الى نتائج أخرى ·

وكان من بين هذه النتائج تجنيد البحارة الاسكندنافيين فى الأسطول البيزنطى ــ وبحلول سنة ٩٠٢ بلغ عددهم سبعمائة بحار وحدث تطـور

آخر هو انشاء حرس الفرنجه الشهير Varangian Guard وهم فيلق من صفوة الروس والجند المرتزقة من أهل الشمال بل وحتى من الانجليز – وفي المعـاهدات التى أبرمت فى سنة ٩٤٥ و ٩٧١ تعهد حكام أمارة كييف الروس بأن يزودوا الامبراطور البيزنطى بالجنود عند الطلب (٤٥) وفى أيام قنسطنطين بورفيروجينتوس أى فى منتصف القرن العاشر كان تواجد الاساطيل الروسية فى البوسفور مشهدا مألوفا ولم تعد تبحر فيه لحصار القسطنطينية بل لبيع ما تحمله من سلع – وتميزت التجارة بتنظيمها المتقن الدقيق (فيما عدا فترة نشوب مصادمات عسكرية) وطبقا لما جاء فى الحولية الروسية اتفق فى معاهدات سنة ٩٠٧ وسنة ٩١١ على أنه يجب على الزائرين الروس لمدينة القسطنطينية الالتزام بالدخول اليهـا عبر بوابة واحدة من بواباتها وبحيث لا يزيد عددهم عن خمسين فردا فى كل مرة وأن يكونوا فى صحبة موظفين (بيزنطيين كمرشدين) – وكان يسمح لهم طيلة مدة اقامتهم فى المدينة بتلقى ما يلزمهم من غلال وكذا ما يكفيهم من مؤن أخرى لمدة ستة أشهر تسلم اليهم على أقساط شهرية بما فى ذلك الخبز – النبيذ – اللحوم – الأسماك وتسهيلات الاستحمام (لمن يحتاجها) وللتأكد من سلامة المعاملات التجارية والتزامها قواعد السلوك الشريف فقد كانت عقوبة التعامل فى النقد فى السوق السوداء بتر اليد – ثم ان الجهود التبشيرية لم تهمل بوصفها الوسيلة الأساسية للتعـايش السـلمى مع الروس الذين تزداد قوتهم على نحو مضطرد ٠

ولكن المهمة كانت شاقة فطبقا للحوليـة الروسية أنه حين أبرم أولج الوصى على كييف معاهدة سنة ٩١١ مع البيزنطيين قام الامبراطوران ليـو والكسندر (الحاكمان الشريكان) بعد الاتفاق على الجزية بحلف اليمين على التزامهما بالمعاهدة وقبلا الصليب ثم طلبا الى أولج ورجاله أن يحلفوا اليمين بالمثل – فقام الروس طبقـا لديانتهم بالقسم بأسلحتهم وبآلههم بـيرون Perun وأيضا بآلههم فولوس Volos اله الماشية وبذلك صدقوا على المعاهدة (٤٦) ٠

وبعد مرور نصف قرن تقريبا وبعد عدد من المعارك والمعاهدات بدا التنصر للكنيسة المقدسة قاب قوسين أو أدنى ففى سنة ٩٥٧ عمدت الأميرة أولجا أميرة كييف (أرملة الأمير ايجور) عند زيارتها الرسمية للقسطنطينية (ما لم تكن عمدت أصلا مرة قبل سفرها – وهذا أيضا أمر موضع جدل)

وقد ورد فى كتـاب المراسـم لقنسطنطين وصف مفصـل للولائم والمهرجانات التى أقيمت على شرف الأميرة أولجا وأن لم يأت المؤلف بوصف دقيق لرد فعل الأميرة ازاء اللعب الميكانيكية المعروضة فى قاعة العـرش

الامبراطورى (والتى تذكرنا بتلك التى فى ملاهى ديزنى لاند) مثلا ازاء تلك الأسود المحشوة التى أصدرت زئيرا ميكانيكيا رهيبا (وقد كتب زائر شهير آخر هو الأسقف لتبراند Liutprand أنه لولا أنه حذر من قبل عما سيصادفه من مفاجآت مختزنة للزائرين لما استطاع أن يكون رابط الجأش هادىء الأعصاب) ولابد أن هذه الزيارة سببت دوارا خطيرا لرئيس التشريفات (وهو قنسطنطين نفسه) ليس فقط لأن أولجا عاهلة انثى بل لأن حاشيتها كن من الجنس اللطيف أيضا أما الدبلوماسيون والمستشارون وعددهم اثنان وثمانون فقد ساروا فى خشوع فى مؤخرة الوفد الروسى (٤٧) ٠

ووقع قبل الوليمة مباشرة حدث عرضى يرمز الى الطبيعة الهشة للعلاقات الروسية البيزنطية ـ ذلك أنه عندما دخلت سيدات البلاط البيزنطى سجدن أمام أعضاء الأسرة الامبراطورية كما تقضى بذلك المراسم وظلت أولجا واقفة ولكن لوحظ بارتياح أنها مالت برأسها وان وضح أنه ميل طفيف ـ وبناء على ذلك وضعت في مكانها بأن أجلست فى مائدة مستقلة كما حدث لضيوف الدولة المسلمين (٤٨) ٠

أما الحولية الروسية فقد جاءت برواية مختلفة عن هذه الزيارة الرسمية بولغ في زخرفتها ـ وعندما عرض موضوع التعميد أخطرت أولجا الامبراطور قنسطنطين بأنه اذا رغب فى تعميدها فعليه أن يقوم بهذه المهمة بنفسه والا فهى تعارض قبول التعميد ، ووافق الامبراطور وطلب الى البطريرك أن يلقنها أصول الدين فعلمها قواعد الصلاة والصوم واعطاء الصدقات والمحافظة على العفة ـ وحنت هى رأسها وكأنها قطعة من الاسفنج تمتص الماء واستوعبت تعاليمه في تلهف ٠٠٠

وبعد أن تم تعميد الأميرة أولجا استدعاها الامبراطور وأخبرها أنه يريد أن تصبح زوجة له ولكنها أجابت « كيف يمكن أن تتزوجنى بعد أن قمت أنت نفسك بتعميدى ومناداتى بأننى ابنتك فهذا محرم بين المسيحيين كما يجب أن تعرف ذلك أنت بالذات » وبعدئذ قال الامبراطور (لقد انتصرت على بدهائك يا أولجا) (٤٩) ٠

وعندما عادت أولجا الى كييف أرسل اليها قنسطنطين رسالة قال فيها « نظرا لأننى منحتك هدايا كثيرة فقد وعدتينى أنك عند عودتك الى روس

(★) كان هؤلاء يتألفون من ٩٠ من أقارب أولجا ، ٢٠ دبلوماسيا ، ٤٣ مستشارا تجاريا ، قسيس واحد ، مترجمين اثنين ، ٦ خدم الدبلوماسيين ومترجم أولجا الخاص ٠

Ros سوف ترسلين الى هدايا عديدة من الرقيق والنسج والفراء وتبعثين الى بجند لمعاونتى « وردا على الامبراطور قالت أولجا لمندوبيه بأنه اذا قبل الامبراطور أن يقضي معها فترة طويلة في بوشيانا Pochayana كما فعل هى معه فى البوسفور فانها ستستجيب الى طلبه وبهذه الكلمات أذنت للمندوبين بالانصراف » (٥٠) ٠

لابد أن أولجا ـ هيلجا هذه كانت امرأة اسكندنافية مرعبة من طراز المرأة الامازونية الواردة فى الأساطير الاغريقية ـ لقد كانت كما ذكر من قبل أرملة الأمير ايجور المفترض أنه ابن روريك الذى تصفه الحولية الروسية بأنه حاكم جشع أحمق سادى النزعة ، هاجم البيزنطيين فى سنة ٩٤١ بأسطول ضخم وقام رجاله « بأسر عدد من الأهالى قتلوا بعضهم وجعلوا من البعض الآخر أهدافا لسهامهم واعتقلوا البعض وبعد أن قيدوا أيديهم خلف ظهورهم دقوا مسامير حديدية من جانب الى آخر فى رؤوسهم كما أشعلوا النيران فى كثير من الكنائس المقدسة » (٥١) ولكن الأسطول البيزنطى هزمهم فى النهاية حيث تدفقت منه النار الافريقية خلال أنابيب ممتدة فى مقدم سفنه « وعندما شاهد الروس النيران ألقوا بأنفسهم فى مياه البحر ولكن من بقوا على قيد الحياة عادوا الى وطنهم وهناك رووا أن الروم كان فى حوزتهم برق من السماء فأشعلوا فيهم النيران بتصويبه نحوهم ولذلك عجز الروس عن التقلب عليهم » ٠

وبعد هذا الحادث بأربع سنوات أبرمت معاهدة صداقة أخرى ـ وبوصف الروس شعبا بحريا فى الغالب فقد أذهلتهم النار الاغريقية بل وبدرجة أكثر من غيرهم ممن هاجموا بيزنطة ـ وكان « البرق من السماء حجة قوية لصالح الكنيسة الاغريقية الا أنهم (الروس) لم يكونوا مستعدين بعد لاعتناق دين جديد ٠

ولما اغتيل ايجور سنة ٩٤٥ على يد الدريفليين Derevlians وهم شعب صقلبى كان ايجور قد فرض عليهم اتاوة فادحة ـ أصبحت أرملته أولجا وصية على عرش كييف فبدأت حكمها بانتقام رباعى من الدريفليين حيث أصدرت أمرها بدفن أعضاء بعثة السلام الدريفيليين أحياء ثم ثنته بحرق وفد من الأعيان فى حمام عمومى ، وتلا هذا مذبحة أخرى وكان الانتقام الأخير حرق مدينة الدريفيليين الرئيسية ٠ أجل يبدو أن نهم

(★) لم يتردد الأستاذ توينبى فى تسمية سلاح الروم السرى هذا بالنابالم ـ فقد كان مركبا كيميائيا لا تعرف عناصر تركيبه ربما كان جزء منها نفطا مقطرا يشتعل تلقائيا بتلامسه مع الماء ولا يمكن اطفاؤه بالماء ٠

أولجا لسفك الدماء لم يمكن اشباعه حقا الى أن عمدت وتخبرنا الحولية الروسية أنه منذ ذلك اليوم فصاعدا أصبحت أولجا « بشير روسيا المسيحية – قل انها كانت تماما كالفجر الذى يسبق شروق الشمس أو الفجر الذى يسبق النهار، لانها تألقت مثل القمر فى الليل وكانت متوهجة بين الزنادقة مثلها مثل « لؤلؤة وسط الوحل » وفى الوقت المناسب ضمت الى قائمة القديسين وغدت أول قديسة روسية فى الكنيسة الأرثوذكسية » ٠

١٢ – الا أنه على الرغم من الضجة الكبرى التى صاحبت تعميد أولجا وزيارتها الرسمية للقسطنطينية فلم تكن هذه آخر كلمة فى الحوار العاصف الذى دار بين الكنيسة الاغريقية والروس ذلك لأن سفياتوسلاف بن أولجا ارتد الى الوثنية ورفض أن يصغى الى توسلات أمه « وجمع حشدا غفيرا من الجند الشجعان – وفى خطى خفيفة كخطى الفهد قام بحملات عسكرية كثيرة كان من بينها حربه ضد الخزر وأخرى ضد البيزنطيين » والواقع ان الأسرة الحاكمة الروسية لم تعتنق مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الاغريقية الا فى سنة ٩٨٨ وذلك فى عهد القديس فالديمير بن سفياتوسلاف – أى فى حوالى الوقت نفسه الذى تحول فيه المجريون والبولنديون والاسكندنافيون الناءون الى مذهب كنيسة روما اللاتينية – وهكذا بدأت تتشكل الخطوط العريضة للانقسامات الدينية الدائمة فى العالم – وفى هذه العملية بدا الخزر اليهود وكأنهم يعيشون فى غير زمانهم الصحيح وأدى ازدياد التقارب بين القسطنطينية وكييف رغم ما شاب هذا التقارب من شد وجذب أحيانا – أدى الى تضاؤل شأن اتل شيئا فشيئا – ثم ان وجود الخزر عبر طرق التجارة بين الروس والبيزنطيين وفرضهم ١٠٪ ضريبة على السلع المتدفقة بازدياد مضطرد عبر بلادهم أثار غضب الخزانة البيزنطية والتجار المحاربين الروس على حد سواء ٠

وجاء تنازل البيزنطيين عن ميناء خرسون Cherson للروس دلالة على موقف البيزنطيين المتغير نحو حلفائهم السابقين – أجل لقد قضى البيزنطيون والخزر بضعة قرون فى مشاحنات وأحيانا فى مناوشات من أجل امتلاك ذلك المرفأ الهام فى شبه جزيرة القـرم ولكن حين احتل فالديمير خرسون فى سنة ٩٨٧ لم يحرك البيزنطيون ساكنا بل ولا مجرد الاحتجاج ذلك – على حد قول الأستاذ بيورى – لأن الضحية لم تكن باهظة الثمن على نحو بالغ مقابل سلم أبدى وصداقة دائمة مع الدولة الروسية التى كانت وقتئذ فى طريقها لتصبح قوة عظمى » ٠

وربما كانت التضحية بخرسون عملا له ما يبرره ولكن التضحية بالتحالف مع الخزر أثبتت على مر الزمن أنها كانت سياسة قصيرة النظر ٠

٤ السقوط

١ — حين تناولت العلاقات الروسية البيزنطية فى القرنين التاسع والعاشر استطعت أن أقتبس فى اسهاب من مصدرين أوردا الأحداث بالتفصيل وهذان المصدران هما : مؤلف قنسطنطين بشأن ادارة شئون الامبراطورية De Administrando Imperio والحولية الروسية الأساسية أما عن المواجهة الروسية الخزرية خلال الفترة نفسها والتى ننتقل الآن لتناولها فليس لدينا مادة عنها من مصادر مثيلة — ذلك لأن سجلات اتل ان كانت قد وجدت اطلاقا — قد ذهبت مع الريح ولزام علينا فى معالجة تاريخ المائة سنة الأخيرة فى حياة الامبراطورية الخزرية أن نرجع الى الاشارات العابرة المتفرقة الواردة فى الحوليات وكتب الجغرافية العربية المتنوعة ٠

وتمتد الفترة المذكورة من حوالى سنة ٨٦٢م وهى السنة التى احتل فيها الروس مدينة كييف الى حوالى سنة ٩٦٥م التى استباح فيها سفياتوسلاف مدينة اتل وتركها نهبا لرجاله — فبعد أن فقدت كييف وتقهقر المجريون الى المجر لم تعد الامارات الغربية السابقة خاضعة لامبراطورية الخزر (فيما عدا أجزاء من القرم) وأصبح فى وسع أمير كييف ودون عائق ما أن يدعو القبائل السلافية (الصقلبية) التى تقطن حوض الدنيبر بألا يدفعوا شيئا على الاطلاق الى الخزر (١) ٠

وربما كان الخزر على استعداد لتقبل ضياع سيطرتهم فى الغرب

ولكن كان هناك أيضا فى الوقت نفسه اعتداء روسى متزايد على الشرق الى أدنى الفولجا والى الاقاليم حول بحر قزوين ـ فقد كانت هذه البلاد الاسلامية المتاخمة للنصف الجنوبى «لبحر الخزر» (بحر قزوين) وهى ـ أذربيجان ـ جيلان ـ وشيروان ـ وطبارستان ـ وجورجان ، هدفا مغريا لأساطيل الفايكنج سواء للنهب والسلب أو بوصفها محطات تجارية لتبادل السلع مع الخلافة الاسلامية ـ الا أن الطرق المؤدية الى بحر قزوين عبر دلتا الفولجا ـ كانت تحت سيطرة الخزر مثلها مثل الطرق المؤدية الى البحر الأسود حين كان الخزر لا يزالون يحتفظون بمدينة كييف ـ وتعنى السيطرة أنه كان يتعين على الروس أن يلتمسوا من الخزر الاذن لمرور أى أسطول صغير من أساطيلهم وأن يدفعوا ١٠٪ رسوم الجمارك المقررة ـ وهو ما يعد أذى مزدوجا لكبريائهم ولجيوبهم على حد سواء ٠

وكانت هناك أحيانا تسوية مؤقتة Modus Vivendi محفوفة بالمخاطر حيث دفعت الأساطيل الروسية الصغيرة ما عليها من رسوم وتجولت فى بحر الخزر وتبادلت التجارة مع الشعوب التى تعيش حوله ، ولكن كثيرا ما غدت التجارة ـ كما رأينا ـ مرادفة للنهب والسلب ، فقد حدث ما بين سنة ٨٦٤ و٨٨٤ (٢) أن هاجمت حملة روسية ميناء أبا سكون فى طبارستان وكان نصيبها الهزيمة ٠ ولكن الروس أعادوا الكرة سنة ٩١٠ ونهبوا المدينة والريف حولها وأسروا عددا من المسلمين ليبيعوهم فى أسواق الرقيق ولابد أن هذا الحادث سبب متاعب خطيرة للخزر نظرا لعلاقاتهم الودية مع الخلافة وكذلك لوجود فرقة ضاربة من المرتزقة المسلمين فى جيشهم الدائم وبعد مضى ثلاث سنوات أى فى سنة ٩١٣ تأزمت الأمور بين الروس والخزر ونشب قتال بين الفريقين أريقت فيه دماء كثيرة ٠

وهذا الحادث الخطير ـ والذى سبق ذكره فى ايجاز (الفصل الثالث قسم ٣) وصفه باسهاب المؤرخ العربى المسعودى على حين ان الحولية الروسية لزمت الصمت ٠

يخبرنا المسعودى فى مؤلفه الرائع « مروج الذهب ومعادن الجوهر » أنه فى وقت ما بعد سنة ٣٠٠ هجرية (٩١٢ / ٩١٣م) كان يقترب من بلاد الخزر أسطول روسى مؤلف من خمسمائة سفينة على كل منها مائة بحار :

« فلما وصلت سفن الروس الى مخفر الحراس الخزر عند مدخل المضيق ٠٠٠٠ أرسلوا خطابا الى ملك الخزر طالبين الاذن لهم بالمرور عبر بلاده والنزول فى نهره حتى يدخلوا بحر الخزر ٠٠٠٠ على أن يعطوه نصف

ما سوف يحصلون عليه من غنائم من شعوب شاطىء البحر ـ وقد منحهم الملك الاذن المطلوب ٠٠٠٠ وهبطوا فى النهر الى مدينة اتل وبعد أن اخترقوها تقدموا الى مضبه في بحر الخزر ، والنهر عريض جدا من المصب الى مدينة اتل كما أن مياهه غزيره وانتشرت السفن الروسية فى كل أنحاء البحر وطرحت سراياها للقرصنة ضد جيلان وجورجان وطبارستان وأباسكون على شاطىء جورجان وبلاد النفاطه (باكو) واقليم اذربيجان ٠٠٠٠ وسفك الروس الدماء واستباحوا النساء والولدان وأخذوا الغنائم وشنوا الغارات وخربوا البلاد وأشعلوا الحرائق فى كل الجهات » (٢أ) ٠

وبلغ بهم الأمر أنهم استباحوا مدينة اردبيل فنهبوها وضربوها بعد مسيرة ثلاثة أيام داخل البلاد ـ وحين أفاق أهلها من الصدمة وزودوا أنفسهم بالأسلحة انسحب الروس وفق استراتيجيتهم التقليدية من الشاطىء الى الجزر القريبة من باكو ٠ وحاول الأهالى طردهم مستخدمين القوارب الصغيرة والسفن التجارية ٠

الا أن الروس هاجموهم وقتل وغرق آلاف من المسلمين وواصل الروس تجوالهم فى هذا البحر عدة أشهر ٠٠٠٠ فلما جمعوا قدرا كافيا من الغنائم وسئموا مما كانوا يفعلونه انطلقوا لمصب نهر الخزر وأخطروا ملك الخزر بذلك وحملوا اليه غنائم نفيسة طبقا للشروط التى اتفق معهم عليها ٠٠٠٠ وعلم بموقف الروس جماعة اللارشيه (وهم الجند المسلمون المرتزقة فى الجيش الخزرى) وغيرهم من مسلمى بلاد الخزر فقالوا للملك دعنا نتصرف مع هؤلاء القوم فقد أغاروا على أراضى المسلمين أشقائنا وسفكوا الدماء واستعبدوا النساء والأطفال ـ ولم يستطع الملك أن يخالفهم ولكنه أرسل الى الروس يخطرهم بعزم المسلمين على قتالهم ٠

واجتمع المسلمون (مسلمو بلاد الخزر) وخرجوا للبحث عن الروس. وتقدموا فى اتجاه مجرى النهر (برا من اتل الى مصب الفولجا) فلما أصبح الجيشان على مرمى بصر كل منهما للآخر ، نزل الروس من سفنهم. ونظموا صفوفهم استعدادا لقتال المسلمين الذين انضم اليهم عدد من مسيحيى اتل وبذلك كان مجموعهم خمسة عشر ألف رجل ومعهم خيلهم ومعداتهم ودام القتال ثلاثة أيام ونصر الله المسلمين حيث أعمل المسلمون السيف فى رقاب الروس فقتل بعضهم وغرق آخرون وبلغ عدد من قتلهم المسلمون على شاطىء نهر الخزر حوالى ثلاثين ألفا (٢ب) ٠

وهرب خمسة آلاف روسى ولكنهم لم ينجوا من القتل على يد رجال البورتا والبلغار ٠

هذه هى رواية المسعودى عن غزوة الروس المشئومة داخل بحر قزوين سنة ٩١٢/٩١٣ م ٠ وهى بطبيعة الحال رواية منحازة وفيها يبدو حاكم الخزر نذلا خداعا يقوم أولا بدور شريك سلبى للمغيرين الروس ثم يأذن بالهجوم عليهم ولكنه فى الوقت نفسه يخبرهم بالكمين الذى أعده لهم المسلمون تحت امرته ـ وذهب المسعودى الى القول بأن البلغار مسلمون على حين ان ابن فضلان الذى زار البلغار بعد ذلك بعشر سنوات يقرر بأنهم لم يتحولوا الى الاسلام بعد ـ ورغم أن رواية المسعودى يشوبها شىء من التحيز الدينى الا أنها تلقى نظرة خاطفة على المأزق أو بالأحرى المآزق الكثيرة التى واجهت رجال القيادة الخزرية ـ فربما لم ينزعج هؤلاء انزعاجا كبيرا للمحن التى أصابت الأقوام النازلة على شواطىء بحر قزوين حيث لم يكن العصر عصرا عاطفيا ولكن ترى ماذا يكون الموقف فيما لو أن الروس بعد فوزهم بالسيطرة على كييف والدنيبر قاموا بتأسيس قاعدة لهم على نهر الفولجا ؟ وفضلا عن ذلك فان غارة روسية ثانية سوف تثير سخط الخلافة لا على الروس أنفسهم حيث انهم خارج نطاق متناولها بل على الخزر الأبرياء أو بالأحرى الأبرياء تقريبا ٠

وكانت العلاقات مع الخلافة علاقات سلمية الا أنها رغم ذلك كانت غير مستقرة كما يتبين من حادثة رواها ابن فضلان فان غارة الروس التى وصفها المسعودى حدثت سنة ٩١٢/٩١٣ على حين كانت بعثة ابن فضلان الى ملك البلغار فى سنة ٩٢١/٩٢٢ وفيما يلى رواية ابن فضلان عن الحدث الذى نحن بصدده :

« للمسلمين فى هذه المدينة (اتل) مسجد يصلون فيه جماعة يوم الجمعة وله مئذنة عالية وعدد من المؤذنين ، ولما أبلغ ملك الخزر فى سنة ٣١٠هـ (٩٢٢م) أن المسلمين هدموا المعبد اليهودى فى دار البابونجى (وهو مكان غير محدد موقعه فى حى المسلمين) أصدر أوامره بهدم مئذنة المسجد وقتل المؤذنين وقال « لولا خوفى من أن كل معبد يهودى لن يترك قائما فى بلاد المسلمين بل سيدمر لأمرت بهدم المسجد أيضا » ٠

ويثبت هذا الحدث وجود احساس متبادل حريص على استراتيجية تحاشى الصراعات وأخطار تصاعدها كما أنه يبين مرة أخرى أن حكام الخزر شعروا أنهم مرتبطون عاطفيا بمصير اليهود فى أجزاء أخرى من العالم ٠

٢ ـ ويختم المسعودى روايته عن غارة الروس فى بحر قزوين بالعبارة التالية : « ولم يكرر الروس منذ تلك السنة هذا الحادث الذى

وصفناه » • ومن المصادفات أن المسعودى كتب ذلك فى نفس السنة (٩٤٣م) التى كرر الروس فيها غارتهم على بحر قزوين بل وبأسطول أكبر — ولكن ما كان فى وسع المسعودى أن يعلم ذلك — حيث تجنب الروس بعد كارثة سنة ٩١٣ ولمدة ثلاثين سنة هذا الجزء من العالم ثم شعروا الآن أنهم أصبحوا فعلا أقوياء يمكنهم أن يحاولوا الولوج اليه مرة أخرى وربما كان من الأمور التى لها مغزى أن محاولتهم هذه تزامنت فى مدى سنة أو سنتين مع حملتهم ضد البيزنطيين تلك الحملة التى قادها المغامر المتغطرس ايجور والتى قضت عليها النار الاغريقية •

وفي غضون هذه الغارة الجديدة كسب الروس قاعدة ثابتة لهم فى اقليم بحر قزوين فى بلدة باردا استطاعوا أن يحتفظوا بها لسنة كاملة ولكن حدث فى النهاية أن أصاب الطاعون الجند الروس وأمكن أهالى أذربيجان أن يطاردوا من نجا منهم • فولى هؤلاء الأدبار — ويلاحظ فى هذه المرة أن المصادر العربية لم تذكر أى دور للخزر سواء فى أعمال النهب أو فى القتال على حين يقرر الملك يوسف — فى خطابه الى حسداى والذى كتب بعد هذه الغارة ببضع سنوات :

اننى أحرس مصب النهر ولا أسمح للروس الذين يأتون فى سفنهم بغزو بلاد العرب ••• وانى أخوض حروبا ضارية معهم » (*) •

وسواء شارك الجيش الخزرى فى القتال فى هذه المناسبة أم لم يشترك فهناك الحقيقة الثابتة أنه بعد مضى سنوات قليلة قرر الخزر ألا يسمحوا للروس بالدخول الى « بحر الخزر » • وهكذا فابتداء من سنة ٩٤٣ فصاعدا لم نعد نسمع عن غارات روسية داخل بحر قزوين •

وهناك احتمال قوى على أن هذا القرار الخطير الذى حركته ضغوط داخلية من الجماعة الاسلامية المقيمة وسط الخزر ورط هؤلاء فى « حروب ضارية » مع الروس — ولعل هذه الحروب كانت أقرب الى المناوشات منها الى الحروب فيما عدا تلك الحملة التى شنها الروس سنة ٩٦٥ وورد ذكرها فى الحولية الروسية القديمة والتى أدت الى القضاء على امبراطورية الخزر •

(*) ورد فيما يعرف بالترجمة الطويلة للخطاب نفسه ، أن هناك عبارة قد تكون أو قد لا تكون أضيفت على يد ناسخ للخطاب وتقول هذه العبارة ما يلى على لسان الملك يوسف : « وانى اذا أذنت لهم ساعة واحدة فسوف يدمرون بلاد العرب حتى بغداد » ونظرا لأن الروس مكثوا فى بحر قزوين سنة كاملة لا ساعة واحدة فقط فان هذا التباهى هو مجرد كلام أجوف •

٣ ـ كان قائد هذه الحملة الأمير سفياتوسلاف Svyatoslav أمير كييف وابن ايجور وأولجا ـ ولقـــد علمنا من قبل أنه كان يتحرك بخفة كالنمر وأنه قام بحملات كثيرة ، والواقع انه قضى معظم حكمه فى حروب ـ ورفض ـ رغم توسلات أمه ـ أن يعمد « لأن التعميد سـيجعله موضع سـخرية شعبه » وتخبرنا الحولية الروسـية أيضـا أنه فى أثنـاء حملاته لم يصطحب معه عربات ولا أوانى للطهو ولم يسلق لحما ولكنه كان يقطع شرائح من لحم الخيل أو لحوم الصيد أو لحم البقر ويأكلها بعد شويها على الفحم ـ ولم تكن له خيمة وانما كان يفرش تحته حرام جواده ويتخذ من السرج وسادة له ، وحـذا حـذوه رجال حاشيته (٤) ، وكان حين يهاجم فلول العدو يكره أن يفعل ذلك سرا بل كان يرسل اليهم رسله مسبقا ليبلغهم عبارته : « انى قادم اليكم » .

وخصص كاتب الحولية الروسية أسطرا قليلة للحملة ضد الخزر كتبها فى ذلك الأســلوب الموجز الذى يروى به أخبـار الصراعات المسلحة :

« مضى سفياتوسلاف الى الأوكا والفولجا وعنـد اتصـاله بقوم الفياتشيان (وهـم قبيلة سـلافية كانت تقطن الاقليم الواقع جنـوب موسكو الحديثة) سألهم لمن يدفعون الجزية فأجابوا بأنهـم يدفعون للخزر قطعة من الفضة عن كل شفرة محراث ـ فلما علم الخزر بقدومه خرجوا مع أميرهم الخاقان ليخوضوا غمار الحرب ضده وتقاتل الجيشان وهكذا احتدمت المعركة وهزم سفياتوسلاف الخزر واستولى على مدينتهم بيبلافيزا (٤ أ) Biela Viezha .

وبيبلا فيزا ـ أى القلعة البيضاء ـ هو الاسم السلافى لمدينة ساركل مقر القلعة الخزرية الشهيرة على نهر الدون ـ ولكن يجدر ملاحظة أن تدمير اتل العاصمة لم يرد له ذكر فى الحولية الروسية وســوف نعود لهذا الموضوع فيما بعد .

وتواصل الحولية الروسية روايتها فتذكر ان سفياتوســلاف قهر أيضا أقوام الياشيين Yasians والكاروجيين Karugians (الأوستيان والشركس) وهزم بلغار الدانوب ولكنه هزم على يد البيزنطيين ـ وقتلته جماعة من البشنج « وهو فى طريق عـودته الى كييف فقطعوا رأسـه واتخذوا من جمجمتـه كأسا كسوها بطبقة من الذهب وشربوا منهـا (٥) .

واعتبر عدد من المؤرخين انتصار سفياتوســلاف على الخزر أنه نهاية دولتهم وهذا كمـا سنرى رأى خاطىء بالدليـل القاطع ـ أجـل

ان تدمير ساركل سنة ٩٦٥ أومأ الى نهاية الامبراطورية الخزرية ، لا نهاية دولة الخزر ـ كما أومأت سنة ١٩١٨ الى نهاية امبراطورية النمسا والمجر لا الى نهـاية النمســا بوصفها أمة ـ نعم لقـد انتهت نهاية لا لبس فيها سيطرة الخزر على القبـائل الصقلبية النـائية ولكن بقى قلب بلاد الخزر سليما أعنى الأراضي الممتدة بين القوقاز والدون والفولجا ـ وظلت الطرق المؤدية الى بحر قزوين مغلقة في وجه الروس ومن ثم فانا لا نسمع عن أية محاولة أخرى من جانبهم لشق طريقهم اليه بالقوة ، وكما يقول توينبى في تعليقه اللماح « لقد نجح الروس فى القضاء على امبراطورية !سهوب الخزرية ولكن كان الاقليم الخزرى الوحيــد الذى كسبوه هو اقليم « تموتوراكان » الواقع فى شبه جزيرة تامان (المواجهة للقرم) وكان هـذا الكسب سريع الزوال والواقع أن المسكوبين (الروس) لم يحققوا فتوحات دائمة لصالح روسيا قبل منتصف القرن السادس عشر حين شملت فتوحاتهم نهر الفولجا ٠٠ حتى مصبه فى بحر قزوين » (٦) ٠

٤ ـ وبعد موت سفياتوسلاف نشبت حرب أهلية بين أولاده انتصر فيها أصغرهم فالديمير وكان هو أيضا قد بدأ حياته وثنيا كأبيه لكنه ـ مثل جدته أولجا ـ انتهى كآثم نادم وقبل التعميد ثم ضـم فى آخـر الامر الى قائمة القديسين ، الا أن القديس فالديمير يبدو أنه فى شبابه اتبع شعار القديس أوجسطين : « يارب امنحنى العفة ولكن ليس الآن » ٠ ويلاحظ أن الحولية الروســية قاسية نوعـا ما بشـأن هذا الموضوع ، فتقول عنه :

تغلب على فالديمير شوق شديد للمرأة فكان له ثلثمائة محظيــة فى فيشجوردو وثلثمائة فى بلجوروود ومائتــان فى برستوفو وكان غارقا فى الرذائل حتى أنه غوى نساء متزوجات واغتصب فتيات صغيرات فقد كان فاسقا مثل سليمان اذ يقال انه كان لسليمان سبعمائة زوجة وثلثمائة محظية وكان حكيما الا أنه هلك فى النهاية (*) ، أما فالديمير فمع أنه خدع فى البداية الا أنه لقى الخلاص فى آخر الأمر ـ العظمة لله والعظمة لقدرته وليس هناك حد لحكمته » (٧) ٠

(★) تلك صورة سليمان فى التوراة (سفر الملوك الأول ـ الاصحاح ١١ : ٣) وهى أبعد ما تكون عن كرامة الأنبياء وقدسية سيرتهم وعصمة سلوكهم الذى ترعاه السماء ولكنها العقلية اليهودية ٠٠٠٠ وان كان عذرها الواضح انها تناولت سيرته كملك ولم تتعرض للحديث عن نبوته وعلى كل حال ٠٠ مازالت بقاياه فى القدس تمثل مبكى شعب اسرائيل حتى اليوم ،يقفون على حائطه يذرفون دموع التماسيح ندما على ما فرطوا فى حق الله » ـ عن كتاب الأستاذ محمــــد عبد الرحمن عبد اللطيف : « وعد الله ليس لبنى اسرائيل » ص ٧٧ ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧١ (المترجم) ٠

لم يكن لتعميد أولجا سنة ٩٥٧ أثر حتى على ابنها – على حين أن تعميد فالديمير سنة ٩٨٩ كان حادثا خطيرا ترك أثره الخالد على تاريخ العـــالم .

وقد سبقه سلسلة من المناورات الدبلوماسية والمناقشات اللاهوتية مع ممثلى أربع ديانات كبرى الأمر الذى يعكس صـــورة للمناقشات التى دارت قبل تحول الخزر الى اليهودية – والواقع ان رواية الحولية الروسية القديمة لهذه المجادلات اللاهوتية تذكر المرء دائمـــا بالروايات العبرية والعربية عن مجموعة الخبراء الذين سبق أن اســـتدعاهم الملك بولان – وكان الفارق الوحيد هو تباين النتيجة .

فقد كان هناك فى هذه المرة أربعة متنافسين بدلا من ثلاثة – ذلك لأن الانشقاق بين الكنيسة الاغريقية (الرومية) والكنيسة اللاتينية كان قد أصبح حقيقة واقعة فى القرن التاسع الميلادى (وان لم يصبح رسميا الا فى القرن الحادى عشر) .

ويلاحظ أن رواية الحولية الروسية عن اعتناق فالديمير دينا جديدا تبدأ بذكر انتصـــار حققه ضـــد بلغار الفولجا تلاه ابرام معاهدة صداقة معهم وأعلن البلغار من جانبهم : « نرجو أن يسود السلام بيننا حتى يطفو الحجر ويغوص القش » – وعاد فالديمير الى كييف وأرسل اليه البلغار بعثة من أهلها المسلمين كى يهدوه الى دينهـــم فوصف له هؤلاء مباهج الجنة حيث لكل رجل سبعون حورية ، واستمع اليهم فالديمير فى استحسان ولكنهم لما أخبروه بضرورة الامتناع عن أكل لحـــم الخنزير وعن شرب الخمر وضع حدا فاصلا فقال لهم « ان شرب الخمر هو مصدر ابتهـــاج الروس ولا يمكننا العيش دون تلك المتعة » (٨) .

ثم جاء وفد ألمانى من الروم الكاثوليك أى أتباع المذهب اللاتينى . ولم يكن حظهم أفضل ممن سبقهم حين عرضوا على فالديمير متطلبات دينهم الا وهو الصوم حسب قدرة المرء فقال لهم فالديمير « فلتنصرفوا من هنا – ان آباءنا لم يقبلوا معتقدات من هذا النوع (٩) .

وتألفت البعثة الثالثة من خزر يهود فكانوا أسوأ حظا حيث سألهم فالديمير لماذا لم يعودوا يحكمون القدس « فأجابوا لقد كان الله غاضبا على أجدادنا فشتتنا بين الأمميين بسبب ما ارتكبناه من آثام فسألهم الأمير : كيف تأملون أن تعلموا غيركم على حين أنكم أنفسكم مطرودون مشتتون فى الخارج بأمر الله – ترى هل تتوقعون أن نقبل هذا المصير أيضا ؟

وكانت البعثة الرابعة والأخيرة مؤلفة من عالم واحـــد أرسله روم بيزنطة فبدأ حديثه بهجوم عنيف على المسلمين ونعتهم بالملعونين دون

الناس جميعا سل سدوم وعمورة اللتين أسقط الله عليهما الحجارة المشتعله ودفنهما وغمرهما بالماء لانغماسهما في الرذيلة ٠٠ ذلك لأنهم (يقصد المسلمين) يندون غائطهم ويتمضمضون بالماء ويخضلون لحاهم به ـ فلما سمع فالديمير هذه الروايات بصق على الأرض قائلا : « هذا شيء لا يروقني » (١٠) ٠

ثم راح العالم البيزنطي يتهم اليهود بأنهم صلبوا المسيح كما هاجم الكاثوليك في عبارات أقل عنفا بأنهم عدلوا الشعائر الدينية وبعد هذه الأحاديث التمهيدية أخذ العالم يشرح في اسهاب العهد القديم والعهد الجديد بدءا من خلق العالم ـ ومع أن فالديمير بدا في نهاية الحديث شبه مقتنع الا أنه عندما ألح عليه العالم على تعميده أجاب « سأنتظر بعض الوقت » ٠

ثم بعث الأمير رسله « عشرة حكماء أفاضل » الى بلاد مختلفة كي يراقبوا ممارسات أهلها شعائرهم الدينية ـ وبعد أن عادت لجنة تقصي الحقائق هذه من مهمتها قرر أعضاؤها في تقريرهم الى الأمير « أن الطقوس الدينية البيزنطية هي أفضل من طقوس شعوب أخرى فانا لم نعرف ان كنا في الجنة أو اننا فوق الأرض » ٠

الا أن فالديمير ظل مترددا ٠ وتواصل الحولية روايتها لتنتهي الى استنتاج لا يتفق مع المقدمات :

« بعد أن مضت سنة أى في سنة ٩٨٨ تقدم فالديمير بقوة عسكرية ضد خرسون Cherson ـ وهي مدينة اغريقية (بيزنطية) (١١) (نذكر أن السيطرة على هذا الميناء الهام في القرم كانت موضع صراع طويل بين البيزنطيين والخزر) ورفض الخرسونيون الشجعان الاستسلام وأقام جند فالديمير سدودا ترابية في مواجهة أسوار المدينة ولكن حفر الخرسونيون نفقا تحت سور المدينة وسرقوا أكوام التراب ونقلوها الى داخل المدينة حيث جمعوها في أكوام من جديد ـ الا أن خائنا صوب سهما نحو المعسكر الروسي يحمل رسالة قال فيها « هناك خلفكم الى الشرق ينابيع تتدفق منها المياه في أنابيب ـ احفروا الأرض واقطعوا هذه الأنابيب ، فلما تلقى فالديمير هذه المعلومات رفع بصره الى السماء وأقسم أنه اذا تحقق هذا الأمل فسوف يقبل التعميد (١٢) ٠

ونجح في قطع مورد المياه واستسلمت خرسون وعندئذ أرسل رسالة الى كل من الامبراطور بازل والامبراطور قنسطنطين شريكه في الحكم وواضح أنه تناسى قسمه السابق فقال في رسالته : لقد

استبوليت على مدينتكم الرائعة ـ وكذلك علمت أن لكم شقيقة لم تتزوج بعد ـ فاذا لم تعطوها لى لأتزوجها فسأتصرف مع مدينتكم الخاصة بكم كما تصرفت مع خرسون » .

ورد الامبراطوران عليه قائلين « اذا عمدت فستكون لك زوجة وسوف ترث مملكة الرب وسوف تكون زميلا لنا فى الدين » .

وحدث ان فالديمير قبل أخيرا أن يعمد وتزوج الأميرة البيزنطية أنا وبعد ذلك بسنوات قليلة أصبحت المسيحية الرومية الدين الرسمي لا للحكام وحدهم بل للشعب الروسى أيضا ، وهكذا صارت الكنيسة الروسية منذ سنة ١٠٣٧ خاضعة لنفوذ بطريرك القسطنطينية .

٥ ـ لقد كان هذا الحدث انتصارا هاما للدبلوماسية البيزنطية ويعتبره فرنادسكى Vernadsky أحد تلك المنعطفات الغير منوقعة التى تجعل دراسة التاريخ جد ساحرة .. ومن الممتع أن ننعم النظر فيما كان من الممكن أن يؤول اليه مجرى التاريخ لو أن الأمراء الروس اعتنقوا احدى الديانتين الأخريين اليهودية أو الاسلام بدلا من المسيحية .. أجل ان اعتناق هذه الديانة أو تلك كان لابد أن يقرر بالضرورة مستقبل التطور الثقافى والسياسى فى روسيا فان اعتناق الاسلام من شأنه أن يجذب روسيا الى دائرة الثقافة العربية أعنى ثقافة آسيوية مصرية ـ أما اعتناق مسيحية روما على يد الألمان فمن شأنه أن يجعل روسيا بلدا ثقافته لاتينية أو أوربية ـ على حين أن اعتناق اليهودية أو المسيحية الأرثوذكسية يضمن لروسيا استقلالا ثقافيا عن كل من أوربا وآسيا (١٣) .

الا أن الروس احتاجوا الى حلفاء أكثر مما احتاجوا الى الاستقلال ، وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية ـ رغم فسادها ـ لا تزال حليفة مرغوبا فيها من حيث القوة والثقافة والتجارة وتفضل امبراطورية الخزر المنهارة ـ كذلك لزام على المرء ألا يقلل من شأن الدور الذى لعبته الحنكة السياسية البيزنطية فى استصدار القرار الذى سعت من أجله لمدة تزيد على قرن ـ أجل ان الرواية الساذجة الواردة فى الحولية الروسية عن فالديمير ولعبة مماطلاته فى قبول التعميد لا تتيح لنا معرفة المناورات الدبلوماسية والممارسات العسيرة التى لا مراء فى أنها حدثت قبل أن يقبل التعميد ، وبذلك قبل فى الواقع الوصاية البيزنطية على نفسه وعلى شعبه وواضح أن خرسون كانت جزءا من الثمن ـ وكذلك كان الزواج الأسرى بالأميرة أنا ولكن كان أهم جزء فى الصفقة هو نهاية التحالف البيزنطى الخزرى ضد الروس واحلال تحالف بيزنطى روسى

بدلا منه وبعد سنوات قليلة غزا جيش مشترك من البيزنطيين والروس خزاريا سنة ١٠١٦ م وهزموا حاكمها وأخضعوا البلاد (بلاد الخزر) ـ (انظر الفصل الرابع قسم ٨ فيما بعد) .

بل ان الاحساس الفاتر نحو الخزر كان قد بدأ فعلا ـ كما رأينا ـ فى أيام قنسطنطين بورفيروجينتوس ـ أى قبل تحويل فالديمير الى المسيحية بخمسين سنة ونعيد الى الذاكرة تساؤلات قنسطنطين عن « كيف يمكن اشعال الحرب فى بلاد الخزر ومن الذى يشنها » وتواصل الفقرة التى سبق اقتباسها (الفصل الثانى قسم ٧ أعلاه) حديثها فتقول : « ان حاكم آلانيا غير حريص على حفظ السلم مع الخزر بل انه يعتبر صداقته مع امبراطور الرومان أهم وأفيد له وعلى هذا فاذا لم يختر الخزر المحافظة على الصداقة والسلام مع الامبراطور فان حاكم الآلان يستطيع أن يلحق بهم أذى كبيرا حيث فى وسعه أن ينصب لهم الكمائن فى طرقهم وأن يهاجمهم على غرة فى طريقهم المؤدى الى ساركل والى « الأقاليم التسعة » والى خرسون .. وفضلا عن ذلك فان بلغاريا السوداء (بلغار انفولجا) فى مركز يسمح لها بشن الحرب ضد الخزر (١٤) .

وبعد أن يقتبس الأستاذ توينبى هذه الفقرة يعلق عليها تعليقا مؤثرا :

« لو أن هذه الفقرة ـ الواردة فى الدليل الذى ألفه قنسطنطين بورفيروجيننوس عن ادارة العلاقات الخارجية فى حكومة الامبراطورية ـ نقول لو ان هذه الفقرة وقعت فى أيدى خاقان الخزر ووزرائه لأثارت سخطهم ـ ولأعلنوا على الملأ أن بلادهم فى هذه الأيام كانت من أهدأ بلاد العالم وأشدها حبا للسلام وأنها اذا كانت فى أيامها الأولى أكثر ولعا بالحرب فان أسلحتها لم توجه قط ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية ، والواقع انه لم يحدث اطلاقا بين هاتين الدولتين أن حاربت احداهما الأخرى بينما ـ من ناحية ثانية ـ كثيرا ما كانت بلاد الخزر فى حرب ضد أعداء الامبراطورية الرومانية الشرقية الأمر الذى كان لصالح الامبراطورية على نحو بارز ، حقا ان الامبراطورية تدين للخزر بفضل بقائها قائمة بعد الهجمات المتتالية التى شنها عليها الامبراطور الفارسى الساسانى خسرو الثانى برويز والعرب المسلمون .. ومن ذلك الحين فصاعدا ، فان شدة مقاومة الخزر الدفاعية والهجومية ضد تقدم العرب نحو القوقاز هى التى أنقذت الامبراطورية من انقضاض العرب عليها . ثم ان الصداقة بين الخزر والامبراطورية كان قد رمز اليها وضمنها تحالفان قاما على عقد زيجتين بين أسرتى كلتا الامبراطوريتين ـ ترى ماذا كان يدور فى ذهن

قنسطنطين بعــــدئذ حين راح يفكر فى وســـائل لايذاء بلاد الخزر بحث جيرانها على مهاجمتها (١٥) ؟ ٠

ان الاجابة على سؤال توينبى البليغ تكمن بلا مراء فى أن البيزنطيين كانوا مدفوعين بالســـياسة الواقعيــة Realpolitik (تلك المبنية على عوامل عملية ومادية لا على عوامل نظرية أو أخلاقية) وأن عصرهم لم يكن ـ كما ذكر من قبل ـ عصرا عاطفيا ـ وكذلك ليس حال عصرنا ٠

٦ ـ ومع ذلك ثبت فى النهاية أنها كانت سياسة قصيرة النظر ـ ولنعد الى بيوزى مرة أخرى حيث يقول :

« كان المبدأ الأول للسياسة الامبراطورية فى هذا الجزء من العالم هو المحافظــة على الســلام مع الخزر ـ وكان هذا نتيجة مباشرة للمركز الجغرافى الذى تشغله امبراطورية الخزر بوصــــفها واقعة بين الدنيبر والقوقاز وكانت هذه هى الســياسة الثابتة التى واصل الأباطرة اتباعها من القــرن السابع حين طلب هرقل مســاعدة الخزر له ضــد فارس الى القرن العاشر الذى اضمحلت فيه سلطة اتل (عاصمة الخزر) وكان من صالح الامبراطورية الرومانية الشرقية أن يمارس الشاجان (الخاقان) « سيطرة فعالة » على جيرانه البرابرة (١٦) ٠

هذه السيطرة الفعالة تقــرر الآن أن تنتقــل من خاقان الخزر الى خاقان الروس أى الى أمــير كييف ولكن هذا فشـــل فى مهمته ، فقد كان الخزر قبيلة تركية من سكان السهوب واستطاعوا من قبــل أن يصدوا موجات الغزاة الأتراك والعرب واحدة بعد أخرى وأن يقاوموا ويخضعوا شعوب البلغار والبورتا والبشنج والغز وغيرهم ولم يكن الروس ورعاياهم السلاف أندادا لمحاربى السهوب الرحل ولاستراتيجيتهم المتنقلة ولتكتيكهم الذى هو تكتيك حرب العصابات (*) ونتيجة لضغط البدو المستمر انتقلت مراكز السلطة الروسية شيئا فشيئا من الســهوب الجنوبية الى اقليم الغابات فى الشمال ، الى امارات غاليسيا ونوفجورود وموســـكو وظن البيزنطيون أن كييف ســوف تحل محل اتل وتقــوم بدورها فتكون هى حارس أوربا الشرقية ومركز التجارة ـ ولكن بدلا من ذلك سارت كييف الى اضمحلال سريع كان نهاية الفصل الأول من التاريــخ الروسى تبعته فترة من الفوضى حيث شنت اثنتا عشرة امارة مستقلة حروبا لا نهاية لها كل منها ضد الأخرى ٠

(*) وتصف « أنشودة جيش ايجور » ـ وهى أروع ملحمة روسية شعبية لهـــذه الفترة ـ تصف احدى الحملات العسكرية المشئومة التى شنها الروس ضد الغز ٠

وقد خلق هذا الوضع فراغا فى القوى تدفقت اليه موجة بعد أخرى من البدو الفاتحين أو بالأحرى فرع جديد لأصدقائنا القدامى : الغز الذين وجدهم ابن فضلان أبغض من القبائل البربرية الأخرى التى اضطر الى زيارتها ـ وهؤلاء (الأعداء الوثنيون الذين لا اله لهم) ـ كما تصفهم الحولية ـ كانوا يعرفون باسم بولوفتسى عند الروس ، والكومان عند البيزنطيين ، والكون عند المجريين ، والكبشاك عند زملائهم الأتراك ـ وقد حكموا السهوب حتى بلاد المجر وذلك من أواخر القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر (حين حل عليهم الدور وسحقتهم غارة المغول) (*) وخاضوا أيضا عدة حروب ضد البيزنطيين . وسحق فرع آخر من الغز وهم السلاجقة (نسبة الى أسرتهم الحاكمة المسماة بهذا الاسم) تحت امرة ألب ارسلان جيشا بيزنطيا ضخما فى معركة ملاذكرد الحاسمة سنة ١٠٧١ وأسروا الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينز (**) ومن الآن فصاعدا عجز البيزنطيون عن أن يحولوا دون فوز الأتراك بالسيطرة على معظم ولايات آسيا الصغرى ـ تركيا الحديثة ـ تلك التى كانت من قبل تشكل قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية .

ولا يسع المرء الا أن يسأل نفسه تـرى هل كان التاريخ سيتخذ مسارا مختلفا لو لم تتخل بيزنطة عن سياستها التقليدية التى حافظت عليها طيلة القرون الثلاثة السابقة والقائمة على الاعتماد على الخزر بوصفهم القلعة الحصينة ضد الغزاة المسلمين والأتراك والفايكنج . ومهما يكن من شيء فقد أثبتت السياسة الامبراطورية الواقعية فى النهاية أنها لم تكن واقعية تماما .

٧ ـ وفى أثناء حكم الكومان الذى دام قرنين وتلاه غزو المغول غاصت السهوب الشرقية مرة أخرى فى العصور المظلمة ومن ثم فان الجزء الأخير من تاريخ الخزر يكتنفه غموض أشد من غموض أصلهم

ويلاحظ أن الاشارات الى دولة الخزر فى فترة اضمحلالها النهائى وردت أساسا فى المصادر الاسلامية ولكن هذه ـ كما سنرى ـ شديدة الغموض بحيث يكاد يكون كل اسم وكل تاريخ وكل موقع جغرافى عرضة لتفسيرات مختلفة وهكذا لا يجد المؤرخون المتعطشون للحقائق شيئا يشفى غليلهم .

(*) منح أحد الفروع الأساسية من شعب الكومان بعد فراره من المغول حق اللجوء الى المجر فى سنة ١٣٤١ ولا يزال لفظ كون Kun لقبا كثير الاستعمال فى المجر .

(**) أظهر الب أرسلان فى ساعة النصر كل سماحة واعتدال فعامل الامبراطور الأسير بما يليق بمقامه من الاحترام . (المترجم)

وفى ضوء ما ذكر من قبل يبدو أن الحادث الحاسم الذى عجل باضمحلال سلطة الخزر لم يكن انتصار سفياتوسلاف بل تحول فالديمير الى المسيحية ـ ترى الى أى حد كان ذلك الانتصار حدثا هاما فى الواقع ـ حيث اعتاد مؤرخو القرن التاسع عشر اعتباره معادلا لنهاية الدولة الخزرية (*) ونذكر أن الحولية الروسية تذكر فقط تدمير ساركل لا تدمير اتل العاصمة ونعلم من المصادر العربية المختلفة ان اتل نهبت وخربت فعلا وكررت الاشارة الى ذلك على نحو لا يمكن تجاهل هذه الحقيقة بيد أنها لا توضح متى وعلى يد من حدث هذا النهب ـ ويقول ابن حوقل وهو المصدر الأساسى ـ ان هذا كان من عمل الروس فهم الذين « دمروا تماما » خزران وسمندار واتل » ـ معتقدا كما هو واضح ـ ان خزران واتل مدينتان مختلفتان على حين اننا نعرف انهما مدينة واحدة توأم • كما أن تأريخه للحادث يختلف عن التأريخ الذى أوردته الحولية الروسية عن سقوط ساركل التى لا يذكرها ابن حوقل اطلاقا كما أن الحولية لا تذكر تدمير اتل ـ وعلى ذلك رأى الأستاذ ماركار Marquart أن اتل لم ينهبها روس سفياتوسلاف الذين لم يتعدوا فى غاراتهم ساركل بل نهبتها موجة شديدة من غزاة الفايكنج ـ وزيادة فى تعقيد الموضوع يقول ابن مسكويه وهو المصدر العربى الثانى ـ ان جماعة من «الأتراك» نزلت فى بلاد الخزر فى سنة ٩٦٥ الحاسمة ـ ولعله عندما ذكر لفظ « الأتراك » قصد الروس على حد رأى الأستاذ بارتولد Barthold • بيد أنه من الجائز أن هذه الجماعة كانت من البشنج الغزاة مثلا ـ وهكذا يبدو أننا لن نعرف قط من الذى دمر اتل مهما طال بنا البحث •

ترى الى أى مدى جسيم دمرت اتل ؟ ان ابن حوقل وهو المصدر الرئيسى يتحدث أولا عن « التدمير التام » لمدينة اتل ، الا أنه يقول أيضا فيما كتبه بعد ذلك بسنوات ان « خزران » لا تزال المركز الذى تتجمع فيه تجارة الروس » ـ وهكذا لعل تعبير « التدمير التام » كان منطويا على مبالغة • وهذا هو الأرجح لأن ابن حوقل يتحدث أيضا عن « التدمير التام » لمدينة بلغار عاصمة بلغار الفولجا فى حين ان ما أنزله الروس من ضرر بمدينة بلغار لم يكن بالغ الخطورة حيث لدينا عملات ضربت هناك فى سنة ٩٦٦ ـ ٩٦٧ أى بعد عشر سنوات فقط من غارة سفياتوسلاف كما أن مدينة بلغار كانت فى القرن الثالث عشر لا تزال مدينة هامة ويعبر الأستاذ دانلوب عن ذلك بقوله :

(*) وذلك تمشيا مع رأى سرحه المؤرخ فرايهن Fraehn فى سنة ١٨٢٢ فى « تقارير الأكاديمية الروسية » •

لاشك فى أن ابن حوقل هو المصدر الرئيسي لكل الروايات القائلة بأن الروس هم الذين دمروا بلاد الخزر فى القرن العاشر الا أن ابن حوقل يتحدث بنفس الأسلوب القاطع عن تدمير مدينة بلغار على الفولجا الأوسط۔ فى حين أنه من المؤكد تماما أن مدينة بلغار كانت مجتمعا مزدهرا وقت غارات المغول فى القرن الثالث عشر ـ ترى هل كان دمار بلاد الخزر مؤقتا أيضا ؟ (١٧) ، واضح أنه كان كذلك فان اتل الخزرية وغيرها من مدن الخزر تألفت فى الأغلب من خيام ودور خشبية « وبيوت مستديرة » مبنية من الطين كان من اليسير تدميرها ومن اليسير اعادة بنائها ـ واقتصرت المبانى المشيدة من الآجر على المبانى الملكية والعامة ٠

ومع ذلك لابد أن الضرر كان جسيما حيث يحدثنا عدد من الحوليين العرب عن هجرة السكان هجرة مؤقتة الى شاطىء بحر قزوين أو الى الجزر فمثلا يقول ابن حوقل ان خزر اتل هربوا من الروس الى احدى جزر ساحل النفط (باكو) ولكنهم عادوا فيما بعد الى اتل وخزران بمعونة شاه شروان المسلم ـ ويبدو هذا معقولا لأن شعب شروان لم يكن أية مودة للروس الذين نهبوا سواحلهم من قبل ـ وبعد عصر ابن حوقل كتب مؤرخان عربيان آخران من مؤرخى الحوليات هما ابن مسكويه والدمشقى وتحدثا عن خروج الخزر وعودتهم بمساعدة اسلاميه فيقول ابن مسكويه انه ثمنا لهذه المساعدة اعتنق جميعهم الاسلام فيما عدا الملك وللمقدسى رواية أخرى فهو لا يشير الى غزوة الروس بل يكتفى بالقول ان أهل المدينة الخزرية هبطوا الى البحر ثم عادوا وقد اعتنقوا الاسلام ـ وتتبين درجة الاعتماد على مصداقيته من حقيقة وصفه لمدينة بلغار حيث يقول انها أقرب الى بحر قزوين من اتل ـ ومثله فى ذلك مثل من يضع جلاسجو الى جنوب لندن (*) ٠

ورغم ما يشوب طبيعة هذه الروايات من تنافر وتحيز على نحو بالغ الوضوح الا أنها ربما تحوى بعض الحقيقة ـ ولعل الصدمة السيكولوجية الناتجة من الغزو ثم الفرار الى البحر وضرورة الحصول على مساعدة اسلامية ، لعل كل هذا أدى الى صفقة من نوع ما جعلت للمجتمع الاسلامى فى بلاد الخزر الكلمة العليا فى أمور الدولة ونذكر صفقة مماثلة عقدت قبل ذلك بقرنين مع مروان (الفصل الأول القسم ٧) شملت الخاقان نفسه ولكنها لم تترك أثرا فى التاريخ الخزرى ٠

(*) الا أن بارتولد يعتبر المقدسى واحدا من أكبر الجغرافيين فى كل العصور (١٨) ٠

وطبقا لمصدر عربي آخر أيضا ــ وهو البيروني المتوفى سنة ١٠٤٨ ، فان اتل كانت في أيامه خرابا يبابا أو بالأحرى كانت خرابا يبابا مرة أخرى (١٩) ثم أعيد بناؤها الا أنها غدت منذ ذلك الوقت فصاعدا تعرف باســم ساكســين Saksin وتكرر ذكرها في الحوليات حتى في القرن الثـالث عشر فوصفت بانها مدينة كبيرة على نهر الفولجا لا تبزها أية مدينة أخرى في تركستان (٢٠) ثم يقول أحد المصادر انها سقطت في آخر الأمر فريسة للفيضانات ــ وفي حوالى منتصف القرن الثالث عشر بنى الحاكم المغولى باتو (حفيد جنكيزخان) عاصمته في مكانها (٢١) .

وتلخيصا لما جاء في الحولية الروسية وما ذكرته لنا المصادر العربية عن كارثة سنة ٩٦٥ نستطيع القول ان اتل دمرت تدميرا لا يعرف مداه على يد الروس أو على يد غزاة آخرين ولكن أعيد بناؤها أكثر من مرة وأن الدولة الخزرية خرجت من هذه المحنة ضعيفة الى حد بعيد ولكن يمكن أن يكون هناك قدر ضئيل من الشك في أنها ــ داخل حدودها المنكمشة ــ استطاعت البقاء لقرنين آخرين أى الى منتصف القــرن الثاني عشر ــ بل ربما امتد بقاؤها ــ وان كان الشك أكبر في هذه الحالة ــ الى منتصف القرن الثالث عشر .

٨ ــ ويبدو أن أول اشارة وردت في مصادر غير عربية عن بلاد الخزر بعد سنة ٩٦٥ المشئومة جاءت في تقرير رحلة لابراهيم بن يعقوب السفير الأسباني اليهودى الذى أوفد الى الامبراطور الروماني أتو العظيم وقد كتبه على ما يرجح في سنة ٩٧٣ وفيه يصف الخزر أنهم لا يزالون مزدهرين في عصره ــ ويلى هذا التقرير من حيث الترتيب الزمني الرواية الواردة في الحولية الروسية عن وصول يهود من بلاد الخزر الى كييف سنة ٩٨٦ في محاولتهم الفاشلة لتحويل فالديمير الى دينهم .

وعندما نلج القرن الحادى عشر نقرأ أولا عن حملة سنة ١٠١٦ المشتركة بين البيزنطيين والروس ضد مملكة الخزر والتي هزمت فيها هذه البلاد مرة أخرى وقد روى أخبار هذه الحملة مصدر موثوق به تماما وهو الحولى سيدرينس (٢٣) Cedrenus الذى عاش في القــرن الثاني عشر وواضح أن الأمر كان يتطلب جيشا ضـــخما حيث يتحدث سيدرينس عن أسطول بيزنطي يعــاونه جيش من الروس وقد اتصــف الخزر بصفات عفريت القمقم النابعة من أصلهم التركي أو من دينهــم الموسوى أو من كليهما ــ ويضيف سيدرينس ان قائد الغزر المهزوم كان يدعى جورجيوس ومعروف ان جورجيوس هو اسم مسيحي ــ كما نعرف من تقرير سابق أن الجيش الخزرى ضم جندا مسيحيين ومسلمين .

وجاء ذكر الخزر بعد ذلك فى فقرة موجزة فى الحولية الروسية حيث تقول أن (الأمير) متسلاف زحف ضد أخيه (الأمير) ياروسلاف بجيش من الخزر والكوسوجيين (*) وكان متسلاف وقتئذ حاكم امارة لم تعمر طويلا اسمها تموتوزاكان وتتمركز في المدينة الخزرية تماتارخا (وتسمى حاليا تامان) على الجانب الشرقى من مضايق كيرش وكانت هذه ـ كما ذكر من قبل البقعة الخزرية الوحيدة التى احتلها الروس بعد انتصارهم سنة ١٩٦٥ ـ وهكذا يحتمل أن الخزر الذين احتواهم جيش متسلاف قد جندهم الأمير الروسى من بين السكان المحليين .

ويروى أنه بعد مضى سبع سنوات أى فى سنة ١٠٣٠ هزم جيش خزرى جيشا كرديا غازيا وقتل عشرة آلاف من رجاله واستولى على معداتهم وهذا دليل آخر على أن الخزر كانوا لا يزالون مفعمين بالحيوية قادرين على ضرب أعدائهم ـ وذلك اذا جاز لنا قبول هذه الرواية على علاتها حيث انها وردت فى مصدر واحد عربى ينتمى الى القرن الثانى عشر الا وهو ابن الأثير .

واذ نتابع على مهل جدول تسلسلنا الزمنى تلهفا الى التقاط ما ترك من قدر ضئيل من دلائل نستشهد بها على الأحداث تصادفنا قصة غريبة عن قس مسيحى مغمور يدعى يوسترتيوس Eustratius اتضح أنه كان فى حوالى سنة ١١٠٠ م أسيرا فى خرسون بالقرم وقد أساء معاملته « سيده اليهودى » الذى أجبره على تناول الطعام الشعائرى لعيد الفصح (٢٤) ـ وليس للمرء أن يعول كثيرا على صدق هذه الرواية (يقال ان القديس يوستراتيوس بقى على قيد الحياة خمسة عشر يوما فوق الصليب) والنقطة الأساسية فى هذه القصة أنها تسلم جدلا بوجود نفوذ يهودى قوى فى المدينة ـ أى فى مدينة خرسون من بين المدن كلها علما بأنها كانت تخضع اسميا لحكم مسيحى حاول البيزنطيون حرمان الخزر منه ـ وقد سبق أن ظفر بها فالديمير ولكنها أعيدت لبيزنطة فيما بعد ـ حوالى سنة ٩٩٠ م .

وبالمثل كان الخزر لا يزالون أقوياء فى تموتوراكان حيث وردت فى الحولية الروسية عن سنة ١٠٧١ فقرة غامضة : « أخذ الخزر (خزر تموتوراكان) أولج أسيرا وأرسلوه فى سفينة عبر البحار الى

(*) كان الكاسوجيون أو الكاشاك قبيلة شركسية خاضعة لحكم الخزر وربما كانوا أو لم يكونوا أسلاف القوزاق .

تزار جراد (القسطنطينية) » هذا هو كل ما جاء فى الفقرة — واضح أن الخزر كانوا متورطين فى مؤامرة من مؤامراتهم المليئة بالمغامرات فساندوا أميرا روسيا ضد منافسيه — ونتبين مرة أخرى أن الخزر لابد أنهم حظوا بنفوذ كبير فى هذه المدينة الروسية ما داموا قد استطاعوا أن يأسروا أميرا روسيا وأن يرحلوه — واذ تصالح أولج مع البيزنطيين بعد مضى أربع سنوات فقد سمح له بالعودة الى تموتوراكان حيث « ذبح هو الخزر الذين أشاروا باعدام شقيقه والذين كانوا قد تآمروا ضده هو نفسه » الواقع ان رومان شقيق أولج لقى مصرعه على يد الكبشاك — الكومان فى نفس السنة التى أسر فيها أولج — ترى هل دبروا أيضا قتل أخيه على يد الكومان ؟ أم أنهم كانوا فريسة اللعبة البيزنطية المكيافيلية باثارة الخزر والروس على أن يحارب كل منهما الآخر ؟ على أية حال فانا نقترب من نهاية القرن الحادى عشر ولا يزال الخزر يلعبون دورهم بنشاط على مسرح الأحداث .

وبعد سنوات قليلة حوالى سنة ١١٠٦ تورد الحولية الروسية فقرة أخرى موجزة مفادها أن البولوفتسى Polovtsi أى الكومان أغاروا على المنطقة المجاورة لزارتسك (غرب كييف) وأن الأمير الروسى أرسل جيشا ليطاردهم وكان يقود هذا الجيش ثلاثة لواءات هم يان وبوتيياتا « وايفان الخزرى » وهذه هى آخر اشارة للخزر فى الحولية الروسية القديمة التى توقفت بعد ذلك بعشر سنوات أى فى سنة ١١١٦ .

ولكن جدير بالذكر أنه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر أشار شاعران فارسيان هما خاقانى (حوالى ١١٠٦ — ١١٩٠) ونظامى (*) وهو الأكثر شهرة (حوالى ١١٤١ — ١٢٠٣) — نقول أشار كل منهما فى ملحمته الى غزوة قام بها الخزر والروس معا على شروان وأن هذه الغزوة حدثت فى فترة حياتهما — ورغم أنهما انغمسا فى نظم الشعر الا أنهما جديران بأن نأخذ ما قالاه بجدية ذلك لأنهما قضيا معظم سنى حياتهما موظفين حكوميين فى القوقاز ومن ثم لهما دراية عميقة بالقبائل القوقازية فيتحدث خاقانى عن « خزر درفنت » Dervent أعنى داربانـد وهى الممر الضيق أو البوابة الدوارة Turnstile بين القوقاز والبحر

(*) يعد نظامى أعلا شعراء الملاحم منزلة وأبرعهم فى نظم الشعر القصصى ويشمل ديوان أشعاره المعروف بالكنوز الخمسة على خمس معلقات تعالج موضوعات روائية مثل عشق كسرى برويز بشرين وقصة ليلى والمجنون (هاملتن : تاريخ العالم المجلد الخامس ص ١٦٩) (المترجم) .

الأسود الذى اعتاد الخزر اجتيازه للاغارة على جورجيا فى الأيام الطيبة الخوالى فى القرن السابع قبل أن يطوروا أسلوب حياتهم الى حياة أكثر استقرارا — ترى هل ارتدوا فى آخر أيامهم الى عادات المحاربين الرحل الغير مستقرة ؟ ·

وبعد هذه الروايات الفارسية — أو يجوز قبلها — لدينـــا الملاحظات المثيرة والفظة للرحالة اليهودى الشهير الحاخام بتاكيا من بلدة ويجنسبرج الذى سبق أن اقتبسنا عنه (الفصل الثانى قســـم ٨) ونتذكر بهذه المناسبة أنه غضب أشد الغضب لجهل اليهود الخزر فى اقليم القـــرم بتعاليم التلمود حتى انه لما عبر بلاد الخزر ذاتها لم يسمع سوى « عويل النساء ونباح الكلاب » — ترى هل كان هذا مجرد غلو للتعبير عن استيائه أو أنه كان يخترق اقليما دمره الكومان فى غارة حديثة شنوها عليه ؟ وقد قام بتاكيا برحلته هــذه فى الفترة بين ١١٧٠ و ١١٨٥ حين كان القرن الثانى عشر يقترب من نهايته وغدا الكومان الحكام المسيطرين على السهوب سيطرة تامة ·

وعندما نطرق أبواب القرن الثالث عشر يتكاثف الظلام بل وتجف أيضا مصادرنا الضئيلة بيد أن هناك على الأقل اشارة واحدة على لسان شاهد ممتاز هى آخر اشارة تذكر الخزر على أنهم أمة وهى مؤرخة بين سنة ١٢٤٥ وسنة ١٢٤٧ وكان المغول فى ذلك الحين قد اكتسحوا الكومان وطردوهم من أوراسنيا وأسسوا أكبر امبراطورية بدوية شاهدها العالم وقتئذ امتدت من المجر الى الصين ·

ففى سنة ١٢٤٥ أرســل البــابا أنوسنت الرابع بعثــة الى باتوخان (حفيد جنكيزخان) حاكم الجزء الغربى من امبراطورية المغول — وذلك لتتقصى امكانات التفاهم مع هــذه الدولة العالمية الجــديدة وبدون شك للحصول أيضا على معلومات عن قوتها العسكرية — وكانت هذه البعثة برئاســــة الراهب الفرانسيسـكانى جـــوان دى بلانـــو كاربينى Joannes de Plano Carpini البالغ من العمر ستين سنة — ولم يكن معاصرا ومريدا للقــديس فرانسيس الأسيسى فحسب بل كان أيضا رحالة متمرسا ودبلوماسيا بارعا من رجال الكنيسة تولى مناصب عالية فى هيئة الكهنوت · وقد غادرت البعثة كولون يوم عيد الفصح عام ١٢٤٥ واخترقت ألمـانيا وعبر الدنيبر والدون ثم وصلت بعــد عــام الى عاصمة بوتوخان وقبيلته الذهبية Golden Horde فى مصب الفولجا وكانت هذه العاصمة تسمى ساراى باتو وهى ساسكين سابقا وهذه كانت اتل سابقا ·

وبعد أن عاد كابرينى الى الغرب كتب مؤلفه الشهير « تاريخ المغول Historica Mongolorum ويتضمن الى جانب البيانات القيمة التاريخية والاثنوجرافية والعسكرية قائمة بأسماء الشعوب التى تقطن الأقاليم التى زارها وفى هذه القائمة المتضمنة شعوب القوقاز الشمالية يذكر فضلا عن الآلان والشراكسة شعب الخزر « الملتزم بالديانة اليهودية » وهذه الاشارة – كما ذكر من قبل – هى آخر اشارة وردت عن الخزر قبل اسدال الستار عليهم .

ولكن لم تمح ذكراهم الا بعد أمد طويل فقد واصل التجار الجنويون والتجار البنادقة الاشارة الى القرم بوصفها جزاريا Gazaria ويرد هذا الاسم نفسه فى وثائق ايطالية لا تقل حداثتها عن القرن السادس عشر . وبحلول ذلك العصر غدا هذا الاسم مجرد اصطلاح جغرافى يحيى ذكرى شعب توارى .

٩ – ومع ذلك وحتى بعد أن انهارت سلطة الخزر السياسية فانهم تركوا بصمات تأثيرهم الخزرى اليهودى فى أصقاع غير متوقعة وعلى مجموعة شعوب متنوعة .

وكان من بين هؤلاء شعب السلاجقة الذين يمكن أن نعتبرهم المؤسسين الحقيقيين لتركيا الاسلامية وهم فرع من الغز كانوا قد ارتحلوا فى أواخر القرن العاشر الى المنطقة المجاورة لمدينة بخارى ثم انطلقوا منها فيما بعد الى آسيا الصغرى البيزنطية واستعمروها – وهم لا يدخلون مباشرة فى قصتنا وانما يولجونها عن طريق باب خلفى اذا جاز هذا التعبير حيث يبدو أن أسرة السلاجقة العظيمة كانت على اتصال وثيق بالخزر وقد تحدث عن هذه العلاقة بارهبراءوس ١٢٢٦ – ١٢٨٦ Bar Hebraeus أحد كبار الكتاب والعلماء السريانيين – كما يتبين من اسمه – وكان من أصل يهودى ولكنه تحول الى المسيحية ورسم أسقفا ولم يتجاوز عمره عشرين سنة .

ويروى بارهبراءوس بأن توكاك أبو سلجوق كان قائدا فى جيش خاقان الخزر وبعد موته نشأ ابنه سلجوق مؤسس الأسرة فى بلاط الخاقان ولكنه كان شابا طائشا رفع الكلفة بينه وبين الخاقان الأمر الذى اعترضت عليه الملكة خاتون ونتيجة لذلك اضطر سلجوق أن يرحل عن البلاط أو حظر عليه التواجد به (٣٥)

كذلك يتحدث مصدر معاصر آخر هو كتاب تاريخ حلب لمؤلفه

ابن العديم (*) عن أب «سلجوق» ويصفه بأنه أحد أعيان الخزر الأتراك(٢٦) بينما يذكر مصـــدر ثالث هو ابن حسول (٢٧) بأن سلجوق « طعن ملك الخزر بسيفه وضربه بقضيب كان في يده ٠٠٠ » ـ وهنا نعيد أيضـا الى ذاكرتنا موقف الغز نحو الخزر على ما هو واضح في تقرير ابن فضلان عن رحلته ٠

وهكذا يبـدو أنه كان هنـاك عـلاقة حميمـة بين الخزر ومؤسسى الأسرة السلجوقية تلتها قطيعة يحتمل أنها بسبب تحـول السلاجقة الى الدين الاسلامي (بينما ظلت باقى قبائل الغز وثنية مثل الكومان) ومع ذلك فقد انتشر التأثير اليهودى الخزرى فترة ما حتى بعد القطيعة فمن بين أبنـــاء سلجوق الأربعة واحـد سمى اسرائيل وهو اسـم ينفرد به اليهود ـ كما سمى حفيده من أحفاده داود ٠

ويعلق على هذا الأستاذ دانلوب ـ وهو عادة مؤلف شديد الحذر ـ فيقول « ونظرا لما سبق ذكره فالرأى أن هذه الأسماء ترجع الى ما كان للخزر المسيطرين من تأثير دينى على صفوة أسر الغز ـ وربما كان « معبد الغز » الذى ذكره القزوينى هو معبد اليهود (٢٨) ، وقد نضيف هنا أنه طبقا لما يقوله الأستاذ ارتامونوف ـ كانت هناك أسماء يهودية بين الكومان ذلك الفرع الآخر من الغز فقد أطلق الأمير الكومانى كوبياك اسمى اسحق ودانيل على ولديه ٠

١٠ ـ وحين تنضب مصادر المؤرخين ففى الأساطير وعادات الشعب وتقاليده وحكاياته وأقواله المأثورة (أى الفولكلور) تلميحات مفيدة ٠

ويلاحظ أن الحولية الروسية الأساسية قد صنف الرهبـان مادتها ومن ثم فهى مشبعة بالفكر الدينى والاسنادات الانجيلية ولكن الى جانب الكتابات الكنسية التى كانت أساسا للحولية ـ انتجت فترة كييف أيضا مصنفات فى مواضيع دنيوية ـ تلك المعروفة باسم بايلينـــا Bylina أى الملاحم البطولية أو الأغانى الشعبية التى تدور فى معظمها حول مآثر المحاربين العظماء والأمراء الشبه أســـطوريين وكانت « أنشودة جيش ايجور » عن هزيمة القائد على يد الكومان والتى سبق الاشارة اليها هى أشهر تلك المؤلفات وأكثرها ذيوعا ـ وقد انتقلت تلك الملاحم شفاهة من جيل الى جيل وطبقا لما يقوله الأستاذ فرنادسكى ـ كان الفلاحون فى القرى النائية فى شمال روسيا لا يزالون يغنونها فى فاتحة القرن العشرين(٢٩) ٠

(*) عاش ابن العديم فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى بحلب وكان ذلك العصر عامرا بالمؤرخين والعلماء ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم تحقيق سامى الدهان دمشق ١٩٥٤ (المترجم) ٠

وفى تباين صارخ مع الحولية الروسية وخلافا لها فان هذه الملاحم لا تذكر اسم الخزر ولا وطنهم ولكنها بدلا من ذلك تتحدث عن وطن اليهود Zemlya Jidovskaya وعن أهله وتصفهم بأنهم « يهـود أبطـال » Jidovin Bogatir حكموا السهوب · وحاربوا جيش الأمراء الروس ، وتخبرنا الملاحم أنه كان هناك بين هؤلاء الأبطال يهودى عملاق جـاء من وطن اليهود zemlya Jidovskaya الى سـهوب تستسـار أسفل جبـل سوروخن Sorochin ـ ولم ينقذ جيش فالديمير من اليهود سوى شجاعة قائده اليا موروميتز(٣٠) Ilya Murometz وهناك صيغ مختلفة لهـذه القصة وقد أتاح البحث عن موقع تستسار وجبل سوروخن فرصة للمؤرخين للقيام بدور مثير آخر · ولكن على حد قول الأستاذ بولياك ـ أن النقطة الأساسية التى ينبغى تذكرها هى أن بلاد الخزر المجاورة كانت فى نظر الروس فى فترتها الختامية مجرد « دولة يهودية » وكان جيشها جيشا من اليهود (٣١) · وهذا الرأى الشائع بين عامة الروس يختلف كثيرا عن اتجاه الحوليين العرب الى التأكيد على أهمية المرتزقة المسلمين فى جيـوش الخزر وعلى عدد المساجد القائمة فى اتل (وفاتهم احصاء المعابد اليهودية) ·

وتعتبر الأساطير التى ذاعت بين اليهود الغربيين فى العصور الوسطى نظيرا غريبا للملاحم البطولية الروسية Bylina لنقتبس مرة أخرى من بولياك : « ان الأسـطورة اليهـودية الشـائعة لا تذكر مملكة الخزر بل تذكر « مملكة اليهـود الحمر » ويقول الأسـتاذ بارون فى تعليـق له « ان يهـود البلاد الأخرى أطراهم وجود دولة يهـودية مستقلة ووجـد الخيال الشعبى هنا حقلا خصبا على وجه الخصوص ـ وكما تحدثت الملاحم الصقلبية المتسمة بالفكر الانجيلى عن « اليهود »لا عن الخزر » فكذلك تاق اليهود الغربيون الى قصص خيالية تدور حول أولئك « اليهود الحمر» الذين ربما نعتوا بهذا الوصف بسبب اصطباغ بشرة الكثير من الخزر بصبغة مغولية طفيفة (٣٢) ·

١١ ـ ولقد بقى حتى العصور الحديثـة قدر من الفولكلور الشبه أسطورى والشـبه تاريخى له علاقة بالخزر افتتن به بنيامين دزرائيـلى فاستخدمه مادة لقصـة رومانسـية تاريخية عنوانها « حـكاية آل روى الرائعة » The Wondrous Tale of Al-Roy »

وجدير بالذكر انه فى القرن الثانى عشر نشـأت فى بلاد الخزر حركة يسارية قل انها محاولة بدائية لصليبية يهودية هدفها فتح فلسطين بقوة السلاح ـ وكان الشخص الذى بدأ هذه الحركة يهـوديا خزريا

يدعى سليمان بن دوجي (أو روحي أو روى) يساعده ابنه مناحم وكاتب فلسطينى • « فحرروا خطابات لكل اليهود ســواء كانوا قريبين منهم أو بعيدين عنهم فى كل البــلاد حولهم •• وقالوا ان الوقت قد حان ليجمع الله بنى اسرائيل شعبه من كل البلاد فى مدينة القدس المقدســة وأن سليمان بن دوجي كان هو اليا Elijah وابنه المسيح المخلص (*) •

وواضح أن هذه النداءات كانت موجهة الى المجتمعات اليهودية فى الشرق الأوسط ولكن بدا أن تأثيرها كان ضئيلا لأن الحدث التالى لها لم يقع الا بعد حوالى عشرين سنة وذلك حين انتحل الشاب مناحم اسم داود آل ـ روى وكذا لقب المسيح المخلص ـ وعلى الرغم من أن الحركة نشأت فى بلاد الخزر الا أنها سرعان ما نقل مركزها الى كردستان وهنا جمع داود جيشا كبيرا ـ ربما كان من اليهود المحليين يعززهم عدد من الخزر ـ ونجح فى الاستيلاء على حصن أمادى Amadie الاستراتيجى فى شمال شرقى الموصل ولعله كان يأمل أن يقود جيشه من هذا المكان الى ايدسا وأن يواصل القتال عبر سوريا الى الأرض المقدسة •

ولعل المغامرة كلها كانت ذات صبغة أقل دون كيخوتية مما تبــدو الآن وذلك للصراعات المتواصلة بين الجيوش الاسلامية المختلفة والانحلال التدريجى الذى لحق بمعاقل الصليبيين وعلاوة على ذلك ربما رحب بعض

---

(١) المصادر الأساسية لهذه الحركة هى : ١ ـ تقرير كتبه الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى (نسبة الى بلدته تطيلة الواقعة شمال غربى سرقسطه بالأندلس) (انظر الفصل ٢ قسم ٨) • ٢ ـ رواية مجموعة وثائق للكاتب العربى يحيى المغربى • ٣ ـ مخطوطتان عثر عليهما فى جنيزة القاهرة يزيدان الموضوع اضطرابا •

(★) تسربت فكرة المسيح المخلص الى العقيــدة اليهــودية من العقيدة البابليــة فقد كان البابليون يعتقدون بعودة « مردخ » اله بابل حينــا بعد حين لنشر الخير وتطهير الأرض من الفساد •

وتصور اليهود المنقذ أو المخلص ملكا ذا جاه وهو مجاهد من نسل داود يمسح بالزيت المقــدس وفق الشــعائر اليهــودية ليعيد مجد اسرائيل ويقيم مملكة داود وسمى بالمسيح نسبة الى هذا المسح بالزيت المقدس •• وتطورت عقيدة المسيح المخلص بتطور التــاريخ اليهودى فلم يعد ذلك الملك المنصور المتوج ذى الجاه والصولجان بل غدا رجلا مسكينا يبشر بالخير والهداية والصلاح ـ يسبقه من يعلن مجيئه ويبشر ببعثته وكانوا ينتظرونه على رأس كل ألف عام من بدء التقويم العبرى •

ولا يؤمن اليهود برسالة المسيح بن مريم عليه السلام ومازالوا فى انتظار المسيح المخلص ـ (د• حسين فوزى النجار : أرض الميعاد ص ١٥٩ ـ ١٦٠ الطبعة الثانية) (المترجم)•

القادة المسلمين المحليين بتوقع حرب صليبية يهودية ضـــد الصليبيين المسيحيين ·

ولا ريب فى أن داود آثار آمالا ميساوية دراميـة بين يهود الشرق الأوسط فقد جاء الى بغداد رســول من رسله ـ يحتمل انه كان مفرط الحماس ـ نبه على اليهود من مواطنيها أن يجتمعوا فى ليلة معينة فوق أسطح منازلهم ومنها سوف يطيرون فوق السحب الى مخيم المسيح المخلص · وبناء على ذلك قضى عدد ضخم من اليهود تلك الليلة فوق الأسطح منتظرين الطيران المعجز ·

الا أن هيئة الأحبار فى بغداد وقد خشيت انتقام السلطات اتخذت موقفا عدائيا نحو المخلص الزائف وهددته بالحرمان ـ وليس عجيبا بعد ذلك أن داود آل روى قتل وهو نائم وقيل ان حماه هو الذى قتله حيث رشته جماعة لها دوافع شخصية فى اتمام هذا العمل ·

وقد بقيت ذكراه موضع التقدير والاحترام ـ فعندما تجول الرحالة بنيامين التطيلى فى فارس بعد عشرين ســـنة من الحادث كتب يقول « انهم لا يزالون يتحدثون عن عقائدهم بحب وحنـان » ولكن الاعجاب الذى يقارب العبادة لم يقف عند هذا الحـد فهناك نظـرية تقول ان درع داود المسدس الأركان والذى يزين علم اسرائيـــل الحالى بدأ أن يكون رمزا قوميا مع صليبية داود آى روى · كتب الأستاذ بارون انه « منـذ ذلك الحين قال ان « درع داود » المسدس الأركان والذى كان قبل ذلك تصميما للزينة ورمزا ساحرا بدأ يتطـور ليكون الرمز القومى الدينى لليهود ـ ونظرا لأنه استخدم لأمد طويل بالتبادل مع النجمة الخماسية أو خاتم سليمان ، فقد نسب الى داود فى المؤلفات الألمانيـــة الصوفية والأخلاقية وذلك ابتداء من القرن الثالث عشر فصاعدا ـ وقد ظهـر على العلم اليهودى فى براغ سنة ١٥٢٧ (٣٣) ·

وقد أضاف بارون حاشية محددة أوضح فيها أن العلاقة بين آل ـ روى والنجمة السداسية الأركان لاتزال تنتظر تفسيرا أوفر ودليلا أوفى ـ ومهما يكن من شىء فلا مناص لنا من أن نتفق مع رأى بارون الذى يختتم فصله عن دولة الخزر بقوله :

« خلال الخمسمائة سنة التى قامت فيها دولة الخزر وما خلفته من أثر فى المجتمعات الأوربية الشرقية ، ثبت أن هذه التجربة الرائعة فى فن الحكم اليهودى أثرت دون شك فى التاريخ اليهودى تأثيرا كبيرا يفوق ما يمكن أن نتصوره حتى اليوم » ·

الجزء الثاني

الـــتـــراث

شعب الله المختـار

٥

الخروج

١ ـ خلافا للرأى التقليدى الذى التزم به مؤرخو القرن التاسع عشر ، فان الدليل الذى استشهدنا به فى الصفحات السابقة يوضح أن الخزر بعد هزيمتهم على يد الروس سنة ٩٦٥ فقدوا امبراطوريتهم ولكنهم ظلوا حتى جزء كبير من القرن الثالث عشر محتفظين باستقلالهم داخل حدود أضيق من سابقتها وكذا بدينهم اليهودى ـ بل انهم عادوا الى حد ما يمارسون عاداتهم السابقة فى النهب والسلب ـ يقول الأستاذ بارون تعليقا على ذلك :

« وبوجه عام ثابرت مملكة الخزر المصغرة على البقاء ودافعت دفاعا فعالا تقريبا ضد جميع أعدائها حتى منتصف القرن الثالث عشر حين سقطت فريسة لغارات المغول العاصفة التى شنها جنكيزخان وجدير بالذكر أنها قاومت وقتئذ مقاومة عنيفة الى أن استسلم كل جيرانها وامتصت حشوده (قبيلته الذهبية Golden Horde) جزءا كبيرا من سكانها وكانت قد أقامت مركز امبراطوريتها فى بلاد الخزر ولكن كان هؤلاء قد أرسلوا قبل وبعد الأعصار المغولى فروعا كثيرة من سلالتهم الى البلاد السلافية (الصقلبية) التى لم تخضع للمغول وبذلك ساعدوا فى نهاية الأمر على اقامة المراكز اليهودية الكبيرة فى شرق أوربا » (١) لدينا اذن فى هذا المكان ـ شرق أوربا ـ مهد الجزء الأكبر من الشعب اليهودى الحديث سواء من حيث الكم أو من حيث الثقافة العالية ٠

ويلاحظ أن « الفروع » التى يشير اليها بارون قد تشعبت فى الواقع قبل أن يدمر المغول دولة الخزر بوقت طويل ـ مثلها مثل الشعب العبرى

القديم حين بدأ يتشعب الى الشتات Diaspora قبل أن تدمر القدس بوقت طويل - ومن الناحية العرقية كانت القبائل السامية الرابضة على شواطيء نهر الأردن تفصلها بطبيعة الحال عن القبائل التركية الخزرية النازلة على شواطيء الفولجا آلاف الأميال ولكن كانت هذه وتلك تشترك معا في عاملين هامين أثرا أثرا فعالا في تكوينهما فقد عاش كل منهما في نقطة اتصال بؤرية تتقاطع فيها طرق التجارة الرئيسية التي تربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب الأمر الذي هيأ هؤلاء وأولئك ليكونوا شعوبا من التجار أو مندوبين متجولين مغامرين أو « عالميين بلا جذور » كما وصفتهم الدعاية المعادية بأسلوب غير ودي . ولكن في الوقت نفسه نمت فيهم ديانتهم المقصورة عليهم - الميل الى الانطواء على أنفسهم والى العزلة عن غيرهم وأن يتماسكوا معا وأن يقيموا مجتمعاتهم الخاصة بهم وفيها أماكن عبادتهم ومدارسهم وأحياؤهم السكنية وحاراتهم الخاصة بهم وحدهم - الجيتو Ghetto (وقد فرضوها هم أصلا على أنفسهم) في أية مدينة أو بلد استوطنوا فيه . ويلاحظ أن هذه التركيبة النادرة من لذة التجوال Wanderlust وعقلية الجيتو المدعمة بآمال ميساوية وزهو الشعب المختار قد شارك فيها الاسرائيليون القدامى وخزر العصور الوسطى على حد سواء وذلك على الرغم من أن الخزر يرجعون نسبهم الى يافث لا الى سام

٢ - وخير ما يمثل هذا التطور هو ما يمكن أن يسميه المرء شتات الخزر في المجر .

ونعيد الى ذاكرتنا أنه قبل أن تدمر دولة الخزر بزمن طويل انضمت عدة قبائل خزرية تعرف بقبائل الكابار الى قبائل الماجيار وهاجرت معها الى هنغاريا فضلا عن ذلك فقد حدث في القرن العاشر الميلادي أن دعا الدوق المجري تاكسوني Taksoni عددا آخر من المهاجرين الخزر للاستيطان في مقاطعته (الفصل الثالث قسم ٩) - وبعد ذلك بقرنين يتحدث الحولي البيزنطي جون سيناموس John Cinnamus عن جنود يلتزمون بالشريعة العبرية وهم يقاتلون مع الجيش المجري في دالمشيا سنة ١١٥٤ (٢) - وربما كان هناك في المجر أعداد قليلة من اليهود الأصليين منذ عصر الرومان ولكن لا ريب في أن غالبية هذا الجزء الهام من الشعب اليهودي الحديث يرجع أصلهم الى موجات هجرة الكابار - الخزر أولئك الذين لعبوا دورا جوهريا في تاريخ المجر في أول عهدها - وعلى حد قول قنسطنطين : لم تكن المجر ثنائية اللغة فحسب عند نشأتها ولكن كان بها أيضا نوع من الملكية الثنائية وهو نظام مختلف نوعا ما عن النظام الخزري

حيث يشارك الملك السلطة مع قائد جيشه الذى كان لقبه يولا Jula أو جيــولا Gyula (ولا يزال هذا اللقب شائعا فى المجر بوصفه الاسم الأول لكثيرين) وظل هذا النظام قائما حتى نهاية القرن العاشر حين اعتنق القديس ستيفن الكاثوليكية وهزم جيولا (أى قائد جيش) الذى أعلن العصيان وكان هذا ــ كما يتوقع المرء ــ خزريا « مزهوا بدينه ورفض أن يكون مسيحيا » (٣) .

وقد وضع هذا الحدث نهاية « للملكية الثنائية » فى المجر لا لنفوذ المجتمع الخزرى اليهودى هناك ــ ويمكن أن نجد انعكاسا لهذا النفــوذ فى الأمر الملكى Golden Bull (المرادف المجرى للمجناكرتا) والذى أصدره فى سنة ١٢٢٢ أندريه الثانى ملك المجر ونص فيه على أنه لا يجوز لليهود أن يعملوا رؤساء فى دار سك النقود ــ أو جباة ضرائب ــ أو مراقبين للاحتكار الملكى للملح ــ الأمر الذى يدل على أن عددا كبيرا من اليهــود كانوا يشغلون هذه الوظائف الهامة قبل صدور الأمر الملكى سالف الذكر والواقع أنهم شغلوا مناصب أعلى من تلك بكثير فقد كان أمين ايرادات الملك أندريه يهــوديا خزرى الأصــل هو الكونت تيــكا Teka وكان ثريا امتلك أراضى كثيرة واضح أنه كان عبقريا فى مسائل المال والدبلوماسية حيث يظهر توقيعه على العديد من معاهدات الصلح والاتفاقيات المالية ومن هذه اتفاقية يتعهد فيها للحاكم ليوبولد الثانى حاكم النمسا بسداد ألفى مارك لملك المجر ، ولا يسع المرء بهذه المناسبة الا أن يتذكر الدور الذى لعبه اليهــودى الأسبانى حســداى بن شبروط فى بلاط خليفة قرطبة أجل مقارنة أحداث مماثلة من الشتات الفلسطينى فى الغرب والشتات الخزرى فى شرق أوربا قد يجعل الشبه بينهما يبدو أقل غموضا .

وجدير بالذكر أيضا أنه حين أجبر النبلاء الثوار الملك أندريه على أن يصدر على مضض الأمر الملكى احتفظ هو باليهودى تيكا فى منصبه خلافا لنصوص الأمر الواضحة ــ وهكذا بقى الأمين الملكى اللبق فى منصبه لاحدى عشرة سنة أخرى حتى رأى الملك ازاء الضغط البابوى عليه ــ أنه من الخير للأمين تيكا أن يســتقيل ويرحل الى النمســا حيث استقبل بالترحاب ــ الا أن الملك بيلا الرابع ابن الملك أندريه حصل على اذن بابوى باستدعاء تيكا فعــاد فى حينه ولكنــه لقى مصرعه خــلال الغــارة المغــولية (٤) .

٣ ــ وهكذا فان الأصل الخزرى الغالب عدديا واجتماعيا فى يهود المجر خــلال العصــور الوسطى ثابت فى وثائق عنى بحفظهــا وقد تبدو المجر حالة خاصة نظرا للعلاقة القديمة بين الخزر والمجريين ولكن الواقع

أن تدفق الخزر الى المجر كان مجرد جزء من الهجرة الجماعية من السهوب الأوراسية نحو الغرب أى نحو أوربا الوسطى والشرقية ولم يكن الخزر الشعب الوحيد الذى أرسل فروعه الى المجر - بل كانت هناك بالتالى الأعداد الكثيرة من رجال قبائل البشنج بالذات الذين طاردوا المجريين من الدون عبر جبال الكربات واضطروا الى طلب الاذن للاستيطان فى الأراضى المجرية حين طاردهم بدورهم قبائل الكومان ولقى الكومان المصير نفسه بعد قرن من الزمان حين فروا من المغول ومنح أربعون ألفا منهم ومعهم رقيقهم حق اللجوء فى المجر بأمر من الملك المجرى بيلا (٥) .

وفى أزمنة هادئة نسبيا لم يكن هذا الانتقال العام الذى قام به السكان الأوراسيون نحو الغرب سوى تيار بطىء ثم غدا فى أزمنة أخرى تيارا جارفا أو قل فرارا جماعيا ولكن يجب أن تعتبر نتائج الغارة المغولية وفق هذا المقياس المجازى بمثابة زلزال تبعه انهيار هائل حيث انطلق محاربو الزعيم تيجومين Tejumin المعروف بجنكيزخان « سيد الأرض » يذبحون سكان مدن عن آخرهم تحذيرا لغيرهم حتى يكفوا عن المقاومة - كما استخدموا الأسرى ستارا بشريا فى مقدمة خطوطهم الأمامية ودمروا شبكات الرى لدلتا الفولجا تلك التى زودت أراضى الخزر بالأرز والأغذية الأساسية الأخرى وحولوا السهوب الخصبة الى حقول بور كما سماها الروس فيما بعد ووصفوها بأنها : مساحة لا حد لها بلا فلاحين أو رعاة لا يمر فيها سوى فرسان مرتزقة فى خدمة هذا الحاكم أو منافسه ذاك أو أناس هاربون من هذا الحكم (٦) .

وعجل الطاعون الأسود (١٣٤٧ - ١٣٤٨) تناقص السكان المضطرد فى ذلك الجزء الأساسى من بلاد الخزر الممتد بين القوقاز والدون والفولجا حيث كانت ثقافة السهوب قد بلغت أوجها ومن ثم كان الانتكاس الى البربرية - على سبيل التباين - أكثر عنفا مما كان عليه فى الأقاليم المجاورة - وعلى حد ما كتبه بارون « لقد نتج عن هلاك أو رحيل المجريين اليهود المهرة من فلاحين وصناع وتجار أن تركوا وراءهم فراغا لم يبدأ ملؤه فى تلك الأقاليم الا حديثا » (٧) .

ولم يقتصر الدمار على بلاد الخزر بل شمل أيضا بلاد بلغار الفولجا بالاضافة الى آخر المعاقل القوقازية لقبائل الآلان والكومان والامارات الروسية الجنوبية بما فيها كييف - ففى خلال فترة تفسخ القبيلة الذهبية من القرن الرابع عشر فصاعدا أصبحت الفوضى - أشد وأنكى - يقول الأستاذ بولياك : « انه فى معظم السهوب الأوربية كانت الهجرة الوسيلة الوحيدة المتاحة للسكان الذين أرادوا أن يصونوا حياتهم وأرزاقهم » (٨) .

وكانت الهجرة الى مراع أكثر أمنا عملية طويلة ومتقطعة استمرت عـدة قرون وكان خروج الخزر جزءا من الصورة العامة .

وقد سبق خروج الخزر ـ كما ذكر من قبل ـ تأسيس مستعمرات ومستوطنات خزرية فى أماكن مختلفة فى أوكرانيا وجنوب روسيا فكان هناك مجتمع يهودى مزدهر فى كييف وذلك لمدة طويلة قبل وبعـد أن استولى الروس على هذه المدينة من الخزر وكانت هناك مستعمرات مماثلة فى بريسلافل Perislavel وتشرنيجوف Chernigov . وجـدير بالذكر أن الحاخام موسى حاخام كييف درس فى فرنسا حوالى سنة ١١٦٠ كما درس ابراهام حاخام تشرنيجوف فى مدرسة التلمود بلندن فى سنة ١١٨١ وتشير أنشودة جيتش ايجور الى شاعر روسى معاصر شهير اسمه كوجان قد يكون هذا الاسـم مركبا من لفظ كوهين (الكاهن) ولفظ (خاقان) (٩) وبعد مرور فترة على تدمير ساركل التى سماها الروس بيلا فيزا Biele Veza بنى الخزر مدينة بالاسم نفسه قرب تشرنيجوف(١٠).

وهناك عدد وفير من أسماء الأماكن القديمة فى أوكرانيا وبولنـدة مشتقة من لفظ الخزر أو Zhid أى يهودى مثال ذلك : زيدوو Zydowo وكوزارزويك Kozarzewek وكوازرا Kozara وكوزارزو Kozarzow وزيدوسكا فو Zhydowska Vola وزيداتكز Zydaticze وهلم جرا وربما كانت هذه الأماكن يوما ما قرى أو مخيمات مؤقتة لجماعات خزرية يهودية فى رحلتهم الطويلة الى الغرب (١١) ـ ويمكن العثور على أسماء أماكن مماثلة فى جبال الكريات وتاترا والمقاطعات الشرقية فى النمسا بل ان المدافن اليهـودية القـديمة فى كراكاو وسـاندوميرز Sandomierz ويطلق عليها اسم كافيورى Kaviory يفترض أنها من أصـل خزرى ـ كابارى .

وعلى حين أن الطريق الرئيسى لخروج الخزر أدى بهم الى الغرب فقد تخلفت بعض الجمـاعات ولا سيما فى القرم والقوقاز حيث كونت مراكز يهودية لاتزال قائمة حتى اليوم ـ وفى معقل الخزر القديم فى تماتارخا (تامان) المواجهة للقرم عبر مضيق كيرش نسمع عن أسرة أمراء يهود تولوا الحكم فى القرن الخامس عشر تحت وصاية جمهورية جنوة ثم بعد ذلك تحت وصاية تتار القرم وتولى آخر هؤلاء الأمراء ـ ويدعى زكريا Zakharia المفاوضة مع أمير مسكوفى Prince of Muscovi كان قد دعا زكريا الى المجىء الى روسيا كى يعمد مقابل منحه مزايا النبيل الروسى ولكن زكريا رفض هذا العرض ويرى الأستاذ بولياك أنه فى حالات أخرى ، ربما كان

ادخال عناصر خزرية يهودية في المناصب الرفيعة في الحكومة المسكوفية من العوامل التي أدت الى ظهور «الهرطقة اليهودية» Zhidovstbuyushtchik بين الكهنة والنبلاء الروس في القرن السادس عشر وكذا الى ظهور طائفة المحافظين على شعائر يوم السبت Subbotniki وهى طائفة لا تزال منتشرة بين القوزاق والفلاحين » (١٢) ٠

(ويهود الجبل) هم أثر آخر أو قل البقية الباقية لشعب الجزر وهم يعيشون فى الجزء الشمالى الشرقى من القوقاز وواضح أنهم بقـــوا فى موطنهم الأصلى حين تركه الآخرون ويقدر عددهم بحوالى ثمانيـــة آلاف ويقطنون في منطقة مجاورة لمن بقوا من قبائل الأيام الخوالى : قبائل الكيشاك والأوغور ويطلقون على أنفسهم اسم داغ شوفوتى Dagh Chufuty أى « يهود الجبل » وذلك بلغة التات Tat التى اتخذوها عن قبيلة قوقازية أخرى ولا نعرف عنهم شيئا يذكر خلاف ذلك (*) ٠

وقد بقيت مراكز خزرية أخرى فى القرم ومن غير شك فى جهات أخرى فى أماكن كانت يوما ما تابعة لامبراطورية الخزر ولكنها لم تعد اليوم سوى تحف تاريخية بالمقارنة الى التيار الجارف لهجرة الخزر الى الأقاليم البولندية اللتوانية وما تطرحه هـــذه الهجرة من مشـــاكل للمؤرخين والانثروبولوجيين ٠

٤ ــ ويلاحظ أن الأقاليم الواقعة فى شرق أوربا الوسطى والتى وجد فيها المهاجرون اليهود من بلاد الخزر وطنا جديدا وأمنا ملموسا لم تبدأ فى أن يكون لها أهمية سياسية الا فى أواخر الألف سنة الأولى ٠

ففى حوالى سنة ٩٦٢ ألفت عدة قبائل سلافية حلفا تحت قيــادة أقواها وهى قبيلة البولان التى أصبحت نواة الدولة البولندية وهــكذا كان بزوغ نجم بولندا متزامنا تقريبا مع تدهور دولة الخزر (دمرت ساركل سنة ٩٦٥) ــ ومما له دلالة خاصة أن اليهود يلعبون دورا هاما فى احدى الأساطير البولندية القديمة التى لها علاقة بتأسيس المملكة البولندية حيث تروى لنا الأسطورة أنه حين قررت القبائل المتحالفة أن تنتخب ملكا يتولى حكمها كلها ــ اختارت يهوديا اسمه ابراهام بروكوفنيك (١٣) ٠

(*) هذه البيانات وردت فى مقال للمؤرخ أ٠ هـ٠ نيبر عنوانه « أهل القوقاز » ونشره فى دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٣ واستند فيه على مصادر سوفييتية حديثة وهناك كتاب ألفه جورج سافا عنوانه « وادى الشعب المنسى » (لندن ١٩٤٦) يحوى وصفا لزيارة ذات معنى ليهود الجبل ــ وهو غنى بأحداثه المثيرة ولكنه للأسف خلو من المعلومات الصحيحة ٠

ـ لعله كان تاجرا خزريا ثريا ومثقفا آمل الصقالبة سكان البلاد الغير مأهولة أن يفيدوا من تجاربه ـ أو لعــــله كان مجرد شخصـــية أسـطورية ـ فان كان الأمـر كذلك فان الأسـطورة تدل على أن اليهود من نمطه كانوا موضع احترام كبير ـ ومهما يكن من شيء فان القصة تذكر أن ابراهام ـ فى تواضع غير مألوف ـ تخلى عن التاج لفلاح من أهل البـلد يدعى بياست Piast الذى صار بذلك مؤسس أسرة بياســـت التاريخية التى حكمت بولندة من حوالى سنة ٩٦٢ الى سنة ١٣٧٠ ٠

وسواء وجد ابراهام بروكوفنيك فعلا أم لم يوجد اطلاقا فهناك أدلة كثيرة على أن المهاجرين اليهود من بلاد الخزر لقوا كل ترحيب فى بولنده بوصفهم مصدر قوة هام لاقتصاد البلاد ولادارة الحكومة ـ وكان البولنديون تحت حكم أسرة بياست وكذا جيرانهم اللتوانيون أهل البحر البلطى (*) قد سارعوا الى توسيع حدودهم وكانوا بالتالى فى أشد الحاجة الى مهاجرين يستعمرون الأراضى التابعة لهم وينشئون حضارة مدنية ـ فشجعوا فى أول الأمر المهاجرين الألمان من فلاحين ومواطنى المدن والصناع المهرة ثم شجعوا بعد ذلك المهاجرين من الأقاليم التى احتلتها القبيلة الذهبية (**) بما فيهم الأرمن والسلاف (الصقالبة) الجنوبيون والخزر ٠

ولم تكن هذه الهجرات كلها اختيارية بل انها شملت أعدادا وفيرة من أسرى الحرب مثل تاتار القرم الذين عهد اليهم زراعة أراضى المـــلاك اللتوانيين والبولنديين فى الأقاليم الجنوبية التى تم فتحها ـ (ففى ختام القرن الرابع عشر امتدت امارة لتوانيــــا من البحر البلطى الى البحر الأسود) ولكن حدث فى القرن الخامس عشر أن فتح الأتراك العثمانيون بيزنطة وتقدموا شمالا فنقل ملاك الأراضى الأهالى من أراضيهم الواقعة على الحدود الى داخل البلاد (١٤) ٠

وكان من بين هؤلاء السكان الذين نقلوا قسرا فرقة قوية من القرائين ـ وهم طائفة الأصوليين فى الديانة اليهودية رفضت تعاليم الأحبار ـ وتذكر رواية لا تزال تتردد بين القرائين فى العصور الحديثة ان أجدادهم جلبهم الى بولنـــدة الأمـــير اللتوانى المحارب فيتاوتاس Vytautas

---

(*) بعد سلسلة من المعاهدات بدأت سنة ١٣٨٦ اتحد الشعبان فى مملكة واحدة هى مملكة بولنده وسوف أستخدم ـ على سبيل الايجاز ـ لفظ اليهود البولنديين للاشارة الى البلدين بغض النظر عن الحقيقة المعروفة من أنه عند نهاية القرن ١٨ قسمت بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا وغدا سكانها رسميا مواطنين لهذه الدول الثلاث ٠

(**) لقد غزا المغول بولنده والمجر لفترة قصـــيرة ١٢٤١ ـ ١٢٤٢ ولكنهم لم يحتلوهما الأمر الذى كان له أثر كبير على مسيرة تاريخهما ٠

(فيتولد Vitold) وذلك فى نهاية القرن الرابع عشر بوصفهم أسرى حرب من سلخاط بالقرم (١٥) وحقيقة الأمر – تأييدا لهذه الرواية أن الأمير اللتوانى فيتولد منح يهود تروكى فى سنة ١٣٨٨ براءة بحقوقهم – ويذكر الرحالة الفرنسى دى لانوى de Lanoi أنه وجد هنـــاك « عددا كبيرا من اليهود » يتكلمون لغة مختلفة عن تلك التى يتكلمها الألمان وسكان البلاد (١٦) – وكانت تلك اللغة – ولا تزال – لهجة تركية هى فى الواقع أقرب اللغات الحيـة الى اللغة المتداولة Lingua Cumanica التى كانت سائدة فى الأقاليم الخزرية السابقة فى عصر غارة المغول – عصر القبيلة الذهبية – ويعتقد الكاتب ياجاسكوفسكى (١٧) Zajaczkowski أن هذه اللغة لا تزال تستخدم فى الحديث والصلاة فى جماعات القرائين الباقية فى تروكى وفلنا وبونيفييز ولوتسك وهالتش – ويزعم القراءون أيضا أنه كان لهم قبل الطاعون الكبير سـنة ١٧١٠ اثنتان وثلاثون أو سبعة وثلاثون جماعة فى بولندة ولتوانيا ٠

وهم يطلقون على لهجتهم القديمة « لغة كيدار » – على نحو ما فعله الحاخام بتاكيا فى القرن الثانى عشر حين أطلق على موطنهم شمال البحر الأسود اسم « أرض كيدار » – ويلاحظ أن ما يذكره عنهم من حيث الجلوس فى الظلام طيلة يوم السبت واغفال تعاليم الأحبار – انما يتفق مع موقفهم الطائفى وتبعا لذلك فان ياجاسكوفسكى عالم الدراسات التركية الشهير المعاصر يعتبر القرائين من الناحية اللغوية انهم حاليـا أتقى ممثلى الخزر القدامى (١٨) ، وسوف نشرح فيما بعد أسباب احتفاظ هـذه الطائفة بلغتها لمدة خمسمائة عام على حين أن الجماعة الرئيسية من يهود الخزر طرحتها جانبا واستخدمت لغة اليديش بوصفها لغة مشتركة ٠

٥ – اتخذت المملكة البولندية من بدء نشأتها تحت أسرة بياسـت اتجاها غربيا راسخا الى جانب اعتناقها الكاثوليكية الروسية – ولكنهـا كانت بالمقارنة الى جيرانها الغربيين – بلدا متخلفا ثقافيا واقتصاديا ، ومن ثم اتبعت سياسة جذب المهاجرين : الألمان من الغرب والأرمن واليهـود الخزر من الشرق – وقدمت لهم كل تشجيع ممكن لمشروعاتهم بما فى ذلك براءات ملكية تفصل ما عليهم من واجبات وما لهم من امتيازات خاصة ٠

فان البـراءة التى أصـــدرها بوليســـلاف التقى Boleslav فى سنة ١٢٦٤ وصدق عليها كازيمير العظيم Casimir منحت اليهود حق الاحتفاظ بمعابدهم ومدارسهم ومحاكمهم – وامتلاك الأراضى والعمل فى أية حرفة أو مهنة يختارونها – كما منح الملك ستيفن باتورى (١٥٧٥ –

١٥٨٦) اليهود برلمانا خاصا بهم اجتمع مرتين فى العام وكانت له سلطة فرض الضرائب على أقرانهم فى الدين — وهكذا دخل اليهود الخزر — بعد تدمير بلدهم — فصلا جديدا فى تاريخهم .

وهناك مثل واضح لمركز اليهــود المميز ورد فى الكتاب البابوى الصادر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر — ويحتمــل أن الذى أصدره هو البابا كلمنت الرابع وهو موجه الى أمير بولنــدى لم يذكر اسمه — وفى هذه الوثيقة يحيط البابا الناس علما بأن سلطات روما تعلم تماما بوجود عدد كبير من المعابد اليهودية فى عدة مدن بولندية — بل ان لهم فعلا ما لا يقل عن خمسة معابد فى مدينة واحدة دون غيرهم (يحتمل أنها روكلاف أو كراكاو) ويعلن البابا عن أسفه لما سمعه من أن مبانى هذه المعابد أعلى من الكنائس وأكثر فخامة وزخرفا وأن أسقفها صنعت من ألواح من الرصاص مطلية بألوان زاهية مما يجعل الكنائس القريبة منها تبدو هزيلة بالمقارنة (ولا يسع المرء الا آن يذكر بهذه المناســبة ملاحظة المسعودى المرحة عن مئذنة المسجد الرئيسى حيث كانت أعلا بناء فى اتل عاصمة الخزر) وقد آكد صحة هذه الشكاوى والاتهــامات التى أوردها البابا فى كتابه قرار أصــدره المندوب البابوى الكاردينال جويدو سنة ١٢٦٧ وقد نص فيه على أنه لا يسمح لليهود بأكثر من معبد واحد فى أية مدينة .

وندرك من هذه الوثائق المعاصرة تقريبا لغزو المغول بلاد الخزر أنه لابد أن أعدادا كبيرة من اليهود كانت تقيم فى ذلك الحين فى بولندة حيث كانت لهم فى مدن كثيرة هناك أكثر من معبد واحد ولابد أنهم كانوا فى رخاء حيث استطاعوا أن يشيدوا تلك المعابد الفخمة الغنية بزخارفها وهذا يقــودنا الى التســاؤل عن حجم المهــاجرين الخزر التقريبى فى بولنده ونوعيتهم .

والواقع أنه ليس لدينا بيانات يعول عليها نسترشد بها عن عدد هؤلاء المهاجربن — ونتذكر أن المصادر العربية حين تحدثت عن جيوش الخزر ذكرت أن ثلثمائة ألف جندى اشتركوا فى حرب المسلمين ضد الخزر (الفصل الأول قسم ٧) ومع ذلك اذا جاز لنا قبــول تلك المبالغــات الصارخة فان هذا معناه أن سكان البلاد الخزر بلغوا فى مجموعهم نصف مليون نسمة على الأقل — ولقد ذكر ابن فضلان أن خيام بلغار الفولجا بلغ عددها خمسين ألف خيمة وهذا يعنى أن السكان تراوح عددهم بين ٣٠٠ ألف و ٥٠٠ ألف نسمة أى تقريبا عدد سكان بلاد الخزر » — ومن ناحية أخرى يقدر المؤرخون الحديثون عدد اليهود فى المملكة البولندية اللتوانية فى القرن الســابع عشر بخمســمائة ألف نسمة (أى ٥٪ من مجمــوع

السكان) (١٩) ـ وهذه الأرقام لا تبعد كثيرا عن الحقائق المعروفة عن سلسلة الهجرات الخزاية الطويلة عن طريق أوكرانيا الى بولندة ـ لتوانيا بدءا من تدمير ساركل وقيام أسرة بياست حوالى نهاية الألف سنة الأولى ثم ازدادت سرعة هذه الهجرات خلال الغزو المغولى وانتهت تقريبــا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وعندئذ خلت السهوب وتم فيما يبدو ازالة الخزر من على وجه البسيطة (*) ٠

وعلى وجه الاجمال فقد تم انتقال السكان على مراحل امتد الى خمسة أو ستة قرون وكان تيارا هزيلا رقيقا تارة وفيضا متدفقا تارة أخرى ـ واذا أخذنا فى الاعتبار تدفق اللاجئين اليهود الهائل من بيزنطه والعالم الاسلامى الى بلاد الخزر ـ وكذا نسبة الزيادة البسيطة بين سكان الخزر أنفسهم فانه من المعقول فيما يبدو أن الأرقام الغير نهائية لسكان بلاد الخزر فى أوجهم فى القرن الثامن لابد أنها كانت متساوية ـ على الأقل من حيث الحجم ـ لتلك الخاصة باليهود فى بولندة فى القرن السابع عشر ـ مع التجاوز عن قليل من مئات الآلاف بالزيادة أو النقصان دلالة على جهلنا ٠

وهنــاك سـخرية خفيــة فى هــذه الأرقام ـ فطبقــا لمــا جاء فى مقال عنوانه « احصاءات » ورد فى دائرة المعارف اليهودية بلغ المجموع الكلى لليهود فى العالم أجمع فى القرن السادس عشر حوالى مليون نسمة وهذا فيما يبدو يدل ـ طبقا لما يراه الأستاذ بولياك وكوتشيرا وغيرهما ـ على أن غالبية من أعلنوا اعتناقهم الديانة اليهودية فى العصور الوسطى كانوا من الخزر ورحل الجزء الأكبر من هذه الغالبية الى بولندة ولتوانيا والمجر والبلقان حيث أسسوا ذلك المجتمع اليهودى الشرقى الذى أصبح بدوره الغالبية المسيطرة من يهود العالم ٠ وحتى لو كان الجزء الأصلى الرئيسى لذلك المجتمع قد خفف وازداد بالمهاجرين الوافدين من أقاليم أخرى (انظر فيما بعد) ـ فهناك دليل قوى على أصله الخزرى التركى المسيطر ويجب على الأقل اعتبار هذا بمثابة نظرية تستحق النقاش الجدى ٠

وهناك أسباب اضافية تعزو الدور القيادى فى نمو وتطور المجتمع اليهودى فى بولنده وسائر أوربا الشرقية الى العنصر الخزرى أساسا لا الى المهاجرين الوافدين من الغرب وسوف نعالج هذه الأسباب فى الفصول

(*) تم تدمير آخر قرى الخزر القديمة على نهر الدنيبر فى ثورة القوزاق بقيــادة تشملنسكى Chmelnicky فى القرن السابع عشر وهاجر من نجــا من أهلهــا الى بولنده ـ لتوانيا فكانوا اضافة قيمة للمستوطنات اليهودية بها ٠

التالية ولكن قد يكون من المناسب هنا أن نقتبس العبارة التالية عن المؤرخ البولندى آدم فيتولانى :

يتفق العلماء البولنـديون فى أن أقدم هـذه المسـتوطنات أسسها مهاجرون يهود من دولة الخزر ومن روسيا على حين بدأ اليهود من جنوب أوربا وغربها فى الوصـول الى بولندة والاستقرار فيهـا فترة من الزمن فقط ٠٠ ثم أن نسبة معينة على الأقل من السكان اليهود (الجزء الأساسى فى العصور الأولى) نشأت أصلا من الشرق ومن بلاد الخزر ثم نشأت من كييف الروسية فيما بعد » (٢١) ٠

٦ ـ كل هذا بشأن حجم اليهود وعددهم ـ ولكن ترى ماذا نعرف عن البنية والتركيبة الاجتماعية لمجتمع المهاجرين الخزر ؟ ٠

ان أول انطباع يشعر به المرء هو التماثل الصارخ بين مناصـب ممتـازة معينة يشغلها اليهود الخزر فى المجر وبولنـدة فى تلك الأزمنـة المبكرة حيث تشير كلا المصادر المجرية والبولندية الى يهود يعملون رؤساء فى دار سك النقود ومديرين للدخل الملكى ومراقبين لاحتكار الملح وجباة للضرائب ومرابين أى مصرفيين ـ ويوحى هذا التماثل الى وجود أصـل مشترك لهذين المجتمعين المهاجرين وحيث انه فى وسعنا أن نعزو أصول الجزء الأكبر من اليهود المجريين الى الرابطة بين المجريين والخزر فان النتيجة تبدو بديهية ٠

وتكشف السجلات القديمة عن الدور الذى لعبه اليهود المهاجرون فى الحياة الاقتصادية المزدهرة فى كلا البلدين وليس غريبا أن ذلك الدور كان هاما نظرا لأن التجارة الخارجيـة والضرائب الجمركية كانت المصدر الرئيسى لدخل الخزر فى الماضى فقد كانت لهم الخبرة التى كانت تعـوز مضيفيهم الجدد ومن ثم لم يكن هناك مناص من دعوتهم لابداء النصـح والمشاركة فى ادارة مالية البلاط وأموال النبلاء وكانت العملات التى سكت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وعليها نقوش بولندية بأحرف عبرية (الفصل الثانى قسم ١) هى تذكارات غريبة نوعـا ما لهذه الأنشطة ولا يزال الغرض الحقيقى الذى أدته لغزا الى حد ما فقد ورد على بعضها اسـم ملك (نذكر على سبيل المثال اسـم ليزك واسم ميزكو Mieszko) وهناك عملات أخرى نقش عليها (من بيت ابراهيم ابن يوسـف الأمير يحتمل أن يكون هو نفسه المصرف الذى سك العمـلة) أو تظهر مجرد كلمة عن ابتهال البركة مثل « التوفيق أو النعمة » ٠ ومما له دلالة خاصة أن المصادر المجرية المعاصرة تتحدث أيضا عن عملية سك العملة من فضة قدمها أصحابها اليهود (٢٢) ٠

ومع ذلك ـ وخلافا لما حدث في أوربا الغربية ـ لم تقصر مجـالات النشاط اليهودى على التمويل والتجارة فحسب بل صار بعض المهاجرين الأثرياء ملاكا للأرض فى بولندة شأن الكونت تيكا فى المجر ـ وطبقا لمـا ورد فى السجلات كان هناك أراض يملكها يهود تشمل قرية بأسرها يعمل بها فلاحون يهود نذكر على سبيل المثال تلك القرية القريبة من برسلو Breslau وقد ورد ذكرها فى سجلات سابقة لسنة ١٢٠٣ ولابد أنه كان هناك فى أزمنة مبكرة فلاحون خزر بأعداد وفيرة كما تدل على ذلك الأسماء الخزرية القديمة المطلقة على أماكن شتى .

وتزودنا سجلات طائفة القرائين التى أشرنا اليها من قبل بفـــكرة عاجلة عن نشأة هذه القرى فتروى كيف وطن الأمير فيتولد مجموعة من أسرى الحرب القرائين فى بلدة كراسنا Krasna ووفر لهم المساكن وبساتين الفاكهة والأرض لمسافة تبلغ ميلا ونصف ميل (يقال ان كراسنا هى المدينة اليهودية الصغيرة المعروفة باسم كراسونيا فى بودوليا) (٢٤) .

ولكن الفلاحة لم توفر مستقبلا للجماعة اليهودية وهناك أسباب عديدة لذلك فان قيام الاقطاع فى القرن الرابع عشر نقل فلاحى بولندة شيئا فشيئا الى رقيق لا يجوز لهم ترك قراهم وليست لهم حرية الحركة ، وفى الوقت نفسه ازاء الضغط المزدوج من رجال الكنيسة والاقطاعيين أصدر البرلمان البولندى سنة ١٤٩٦ قانونا حرم على اليهود حيازة أرض زراعية بيد أن عملية ابعادهم عنها لابد أنها بدأت قبل ذلك بزمن طويل ـ وبغض النظر عن الأسباب المعينة التى ذكرت للتو أى التعصب الدينى بالاضافة الى تحويل الفلاحين الأحرار الى رقيق ـ فان نقل الخزر من أمة زراعية فى غالبيتها الى مجتمع مدنى فى غالبيتـــه عكس ظاهرة شائعة فى تاريخ الهجرات ، والمعروف ان المهاجرين معرضون لتغيير بنيتهم المهنية فى خلال أجيال قليلة بسبب ما يواجهونه من أحوال مناخية وطرق زراعية مختلفة من جهة ومن جهة أخرى بسبب ما يصادفونه من فرص غير متوقعة لحياة أيسر توفرها حضارة المدن وهكذا أصبح نسل فلاحى ابروتزى (بايطاليا) يعملون فى الولايات المتحدة ندلا وأصحاب مطـــاعم وقد يصبح أحفـاد الفلاحين البولنديين مهندسين أو محللين نفسيين (*) .

ومع ذلك فان تحول اليهود الخزر الى يهود بولنديين لم يستلزم أى قطيعة جسيمة مع الماضى أو ضياع الهوية بل كان عملية تغيير عضـــوية تدريجية حافظت على بعض التقاليد الأساسية لحياة الخزر الطائفيـــة فى

(*) يلاحظ أن العملية العكســية حيث يستقر مستعمرون فى ارض بـكر تنطبق على المهاجرين من بلاد متقدمة الى بلاد متخلفة .

موطنهم الجديد كما أوضح الأستاذ بولياك بحججه المقنعة • وقد تم ذلك أساسا عن طريق قيــام بنية اجتماعية أو أسلوب حياة لم يكن له مثيل فى أية جهة أخرى فى دنيا الشتات ـ : أعنى قيام مدينة يهودية صغيرة تسمى باللغة العبرية أيارا Ayarah وبلغة البيدش Yiddish شتتل Shtetl وباللغة البولنــدية مياســـتيكو Miastecko ـ وهذه الأسماء الثلاثة هى أسماء تصغيرية بيد أنها لا تشير بالضرورة الى صغر حجم المدينة (كان بعضها مدنا صغيرة كبيرة فعلا) وانما تشير الى الحقوق المحدودة للحكم الذاتى الذى تمتعت به •

ويجب ألا نخلط المدينة الصغيرة شتتل Shtetl بالجيتـــو Ghetto - فهذا الأخير يشمل الشارع أو الحى الذى فرض على اليهود العيش فيه داخل حدود مدينة سكانها أمميون (غير يهود) Gentiles وكان الجيتو ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر فصاعدا المكان الشامل الجامع لليهود فى أية بقعة فى العالم المسيحى وفى معظم العالم الاسلامى ـ وكان الجيتو محاطا بأسوار لها بوابات تغلق ليلا الأمر الذى سبب لقاطنيه مرض الخوف من العيش فى الأماكن المغلقة والتفكير الضيق ولكنه خلق أيضا جوا من الأمن النسبى فى أوقات الشغب ـ واذا تعذر على الجيتو توسيع مساحته فقد كانت البيوت فيه شاهقة ونشأ عن تكدس السكان الدائم سوء الأحوال الصحية ـ وتطلبت المعيشة فى تلك الظروف القاســية أن يتوفر فى النــاس قوة روحيــة كبيرة للحفاظ على كرامتهم •

ومن ناحية أخرى كانت المدينة الصغيرة Shtetl مسألة مختلفة تماما ـ فقد كانت كما ذكر من قبل نمط مستوطنة لم توجد فى أية بقعة فى العالم سوى فى بولندة ولتوانيا ـ كانت مدينة ريفية تتمتع باكتفاء ذاتى سكانها هم على وجه الحصر يهود أو أن غالبيتهم يهود ـ ويرجح أن أصول هذه المدينة الصغيرة ترجع الى القرن الثالث عشر وقد تمثل الحلقة المفقودة بين مدن السوق فى بلاد الخزر والمستوطنات اليهودية فى بولندة ، وجدير بالذكر أن الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية لهذه التكتلات الشبه ريفية والشبه مدنية تبدو أنها كانت متشابهة فى كلا البلدين ففى بلاد الخزر ـ كما صار الحال فى بولندة فيما بعــد ـ وفرت التكتلات شبكة محطات تجارية أو مدن أسواق قامت بالوساطة بين حاجيات المدن الكبرى والريف فكانت لها أسواق منتظمة لبيع أو مقايضة الغنم والماشية •• الخ الى جانب السلع المصنوعة فى المدن ومنتجات صناعات الأكواخ الريفيــة كما كانت فى الوقت نفسه مراكز ينكب فيها الحرفيون على حرفهم نذكر منهم صناع العجلات والحدادين وصناع الفضة والخياطين وجزارى اللحم

المباح أكله طبقا للشريعة اليهـــودية والطحـــانين والخبازين وصانعى الشمعدانات ـ كذلك كان هناك كاتبو الرسائل لمن يريد من الأميين ـ ومعابد للمؤمنين وخانات للمسافرين ومدارس للأطفال ـ ورواة متجولون ملحميـــون (خلدت بعض أســـمائهم مثـــل فلفـل زبرزهر) (٢٥) Velvel Zbarzher دأبوا على الترحال من مدينة صغيرة (شتتل) الى مدينة صغيرة أخرى فى بولندة ـ ولا شك أن الشىء نفسه حـدث فى وقت مبكر عن ذلك فى بلاد الخزر اذا كان للمرء أن يستنتج ذلك من بقاء رواة القصص الى اليوم بين الشعوب الشرقية ٠

وقد صارت فعلا بعض حـرف معينة احتكارا يهوديا فى بولندة ـ كان من بينها تجارة الخشب ونذكر أن الخشب كان المادة الأساسية للبناء فى بلاد الخزر وسلعة هامة من سلع صادراتها ـ وكان النقل من الحرف التى احتكرها اليهود أيضا يقول الأستاذ بولياك : ان الشبكة الكثيفة من المدن الصغيرة Shtetls يسرت توزيع السلع المصنوعة فى طول البـــلاد وعرضها وذلك عن طريق طراز يهودى من عربات فخمة تجرها الخيـل وقد انتشرت وسيلة النقل هذه انتشارا ملموسا وخاصة فى شرق بولندة بحيث أصبحت احتكارا والطريف أن اللفظ العبرى المرادف لسائق عربة النقل هو Ba'al Agalah (وترجمته الحرفية : سيد العربة) وقد أدمج فى اللغـة الروسية فصـــار يطلق على سائق العربة « بلاجولا » Balagula ـ الا أن هذه الحرفة تدهورت بتطور السكك الحديدية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠

يقينا أن هذا النوع من التخصص فى بناء المركبات والعربات لم يكن من الممكن تطويره فى أحياء الجيتو المغلقة الخاصة باليهود الغربيين ـ ومما لا شك فيه أن هذا التخصص يرجع أصلا الى الخزر ـ ذلك لأن أهـل الجيتو كانوا مقيمين ثابتين فى أماكنهم على حين استخدم الخزر شأنهم شأن الشعوب الشبه بدوية ـ عربات تجرها الخيل أو الثيران كى ينقلوا عليها خيامهم وسلعهم وأثاثهم بما فى ذلك الخيام الضخمة التى تماثل فى حجمها حجم خيام السيرك يمكن أن تسع عدة مئات من الناس ـ والثابت أنهم تميزوا بدرايتهم ومهارتهم فى التغلب على أشد المسارات وعورة فى موطنهم الجديد ٠

ومن الأعمال التى اختص بها اليهود الفندقة وادارة طواحين الدقيق والتجارة فى الفراء ويلاحظ أننا لا نجد أيا من هذه الأعمـــال فى أحياء اليهود (الجيتو) فى غرب أوربا ٠

تلك كانت الملامح الرئيسية لبنيـــة المدينة الصغيرة اليهـــودية Shtetl في بولنـــدة ومن الجائز أن بعض هذه الملامح كانت موجودة في مدن الأسواق القديمة في أي بلد على حين تظهر ملامح أخرى شبها معينا أقرب لما لدينا من معـلومات رغم قلتهـا عن مدن بلاد الخزر التي ربما كانت النموذج الأصلي للمدن اليهودية الصغيرة في بولنده ٠

وينبغي أن يضاف الى هذه الملامح المحددة طراز المعابد المتعـــددة الطوابق الملاحظ في ما بقي من أبنية معابد اليهود الخشـــبية في المدن الصغيرة (شتتل) في بولندة والتي يرجع تاليخها الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهو طراز يختلف تمـــاما عن طراز العمارة المحلي وكذا عن طراز البناء الذي اتخذه اليهود الغربيون وتكرر استخدامه فيما بعد في الحارات اليهودية (الجيتو) في بولندة ٠ كذلك تختلف تماما الزخارف الداخلية في أقدم معابد المدينة الصغيرة (شتتل) عن طراز الجيتو الغربي حيث كانت جدران معبد المدينة الصغيرة مغطاة بزخارف عربية أندلسية وبأشكال حيوانات مما ينم عن الأثر الفـارسي الملاحظ في المصنوعات المجرية ــ الخزرية (الفصل الأول قسم ١٣) وكذا في الطراز الزخرفي الذي جلبه الى بولندة المهاجرون الأرمن (٢٧) ٠

ومما لا جدال فيه أن زي اليهود البولنديين التقليدي هو أيضا من أصل شرقي ــ أجل ربما كان القفطان النمطي الطويل الحريري محاكيا للرداء الذي كان يلبسه النبلاء البولنديون والذي كان بدوره منقولا عن ثوب المغول في القبيلة الذهبية حيث تنتقـــل الأزياء عبر الأقســـــام السياسية ، ــ ولكننا نعلم أن القفاطين كانت رداء بدو السهوب قبـل ذلك بزمن طويل ــ ويلاحظ أن القلنسوه الضيقة (الطاقية) Yarmolka لا يزال يلبسها حتى اليوم اليهود المتدينون ــ كما يلبسها الاوزبكيون وغيرهم من الشعوب التركية في الاتحاد السوفييتي ، ولبس الرجال فوق الطاقية الضيقة قبعة مستديرة Streimel متقنة الصنع حافتها من فرو الثعاب وقد أخذها الخزر عن قبائل الخاشاك أو العكس ــ وكما ذكر من قبل كانت التجارة في فراء الثعلب والســـمور مزدهرة في بلاد الخزر وأصبحت فعـــلا احتكارا يهـوديا في بولندة أما النســـاء فقد ارتدين حتى منتصف القرن السابع عشر عمامة طويلة بيضاء كانت نسخة طبق الأصل من اليولوك Jauluk التي كان يرتديها نساء الخاشاك والتركمان (٢٨) (في الوقت الحاضر تلتزم الآنسان اليهوديات الأصوليات بلبس لمة مصنوعة من شعورهن بدلا من العمامة ــ ويخلعنها فور زواجهن) ٠

وقد يذكر المرء في هذا السياق ــ وان كان الأمر يكتنفه شيء من

الشك ــ ولع اليهود البولنديين الغريب بأكل السمك المحشى Gefillte Fisch وهو طبق قومى نقله عنهم البولنديون الأميون وهناك بين يهود بولندة قول سائر « بدون سمك لن يكون هناك سبت » ــ ترى هل اشتق هذا القول من ذكريات قديمة عن الحياة على بحر قزوين حيث كان السمك غذاء أساسيا ؟ .

وجدير بالذكر أن الأدب والفولكلور اليهودى يمجدان الحياة فى المدينة اليهودية الصغيرة Shtetl بشيء كثير من الحنان الرومانى الى الماضى وهكذا نطالع الآتى فى تقرير حديث عن عادات تلك المدينة وأسلوب أهلها المرح فى الاحتفال بيوم السبت :

أينما كان المرء فانه سوف يحاول الوصول الى بيته ليستقبل السبت مع أسرته ــ فالبائع المتجول الذى ينتقل من قرية الى أخرى والخياط الطواف وصانع الأحذية والاسكافى والتاجر المسافر فى رحلة ما ــ كل هؤلاء سوف يخططون ويتزاحمون ويسرعون سعيا فى الوصول الى البيت قبل غروب الشمس مساء الجمعة .

وبينما هم يواصلون السير الى بيوتهم يرسل الشماس صيحاته فى شوارع المدينة الصغيرة Shtetl مناديا « أيها اليهود عليكم بالحمام العمومى » والشماس هو أحد موظفى معبد اليهود . ويتحدث وكأن له من السلطات ما يجاوز اختصاصاته لأنه حين يدعو اليهود بالذهاب الى الحمام العمومى فانما يدعوهم الى اتباع احدى الوصايا العشر .

ولعل تصوير الحياة فى المدينة الصغيرة Shtetl بأسلوب مفعم بنبضها وحيويتها هو ذلك المزيج السيريالى للحقيقة والخيال الوارد فى الصور الزيتية التى رسمها مارك شيجال حيث تظهر فيها الرموز التوراتية جنبا الى جنب سائق الكارة الملتحى القابض على سوطه والحاخامات الكئيبين المستغرقين فى التفكير وقد ارتدوا قفاطينهم وطواقيهم .

لقد كان مجتمعا غريبا يعكس أصوله الغريبة ويحتمل أن بعض أقدم المدن الصغيرة أسسها أسرى حرب مثل قرائى تروكى الذين حرص النبلاء البولنديون واللتوانيون على أن يوطنوهم فى أراضيهم الحالية ــ بيد أن غالبية تلك المستوطنات كانت نتيجة هجرة عامة من الحقول القفر التى كانت تتحول الى صحراوات ــ كتب الأستاذ بولياك يقول : بعد الفتح المغولى حين هامت القرى السلافية نحو الغرب انتقلت معها المدن الصغيرة الخزرية (٣٠) Shtetls ويحتمل أن رواد المستوطنات الجديدة كانوا تجارا خزرا أثرياء دأبوا على السفر عبر بولندة سالكين الطرق التجارية

المألوفة الى المجر فان هجرة الماجيار والكابار الى المجـــر فتحت الطريق للمستوطنات الخزرية المتزايدة في بولندة وحولت بولندة الى منطقة عبور بين البلدين وكلتاهما تضم جماعات يهودية (٣١) ـ وهكذا كان التجار المتجولون ملمين كل الالمام بأحوال المناطق المتوقع اعادة الاستيطان فيها ـ وقد أتيحت لهم الفرصة للاتصال بملاك الأراضى الذين يبحثـــون عن مستأجرين « وقد يعقد المالك اتفاقا مع هؤلاء اليهود الأغنياء الوقورين (وهنا يقفز الى ذاكرتنا اسم ابراهام بروكوفنيك) الذين سوف يستقرون فى أراضيه ويجتذبون مستوطنين آخرين ـ وتمشيا مع العرف سـوف يختارون ناسا من البقعة التى عاشوا فيها من قبل » (٣٢) ، وكان هؤلاء المستعمرون خليطا من الفلاحين والصناع والحرفيين فشكلوا بذلك مجتمعا مكتفيا بذاته تقريبا ـ وهكذا نقلت المدينة الصغيرة Shtetl الخزرية من تربتها لتغرس من جديد وتصبح مدينة صغيرة بولندية ـ وأغفلت الزراعة تدريجيا وعندئذ غدا التكيف مع الأحوال الجديدة مكتملا تماما ٠

وهكذا اتبعت نواة اليهود الحديثين الوصفة القديمة : « اندفعوا بقوة ونشاط نحو آفاق جديدة ولتتماسكوا وليظل بعضكم مخلصا لبعض » ٠

٦

من أين ؟

١ ـ تنبثق من عرضنا السابق حقيقتان أساسيتان : زوال شعب الخزر من موطنه التاريخي ـ وفي الوقت نفسه ـ ظهور أكبر تجمع لليهود في الأقاليم المجاورة الى الشمال الغربي وذلك منذ أوائل الشتات ، ونظرا لأن الحقيقتين مرتبطتان على نحو واضح فان المؤرخين يجمعون على أن الهجرة بعبارة أخرى لا جدال في أن الخزا هاجروا الى بولندة بأعداد وفيرة استنتاج أيدته الأدلة التي ورد ذكرها في الفصول الســـابقة • بيد أن المؤرخين لا يستطيعون الجزم عن مدى هذه المساهمة ـ أعني حجم هجرة الخزر بالمقارنة الى تدفق اليهود الغربيين ونصيبهم في التكوين الوراثي للمجتمع اليهودي الحديث •

بعبارة أخرى لا جدال في أن الخزر هاجروا الى بولنده بأعداد وفيرة ولكن المسألة تدور حول ما اذا كانوا قد كونوا هم معظم المستوطنة الجديدة أم اقتصروا على نواتها الأساسية فحسب ـ وللعثور على اجابة عن هـــذا السؤال لزام علينا أن نتعرف على حجم هجرة « اليهـود الأصـليين » من الغرب •

٢ ـ في حوالى نهاية الألف سنة الأولى كانت أهم مستوطنات اليهود الأوربيين الغربيين توجد في فرنسا وأراضي الراين(*) ـ ويحتمل أن بعض

(*) لم ندخل في الحساب هنا يهود أسبانيا الذين شكلوا فئة مستقلة ولم يشاركوا في حركات الهجرة التي نعالجها •

هذه الجماعات كانت قد نشأت في عصر الرومان حيث انه فى الفترة بين تدمير القدس وتدهور الامبراطورية الرومانية كان اليهود قد استقروا فى كثير من المدن الهامة الخاضعة لها ثم انضم اليهم فيما بعد مهـــاجرون من ايطاليا وشمال افريقيا ـ وهكذا لدينا سجلات من القرن التاسع فصاعدا عن جماعات يهودية فى جميع أنحاء فرنسا من نورماندى الى بروفانس والبحر المتوسط جنوبا ، بل ان جماعة عبرت القنال الى انجلترا فى أعقاب الغزو النورماندى ولعل وليم الفاتح دعاهم لأنه كان فى حاجة الى مالهم ومشروعاتهم وقد لخص الأستاذ بارون تاريخهم بقوله :

« وعلى مر الزمن تحولوا الى طبقة من « المرابين الملكيين » الذين كانت وظيفتهم الأساسية توفير الاعتمادات الماليـــة للمشروعات الســـياسية والاقتصادية على حد سواء وبعد أن جمعوا ثروة طائلة نتيجة لفرضهم فائدة عالية على ما قدموه من قروض أجبروا على أن يردوها بشكل أو آخر لصالح الخزانة الملكية ـ والواقع أن طول أمد رفاهية كثير من الأسر اليهودية وفخامة مساكنهم وثيابهم وتأثيرهم فى الشئون العامة أعمى حتى المراقبين المتمرسين عن الأخطار الجسيمة الكامنة من الكراهية المتزايدة فى قلوب المدينين من جميع الطبقات ومن اعتماد اليهود الكلى على حماية أســـيادهم الملكيين .. فتحولت همسات السخط الى ثورات غضب عنيفة بلغت ذروتها فى ثورات سنة ١١٨٩/١١٩٠ تلك التى أنذرت بالمأساة النهائية أعنى طرد اليهود من انجلترا سنة ١٢٩٠ وهكذا فان الفترة بين ما حققه اليهـــود الانجليز من ازدهار صاروخى وبين تدهورهم العاجل لم تتعد قرنين وربع قرن (١٠٦٦ ـ ١٢٩٠) وقد أبرز هذا بجلاء العوامل الأساسية التى شكلت مصائر كل اليهود الغربيين فى النصف الأول العصيب من الألف سنة الثانية (٢) .

وفى هذا المثال الانجليزى دروس مفيدة ذلك لأنه يستند الى وثائق دونت بعناية فائقة بالمقارنة الى تاريخ الجماعات اليهـــودية فى القـارة الأوربية ـ والدرس الأساسى الذى نستمده هو أن نفوذ اليهود الاجتماعى والاقتصادى لم يتناسب بحال وأعدادهم القليلة حيث يتضح أن عدد اليهود فى انجلترا فى أى وقت قبل طردهم منها ســـنة ١٢٩٠ لم يتجـــاوز ٢٥٠٠ فرد » .

وقد لعبت هذه الجماعة اليهودية البالغة الصغر فى انجلترا العصور الوسطى دورا قياديا فى كيان البلاد الاقتصادى أكثر بمراحل مما فعلته

(★) وذلك طبقــــا للاحصـــائية التى أوردها جـوزيف جاكوبز فى كتـــابه The Jews of Angevin England القائمة على أسماء الأسر اليهودية المســـجلة ووثائق أخرى .

نظيرتها فى بولندة — ومع ذلك فخلافا لبولندة — لم يمكنهـا الاعتماد على شبكة المدن اليهودية الصغيرة لتوفر لها قاعدة كبيرة من الحرفيين المتواضعين وكذا أبناء الطبقة الوسطى الدنيا من الصناع والعمال وسائقى العربات وأصحاب الحانات — حيث لم يكن لجماعة اليهود فى انجلترا جذور فى الشعب — وعلى أساس هذه القضية الحيوية كان ما حدث فى انجلترا فى عهد أسرة أنجو صورة مصغرة لما حدث من تطورات فى القارة الغربية فقد واجه يهود فرنسا وألمانيا المأزق نفسه : أجل كان بنـاؤهم الطبقى غير متوازن وغير مستقر الأمر الذى أدى فى كل مكان الى تعاقب الأحداث المأساوية نفسها حيث تبدأ دائما القصة الكئيبة بشهر عسل ثم تنتهى بالطلاق وسفك الدماء — بمعنى أن اليهود يلقون فى أول الأمر الترحيب والتدليل فتصـدر لهم مراسيم خاصة وتغدق عليهم الامتيازات ومختلف أنواع الرعاية فهم أشخاص مقبولون Personae Gratae مثل خيميائى البلاد الذى اعتقد أهل العصور الوسطى أنه يستطيع تحويل المعادن الى ذهب لأنهم وحدهم يملكون سر المحافظة على حسن ادارة اقتصاد البلاد — وفى ذلك يقـــول سيسل روث : « فى العصور المظلمة كانت تجاة أوربا الغربية فى أيدى اليهود على نطاق واسع ودون استثناء تجارة الرقيق ويلاحظ أن السجلات الكارولنجية تستخدم لفظ يهودى ولفظ تاجر باعتبـــارهما اصـــطلاحين مترادفين تقريبا (٤) . ولكن مع نمو الطبقة التجارية المحلية (القومية) أصبح اليهود شيئا فشيئا مبعدين لا عن المهن المنتجة فقط بل أيضا عن أشكال التجارة التقليدية ولم يبق لهم فعلا سوى عملية اقراض المال مقابل ربح (٥) .. وامتص اليهود مال البلاد الحر وأجبروا بين حين وآخر على رده لخزانة الدولة (٦) — وهـــكذا ثبت وجود شخصية شايلوك قبـــل عصر شكسبير بزمن طويل .

وفى أيام شهر العسل كان شارلمان قد أرسل سفارة تاريخية فى سنة ٧٩٧ الى هارون الرشيد فى بغداد كى يعقد معه معـاهدة صداقة — وتألفت البعثة من يهودى يدعى اسحاق ونبيلين مسيحيين — ثم جاءت الخاتمة المرة سنة ١٣٠٦ حين طرد فيليب لو بل اليهود من مملكة فرنسا — ورغم أنه سمح فيما بعد للبعض بالعودة الا أنهم لقوا اضطهادا أكبر وبنهـــاية القرن انقرضت فعلا جماعة اليهود الفرنسيين (*) .

٣ — واذا انتقلنا الى اليهود الألمان فان أول حقيقة نلاحظها هى أنه ليس لدينا تاريخ علمى شامل لليهود الألمان .. أجل ان السجل اليهـودى

(*) ان الجماعة اليهودية الحديثة فى فرنسا وانجلترا — أسسها اللاجئون اليهـود الذين فروا من محاكم التفتيش الأسبانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

Germania Judaica هو مجرد مرجع جيد للمصادر التاريخية التى تلقى ضوءا على جماعات خاصة حتى سنة ١٢٣٨ (٧) انه ضوء معتم ولكنه على الأقل يوضح التوزيع الاقليمى لجماعات اليهود الغربيين فى ألمانيا فى الفترة الحاسمة حين كانت هجرة اليهود الخزر الى بولندة تقترب من أوجها ٠

ويذكر سجل من أقدم سجلات جماعة اليهـــود الغربيين فى ألمانيا شخصا يدعى كالونيموس Kalonymous هاجر فى سنة ٩٠٦ مع أقاربه من لوكا فى ايطاليا الى ماينز Mayence وحوالى الوقت نفسه نسمع عن يهود فى سبيرز Spires وورمز Worms ثم بعد ذلك بفترة نسمع عنهم فى أماكن أخرى فى تريف ومتز وستراسبورج وكولون وكلها تقع فى شريط ضيق فى الألزاس وعلى طول وادى الراين وقد زاره الرحالة اليهودى بنيامين من بلدة تطيلة الواقعة فى شمال اسبانيا (الفصل الثانى قسم ٨) فى منتصف القرن الثانى عشر وكتب يقول :

« هناك فى تلك المدن اسرائيليون كثيرون : رجال حكماء وأثرياء » (٧) ولكن ترى كم كان هؤلاء الكثيرون ؟ الواقع أن عددهم كان قليلا جدا كما سنرى ٠

وفى فترة سابقة عاش فى ماينز حاخام يدعى جيرشـــــوم بن يهودا (حوالى ٩٦٠ ــ ١٠٣٠) أكسبه علمه الواسع لقب « منار الشتات » وكذا منصب الرئيس الروحى للجماعة الفرنسية وجماعة الراين الألمانية ٠٠ وفى تاريخ ما حوالى سنة ١٠٢٠ عقد جيرشوم مجلسا حبريا فى ورمز أصدر مراسيم مختلفة بما فيها مرسوم حرم تعدد الزوجات (وكان هذا التحريم معطلا منذ زمن طويل) وأضيف الى هذه المراسيم ملحق نص على أنه « فى حالة الضرورة يمكن الغاء أى قانون اذا قرر ذلك مجلس مؤلف من مائة مندوب يمثلون برجندى ونورماندى وفرنسا ومدن ماينز وسبيرز وورمز » ويلاحظ أنه فى وثائق حبرية أخرى ترجع الى الفترة نفسها لم يرد فيهـا ذكر مدن أخرى غير هذه المدن الثلاث وعلى ذلك لا يسعنا الا أن نستنتج أن المجتمعات اليهودية الأخرى فى أراضى الراين كانت فى مستهل القرن الحادى عشر لا تزال ضئيلة الأهمية بحيث لا تستحق الذكر (٨) ٠

وبنهاية القرن نفسه نجت الجماعات اليهودية فى ألمانيا بشق الأنفس من ابادة كاملة فى أثناء انفجار غضـب الجماهير الذى صـــاحب الحروب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ وقد صور ف ٠ باركر Barker عقلية الصليبى بأسلوب مثير قلما نجده فى أعمدة دائرة المعارف البريطانية (٩) :

« ربما ذبح (الصليبى) الجميع حتى خاض فى الدم الى كاحله فاذا

حل الليل ركع باكيا من الفرح أمام مذبح الآثار المقدسة ـ ألم يكن أحمر اللون من معضرة خمر المولى ؟ » ٠

لقد وقع يهود أراضى الراين فريســـة فى تلك المعصرة التى كادت تعصرهم حتى الموت وعلاوة على ذلك أصابهم نمط مختلف من الهيستريا الجماعية : قل هو توق رهيب للاستشهاد ـ وطبقا لما ذكره الحولى العبرى سليمان بارسيمون الذى اشتهر بصدق روايته (١٠) ـ حدث أن واجه يهود ماينز الخيار بين التعميد أو الموت على يد الجماهير فرأوا أن يكونوا قدوة للجماعات الأخرى وقرروا الانتحار الجماعى » (١١) ٠

واذ حاكوا على نطاق واسع استعداد ابراهيم للتضحية بابنه اسحاق (اسماعيل) فقد قام الآباء بذبح أطفالهم والأزواج بذبح زوجاتهم وقد جرت هذه الأعمال التى يعجز القلم عن وصف بشاعتها وبطولتها وفقا لشعائر الذبح وبسكاكين قربانية تم شحذها طبقا للشريعة اليهودية ـ وأحيانا كان القادة الحكماء الذين يشرفون على الضحية الجماعية آخر من يفارق الحياة وبأيديهم هم أنفسهم ـ والواقع أنه فى حالة الهيستريا الجماعيـــة التى طهرتها حرارة الاستشهاد فى سبيل الدين وعوضها التوقع الأكيد لثواب السماء لم يكن أمام المرء ما يهمه سوى وضع نهاية لحياته قبل أن يقع فريسة فى أيدى الأعداء الذين لا يعرفون الصفح وقبل أن يواجه البديل الذى لا مفر منه وهو اما الموت على يد العدو أو التحول الى المسيحية ٠

واذا انتقلنا من الاحصائيات الدموية الى الاحصائيات المتزنة العـادية فاننا نحصل على فكرة عامة عن حجم الجماعات اليهودية فى ألمانيا حيث تتفق المصادر العبرية على أن عدد الضحايا فى مدينة ورمز بلغ ثمانمـائة (عن طريق القتل أو الانتحار) وتراوح فى مدينة ماينز بين تسعمائة وألف وثلثمائة وبطبيعة الحال لابد أنه كان هناك كثيرون فضلوا التعميد على الموت ولكن المصادر لا توضح عدد من بقوا على قيد الحياة كما أنه من العسير التأكد من أن تلك المصادر لم تبالغ فى عدد الشهداء ومهما يكن من شىء فان الأستاذ بارون يستنتج من تقديراته بأن المجمع الكلى لليهود فى كل من المجتمعين (ورمز وماينز) لم يزد بالكاد عن الأعداد الواردة هنا عن الموتى وحدهم » (١٢) أى أن عدد من بقوا على قيد الحياة فى ورمز أو فى ماينز لم يتجاوز مئات قليلة فى كل منهما ـ ومع ذلك فان هاتين المدينتين ـ الى جـانب مدينة سبيرز بوصفها المدينة الثالثة ـ كانت المـدن الوحيـدة الهامة بحيث ورد ذكرها فى مرسوم الحاخام جيرشوم سالف الذكر ٠

وهكذا صورت لنا تلك المصادر أن المجتمع اليهودى فى أراضى الراين الألمانية كان صغير العدد حتى قبل الحرب الصليبية الأولى ثم انكمش هـذا

العدد الى نسب أقل نتيجة لما مر به من مآس فى معصرة السيد الاقطاعى ـ أما فى شرق نهر الراين فى وسط ألمانيا وشمالها فلم تكن هناك بعد أية مجتمعات يهودية وظل الحال على هذا المنوال لفترة طويلة ـ وجدير بالذكر أن الرأى التقليدى للمؤرخين اليهود القائل بأن الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ جرفت أمامها كالمكنسة اليهود الألمان فى هجرة جماعية الى بولندة ـ انما هو مجرد أسطورة أو قل أنه فرضية ابتدعت لغرض محـدد ذلك لأن هؤلاء المؤرخين وقد عرفوا القليل عن تاريخ الخزر لم يجدوا سبيلا آخر يعللون به كيف ظهر وتمركز فى أوربا الشرقية ذلك المجتمع اليهودى الذى لم يسبق له نظير ومع ذلك لم ترد أية اشارة فى المصادر المعاصرة لأية هجرة كبيرة أو صغيرة من أراضى الراين نحـو الشرق داخل ألمانيا ناهيك الى بولندة البعيدة ٠

وهكذا يقول سيمون دوبنوف Simon Dubnov وهو أحد مؤرخي الجماعات اليهودية المسحوقة خلال الحرب الصليبية الأولى والحروب الصليبية الى الزحف نحو الشرق الآسيوى دفعت فى الوقت نفسه الجماهير اليهودية الى شرق أوربا (١٣) ـ ولكنه بعد أسطر قليلة من هذه العبارة يعترف بأنه « ليس لدينا معلومات دقيقة عن ظروف هذه الهجرة التى كانت بالغـة الأهمية للتاريخ اليهودى (١٤) ، ولكن لدينا معلومات وفيرة عما فعلته هذه الجماعات اليهودية المسحوقة خلال الحرب الصليبية الأولى والحروب الصليبية التالية فقد مات البعض بأيديهم أنفسهم ـ وحاول البعض الآخر المقاومة فكان مآلهم الاعدام ـ أما أولئك الذين بقوا على قيد الحياة فانهم يدينون بحسن حظهم هذا الى أنهم لقوا مأوى طيلة الأزمنة اما فى قلعة الأسقف الحصينة أو فى قلعة الحاكم Burgave بوصفه من الناحية النظرية على الأقل ـ مسئولا قانونا عن حمايتهم وكثيرا ما كان هذا الاجراء غير كاف للحيلولة دون وقوعهم فريسة مذبحة ما ولكن من بقوا على قيد الحياة بعد رحيل حشود الصليبيين حرصوا على العودة الى بيوتهم التى نهبت والى معابدهم ليبدءوا حياتهم من جديد ٠

ونقابل هذا النمط مرارا وتكرارا فى الحوليات : فى تريف وميتز وفى أماكن كثيرة أخرى ٠ وبقيام الحرب الصليبية الثانية وما تلاها من حروب صليبية ، أصبح هذا الأمر يكاد يكون روتينيا ففى بداية الدعوة المثيرة لحروب صليبية جـديدة هـرب كثـير من يهود ماينز وورمز وسـبيرز وستراسبورج وورزبرج وغيرها من المدن ـ الى القلاع المجـاورة تاركين وراءهم كتبهم ومقتنياتهم الثمينة فى حراسة مواطنين ودودين (١٥) ـ ومن المصادر الرئيسية « كتاب الذكرى » لمؤلفه افرايم بار يعقوب الذى كان هو

نفسه وهو فى الثالثة عشرة من عمره بين اللاجئين الوافدين من كولون الى قلعة ولكنبرج (١٦) - ويذكر سليمان بارسيمون أنه فى خلال الحرب الصليبية الثانية لقى من بقوا على قيد الحياة من يهود ماينز حماية فى سبيرز ثم عادوا لبلدهم الأولى وبنوا معبدا (١٧) هذه هى الفكرة المهيمنة المتكررة Leitmotif في الحوليات ولنكرر مرة أخرى أنه لم ترد فيها كلمة واحدة عن مجتمعات يهودية هاجرت نحو شرق ألمانيا الذى كان على حد قول الأستاذ ميزس Mieses لا يزال نظيفا من اليهود Judenrein وقدر له أن يبقى كذلك لفترة طويلة ٠

٤ - كان القرن الثالث عشر فترة ابلال جزئى ٠ فنسمع لأول مرة عن يهود فى أقاليم مجاورة لأراضى الراين : فى بلاتينيت (١٢٢٥م) وفريبورج (١٢٣٠) وأولم (١٢٤٣) وهيدلبرج (١٢٥٥) ٠٠ الخ (١٩) ولكنها كانت مهلة راحة قصيرة فحسب حيث جلب القرن الرابع عشر كوارث جديدة لليهود الفرنسيين - الألمان ٠

وكانت النكبة الأولى هى طرد جميع اليهود من أراضى الملك فيليب لو بل حيث كانت فرنسا تعانى أزمة اقتصادية وما كان يرافقها عادة من تخفيض العملة واضطراب اجتماعى - وحاول فيليب علاج هذه الأزمة بالأسلوب المعتاد ألا وهو اثقال كاهل اليهود ففرض عليهم دفع مائة ألف جنيه فى سنة ١٢٩٢ و٢١٥ ألف جنيه في سنوات ١٢٩٥ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٥ ثم قرر أن يعالج مشكلته الاقتصادية علاجا جذريا فوقع فى ٢١ يونية سنة ١٣٠٦ أمرا سريا بالقبض على اليهود فى مملكته فى يوم معين وصادر أملاكهم وطردهم من البلاد - وتمت عملية القبض يوم ٢٢ يونية كما نفذ الطرد بعد ذلك بأسابيع قليلة وهاجر اللاجئون الى اقليم فى فرنسا خارج الجزء الخاضع لسلطان الملك فيليب - هاجروا الى بروفانس وبرجندى واكويتين والى اقطاعيات قليلة أخرى ولكن طبقا لما كتبه الأستاذ ميزس Mieses « ليست هناك على الاطلاق سجلات تاريخية تدل على أن عدد اليهود الألمان زاد نتيجة لما عانته الجماعة اليهودية فى فرنسا فى فترة ابادتها الحاسمة ولم يذكر قط أى مؤرخ أن اليهود الفرنسيين ساروا عبر ألمانيا الى بولندة سواء فى تلك المناسبة أو فى أى وقت آخر ٠

وفى عهد خلفاء فيليب كانت هناك استدعاءات جزئية لليهود فى سنة ١٣١٥ و ١٣٥٠ ولكن هذه لم تصلح ما أصابهم من ضرر أو تحول دون تفجر اضطهاد الجماهير لهم - وبحلول نهاية القرن الرابع عشر كانت فرنسا - مثلها مثل انجلترا - نظيفة من اليهود فعلا Judenrein ٠

٥ - وكان الطاعون الأسود النكبة الثانية لهذا القرن المشئوم فقضى

في الفترة بين سنة ١٣٤٨ و ١٣٥٠ على ثلث سكان أوربا بل على ثلثين في بعض أقاليمها تسلل هذا الطاعون الى أوربا من شرق آسيا عن طريق تركستان وكان انتشاره في أوربا وما أنزله بها رمزا على حماقة الانسان أو قل على جنونه ذلك أن قائدا تتاريا يدعى جانبج Janibeg حاصر في سنة ١٣٤٧ مدينة كافا Kaffa (اسمها الحالي فيودوسـيا) في القرم وكانت وقتئذ ميناء لتجار جنوه وتفشى الطاعون في جيشه بدرجة دفعته الى أن يقذف بالمنجنيق الضحايا المصابين الى المدينة فانتقلت عدوى المرض الى أهلها وحملت السفينة الجنوية الفئران وبراغيثها القاتلة غربا الى موانيء البحر المتوسط ومنها انتشرت الى داخل البلاد ٠

ولم يكن من المفروض للبكتريا المسببة للمرض أن تميز بين مختلف الديانات ولكن يبدو أن اليهود لقوا معاملة خاصة فبعد أن وجه اليهم الاتهام في وقت سابق أنهم طبقا لشعائرهم ذبحوا الأطفال المسيحيين ـ اتهموا الآن بأنهم سمموا الآبار لينتشر الطاعون الاسود وانتشرت هـذه الاسطورة بسرعة فاقت سرعة الفئران وكانت النتيجة حرق اليهود جملة في سائر أنحاء أوربا ـ ومرة أخرى أصبح الانتحار عن طريق التضحية المشتركة بالذات وسيلة شائعة بين اليهود هربا من الحرق وهم أحياء ٠

ولم يصل عدد سكان أوربا الذين هلك منهم ما لا يقل عن عشرهم الى مستوى ما كان عليه قبل الطاعون حتى القرن السادس عشر أما عن سكانها اليهود الذين تعرضوا لهجوم ثنائي من الفئران ومن الانسان فلم ينج منهم سوى جزء ضئيل وعلى حد ما كتبه الأستاذ كوتشيرا Kutschera في مؤلفه عن الخزر الصادر في فينا سنة ١٩١٠

لقد انتقمت الجماهير منهم لما نزل بها من ضربات القدر القاسـية وهاجمت بعنف من لم يصبهم الطاعون وأعملت فيهم الحديد والنار فلما زالت الأوبئة كانت ألمانيا على حد قول المؤرخين المعاصرين خالية فعلا من اليهود الأمر الذي يدفعنا الى أن نستنتج أنه في ألمانيا ذاتها لم يستطع اليهـود أن يزدهروا ولم يمكنهم قط أن يقيموا جاليات كبيرة وكثيفة ٠ كيف اذن في ضوء هذه الظروف يمكن لهم أن يضعوا في بولندة أسس جمهـور ضخم شديد الكثافة حتى أن عدده اليوم (سنة ١٩٠٩) يفوق عدد اليهود في ألمانيا بنسبة عشرة الى واحد ؟ ، الحق أنه من الصـعب فهم كيف سادت الفكرة القائلة بأن اليهود الشرقيين يمثلون مهاجرين من الغرب وخاصة من ألمانيا (٢١) ٠

ومع ذلك فان المؤرخين كثيرا ما يرجعون نشأة اليهود الشرقيين (أي اليهود في شرق أوربا) الى حادثين من عمل الله deus ex machina.

أولهما الحرب الصليبية الأولى وثانيهما الطاعون الاسود ـ وكما هو الحال في الحروب الصليبية ليس هناك أدنى دليل يشير الى هذا الخروج الخيالي ـ بل على العكس هناك دلائل على أن أمل اليهود الوحيد في البقاء أيام هذا الحدث شأنهم في الحدث السابق هو في أن يتماسكوا معا وأن يبحثوا عن مأوى في مكان حصين أو في بيئة أقل عداء في منطقة مجاورة ـ وجدير بالذكر أن هناك حالة هجرة واحدة في فترة الطاعون الأسود ذكرها الأستاذ ميزس Mieses فيقول ان يهود بلدة سبيرز Spires فرارا مما لاقوه من اضطهاد لجأوا الى هيدلبرج الواقعة على بعد عشرة أميال ٠

وبعد أن أبيدت فعلا الجماعات اليهودية العريقة في فرنسا وألمانيا على أثر الطاعون الأسود بقي غرب أوربا نظيفا من اليهود لمدة قرنين فيما عدا مناطق قليلة محصورة ـ وذلك باستثناء أسبانيا ـ والواقع أن الذين أسسوا الجماعات اليهودية الحديثة في كل من فرنسا وانجلترا وهولندا في القرنين السادس عشر والسابع عشر هم سلالة مختلفة تماما من اليهود ـ هم يهود أسبانيا (السفرديم) فقد أجبروا على الفرار منها بعد أن أقاموا بها مدة تزيد على ألف سنة ـ بيد أن تاريخهم وكذا تاريخ اليهود الأوربيين الحديثين يقعان خارج نطاق هذا الكتاب ٠

ويمكننا أن ننتهي الى القول عن ثقة بأن الفكرة التقليدية القائلة بخروج جماعي لليهود الغربيين من أراضي الراين عبر ألمانيا الى بولندة فكرة لا يمكن الدفاع عنها تاريخيا فهي تتعارض مع ضآلة حجم جماعات الراين ونفورها من التفرع خارج وادي الراين نحو الشرق وسلوكها النمطي الثابت في المحن وعدم ورود اشارة في الحوليات المعاصرة الى حركات هجرة ـ وفضلا عن ذلك كله فان علم اللغة يوفر لنا دليلا يؤيد هذا الرأي سوف نعالجه في الفصل السابع من هذا الكتاب ٠

٧ النيارات المتقاطعة

١ ـ استنادا الى الأدلة التى جاءت فى الفصل السابق يمكن للمرء أن يدرك فى سهولة ويسر لماذا اتفق المؤرخون البولنديون ـ وهم رغم كل شىء ـ أقرب من غيرهم الى المصادر ـ على أنه فى الأزمنة الغـــابرة كانت نشأة معظم السكان اليهود أصلا فى بلاد الخزر (١) بل قد يميل البعض الى أن يبالغ فى هذه الدعوى على غرار الأستـــاذ كوتشـــيرا بالزعم بأن اليهود الشرقيين (يهود شرق أوربا) كانوا مائة فى المائة من أصل خزرى ـ وهو ادعاء قد يمكن الدفاع عنه لو أن الجمـــاعة الفرانكـو ـ راينيه المنحوسة كانت الصنو الوحيد الذى يبحث عن أصله ولكن فى أواخـر العصور الوسطى تصبح الأمور أكثر تعقيدا بقيام وسقوط المستوطنـات اليهودية فى سائر أنحاء مملكة النمسا والمجر والبلقان وهكذا لم يقتصر وجود عدد كبير من السكان اليهود على فيينا وبراغ وحدهما بل كان هناك ما لا يقل عن خمسة أماكن تعرف باسم «قرية اليهود» Judendrof فى منطقة جبال الألب الكورنثية علاوة على مدن يهودية Judendurgs وولايات يهودية Judenstadts فى جبال ستيريا styria وبنهاية القرن الخامس عشر طرد اليهود من كلا الاقليمين ورحلوا الى ايطاليا وبولندة والمجر ـ ولكن ترى من أى بلد نشأوا أصلا ؟ يقينا لم ينشأوا فى الغرب ـ يقول الأستاذ ميزس Mieses فى بحثه الشامل عن هذه الجماعات المتناثرة :

« نجد فى الشرق ـ خلال ذروة العصور الوسطى ـ سلسلة من

المستوطنات تمتد من بافاريا الى فارس والقوقاز وآسيا الصغرى وبيزنطة (ولكن) الى الغرب من بافاريا هناك ثغرة على طول ألمانيا كلها ٠٠ أما عن هجرة اليهود الى الأقاليم الالبية فاننا لا نعرف كيف حدثت ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن المنابع الثلاثة الكبيرة لليهود فى الأزمنة القديمة قد قامت بدورها وهذه المنابع هى ايطاليا وبيزنطة وفارس » ٠

ويلاحظ أن الحلقة المفقودة فى هذا السرد هى مرة أخرى بلاد الخزر التى كانت ـ كما رأينا من قبل ـ بمثابة الوعاء ومحط الانتقال لليهود والمهاجرين من بيزنطة ومن بلاد الخلافة ـ وكان للأستاذ ميزس الفضل الكبير فى دحض الاسطورة القائلة بأن اليهود الشرقيين (شرق أوربا) جاءوا أصلا من بلاد الراين ـ لكنه لم يعرف هو أيضا سوى القدر الضئيل من تاريخ الخزر ولم يدرك أهميته الديموجرافية ومع ذلك قد يكون محقا فى رأيه بوجود عنصر ايطالى بين المهاجرين اليهود الى النمسا حيث لم تكن ايطاليا شبه مشبعة فحسب باليهود منذ العصور الرومانية بل تلقت أيضا ـ مثل ما حدث لبلاد الخزر ـ نصيبها من المهاجرين الوافدين من بيزنطة وهكذا نجد جدولا هزيلا يسيل الى أوربا الشرقية من اليهود « الأصليين » المنحدرين من أصل سامى ـ ولكنه لم يكن سوى مجرى هزيل حيث لم يرد فى السجلات أى نبأ عن هجرة كبيرة لليهود الايطاليين الى النمسا على حين هناك أدلة كثيرة على هجرة عكسية لليهود الى ايطاليا بعد أن اليهود كانوا قد رحلوا الى بولندة كما رحلت جماعات البيوريتان على تفاصيل من هذا النوع من شأنها أن تعتم الصورة وتجعل المرء يتمنى لو أن اليهود كانوا قد رحلوا الى بولنده كما رحلت جماعات البيوريتان على السفينة ماى فلور الى القارة الأمريكية الجديدة ومعهم كافة المستندات مصانة ومرتبة ٠

الا أن الخطوط العريضة لعملية الهجرة يمكن مع ذلك تمييزها والأرجح أن المستوطنات الالبية كانت فروعا لهجرة خزرية عامة الى بولنده استمرت عدة قرون وسلكت طرقا مختلفة عبر أوكرانيا والاقاليم السلافية شمال المجر وربما أيضا عبر البلقان ـ وهناك أسطورة رومانية تتحدث عن غارة (تاريخها غير معروف) شنها يهود مسلحون على ذلك البلد (٣) ٠

٢ ـ وهناك أسطورة أخرى ـ غريبة جدا تتصل بتاريخ اليهود النمساويين أطلقها الحوليون المسيحيون فى العصور الوسطى ثم أحياها بجدية تامة مؤرخون حديثون فى أوائل القرن الثامن عشر ـ وتقول الأسطورة انه فى العصور السابقة للمسيحية كان يحكم الاقاليم النمساوية

سلسلة من الأمراء اليهود ـ وتتضمن الحولية النمساوية التى صنفهـا كاتب يهودى فى عهد البرت الثالث (١٣٥٠ ـ ١٣٩٥) قائمة بأسماء ما لا يقل عن ٢٢ أميرا يهوديا يقال انهم تولوا الحكم على التوالى ـ ولا تقتصر القائمة على ذكر أسمائهم المزعومة والتى لبعضها رنين أسماء أبناء اقليم جبال الأورال وجبال التاى على نحو واضح ولكنها تذكر أيضا مدة حـكم كل منهم والمكان الذى دفن فيه فمثلا تقول ان « سنان » حكم ٤٥ سنة وأنه دفن في ستونتور في فيينا ـ وأن « زيبان » حكم ٤٣ سنة وانه دفن فى تولن وهلم جرا ، وتشمل القائمة أسماء مثل لابتون ومعالون ورابتـان ورابون وافرا وسامك ٠٠٠ الخ وبعد هؤلاء اليهود تولى الحكم خمسة أمراء وثنيين ثم تبعهم حـكام مسيحيـون وتكرر ذكر الأسـطورة ـ مع بعض التعديلات ـ فى كتب التاريخ اللاتينية عن النمسا والتى كتبها هنريكس جند لفنجس Henricus Gundelfingus فى سنة ١٤٧٤ وكثيرون غيره كان آخرهم أنسلمس شرام Anselmus Schram الذى كتب حوليته عن النمسـا فى سنة ١٧٠٢ ويبـدو أنه ظـل يؤمن بصـدق الأسطورة (٤) ٠

ترى كيف نشأت هذه القصة الغريبة ؟ فلنستمع مرة أخـرى الى ما يقوله الأستاذ ميزس الواقع ان مجرد ان هـذه الأسطـورة بالذات استطاعت أن تنتشر وأن تكافح للبقاء عبر قرون عديدة انما يدل على أنه في أعماق الشعور القومي للنمسا القديمـة رسخت ذكريات غامضة عن الوجود اليهودى فى أراضى أعـالى الدانوب في سالف الأيام ٠ ترى من يعرف عما اذا كانت الموجات العارمة التى انطلقت من أملاك الخزر فى شرق أوربا قد اندفعت يوما ما الى التلال الواقعة عند سفح جبال الألب . الأمر الذى قد يفسر المسحة التورانية لأسماء هـؤلاء الأمـراء أجل ان أحاديث مؤرخى الحوليات فى العصور الوسطى يمكن أن تثير صدى عاما وذلك فقط اذا أيدتها ذكريات جماعية مهما كانت غامضة (٥)

ويميل الأستاذ ميزس كما ذكر من قبل الى التقليل من نصيب الخزر فى التاريخ اليهودى ولكنه رغم ذلك اكتشف النظرية المعقولة الوحيدة التي استطاعت تفسير أصل الأسطورة المستمرة ـ بل قد يجازف المرء ويكـون أكثر تحديدا نوعا ما ـ ذلك أنه لمدة تزيد على نصف قرن حتى سنة ٩٥٥ كانت النمسا حتى نهر انز غربا تحت السيطرة المجرية وكان المجريون قد وصلوا الى بلدهم الجديد سنة ٨٩٦ مع قبـائل الكابار ـ الخزر التى سيطرت بنفوذها على الأمة ـ ولم يكن المجريون فى ذلك الوقت قد تحولوا الى المسيحية (تم هذا التحول بعد مرور قرن أي سنة ١٠٠٠ م) وكانت

اليهودية الخزرية هي الديانة الوحدانية المألوفة لهم وحدها ـ وربما كان بينهم رئيس قبيلة أو أكثر طبقوا يهودية من نوع ردىء ـ ونذكر أن مؤرخ الحوليات البيزنطي جون سيناموس أشار الى وجود جنود يهود يحاربون في الجيش المجرى (انظر الفصل الخامس قسم ٢) وهكذا ربما كان هناك أساس ما للأسطورة وخاصة اذا تذكرنا أن المجريين كانوا لا يزالون يعتبرون في فترة غاراتهم الوحشية ـ انهم بلاء أوربا ـ وكان الخضوع لحكمهم اختيارا قاسيا بل جرحا داميا ما كان للنمساويين أن ينسوه ـ كل ذلك ينسجم تماما مع الأسطورة ٠

٣ ـ وهناك دليل آخر ضد الزعم بأن اليهود الشرقيين أصلهم فرانكو ـ رايني ويتلخص هذا الدليل في تركيب اللغة البيدش Yiddish وهي اللغة السائغة بين اليهود ونطقها ملايين معهم قبل المحرقة (الابادة الكاملة) ولا تزال تستخدم بين الأقليات التقليدية في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ٠

واللغة البيدش هي مزيج غريب من العبرية وألمانية العصور الوسطى والسلافية وعناصر أخرى ـ تكتب بالأحرف العبرية ـ وهي الآن في طريقها الى الزوال وأصبحت موضوعا لأبحاث أكاديمية في الولايات المتحدة واسرائيل ولكنها بقيت الى شطر لا يستهان به من القرن العشرين تعتبر في نظر اللغويين مجرد لغة غريبة تكاد لا تستحق دراسة جدية ـ وعلى حد قول الأستاذ هـ ٠ سمث : « لم يعر العلماء لغة البيدش اهتماما يذكر وبصرف النظر عن مقالات قليلة نشرت في المجلات فان أول دراسة علمية لهذه اللغة جاءت على يد الأستاذ ميزس في مؤلفه « النحو التاريخي » الذى نشر سنة ١٩٢٤ ومما له مغزى أن آخر طبعة للنحو التاريخي للغة الألمانية والذى يعالج هذه اللغة من حيث لهجاتها ـ يقتصر عند حديثه عن لغة البيدش على اثنى عشر سطرا ٠

ولأول وهلة يبدو من انتشار الألفاظ الألمانية المعارة في لغة البيدش أن هذا الانتشار يناقض موضوعنا الأساسى عن أصول اليهود الشرقيين ، وسوف نرى الآن أن العكس هو الصحيح بيد أن الدليل على ذلك يتطلب السير في عدة مراحل أولها البحث عن أى نوع محدد من اللهجة الألمانية الاقليمية دخل في مجموع مفردات لغة البيدش ٠ ويبدو أنه لم يعن أحد بهذا الموضوع عناية جدية قبل الأستاذ ميزس الذى له الفضل في أنه عالج هذا الموضوع وأنه جاء باجابة مقنعة ـ وبعد أن استند الى دراسة مفردات وصوتيات وتركيب الجمل في لغة البيدش ومقارنتها باللهجات الألمانية الأساسية السائدة في العصور الوسطى انتهى الى القول : لا توجد

فى اللغة الييدش أية مركبات لغوية منتقة من اقاليم المانيا المطلة على حدود فرنسا ـ وليست هناك فى مفردات لغة الييدش كلمة واحدة من بين كل ما حوته القائمة الخاصة بالأصل الموزلى الفرانكونى Moselle-Franconian لألفاظ تلك القائمة التى جمعها الأستاذ ج. أ. Ballas : Beitrage zur kenntnis der trierschen volkssprache.

بل ان الأقاليم الوسطى فى ألمانيا الغربية حول فرانكفورت لم تسهم بنصيب ما فى اللغة الييدش (٧) والواقع أنه فيما يتعلق بأصول اللغة الييدش يمكن اسقاط ألمانيا الغربية من حسابنا (٨) . ترى هل أسيء فهم الرأي السائد بأنه حدث يوما ما أن اليهود الألمان هاجروا من عرنسا عبر الراين ؟ الحق انه ينبغى مراجعة تاريخ اليهود الألمان ـ اليهود الاشكنازى (انظر الفصل الثامن قسم ١) فان أخطاء التاريخ كثيرا ما يصححها البحث اللغوى والواقع ان الرأى التقليدى القائل بأن هجرة اليهود الاشكنازى السابقة من فرنسا انما ينتمى الى مجموعة الأخطاء التاريخية التى تنتظر التصحيح (٩) .

ثم يقتبس الأستاذ ميزس من بين أمثلة أخرى من الآراء التاريخية الخاطئة قضية الغجر Gypsies الذين كانوا يعتبرون فرعا خرج من مصر « حتى أوضح علم اللغويات بأنهم جاءوا من الهند » (١٠) .

أما وقد حسم ميزس مسألة الأصل الغربى المزعوم للعنصر الألمانى فى اللغة الييدش فقد واصل حديثه ليثبت أن الأثر البارز فيها هو ما يعرف باللهجات الشرقية الوسطى الألمانية التى كانت لغة الاقاليم الالبية فى النمسا وبافاريا حتى القرن الخامس عشر تقريبا ـ بعبارة أخرى فان العنصر الألمانى الذى دخل على اللغة اليهودية الهجين نشأ أصلا فى الاقليم الشرقية من ألمانيا الملاصقة للحزام السلافى لأوربا الشرقية .

وهكذا فان الدليل القائم على علم اللغويات يدعم السجل التاريخى فى رفض الفكرة الخاطئة بأن أصل اليهود الشرقيين هو فرانكو راينى Franco-Rhenish ـ بيد أن هذا الدليل السلبى لا يجيب على السؤال المطروح وهو كيف ان لهجة ألمانية وسطى شرقية ممزوجة مع عناصر عبرية وسلافية أصبحت اللغة المشتركة لليهود الشرقيين الذين نفترض أنهم من أصل خزرى .

ولمحاولة الاجابة عن هذا السؤال لابد لنا من أخذ عدة عوامل فى الاعتبار ـ وأول هذه العوامل أن تطور لغة الييدش كان عملية طويلة ومركبة يحتمل أنها بدأت فى القرن الخامس عشر ان لم يكن قبل ذلك ـ الا أنها بقيت لمدة طويلة لغة الكلام أو قل نوعا من اللغة المشتركة

Lingua Franca ولم تظهر مطبوعة الا فى القرن التاسع عشر ـ ولم يكن لها قبل ذلك قواعد ثابتة للنحو وكان الأمر متروكا للفرد ليدخل عليها ألفاظا أجنبية كما يشاء ، كذلك لم يكن لها شكل ثابت لنطق ألفاظها أو لهجائنا ـ ويمكن بيان الفوضى التى شابت الهجاء بالرجوع الى القواعد التى جاءت فى الدليل اليهودى للشعب Judische Volks Bibliothek والذى ينص على ما يلى :

١ ـ اكتب كما تتكلم ٠

٢ ـ اكتب بحيث يمكن لليهود البولنديين واللتوانيين أن يفهموك ٠

٣ ـ راع اختلاف هجاء الكلمات المتحدة فى الصوت والمختلفة فى المعنى (١١) ٠

وهكذا نمت لغة البيدش عبر القرون عن طريق نوع من التوالد الغير مقيد بحيث يمتص بشدة تلك الألفاظ والجمل والتعبيرات الاصطلاحية التى تؤدى غرضها أحسن أداء بوصفها لغة مشتركة ، بيد أن الألمان كانوا هم العنصر الغالب ثقافيا واجتماعيا فى بيئة بولندة العصور الوسطى حيث كانوا وحدهم بين سائر السكان المهاجرين أكثر نفوذا من اليهود اقتصاديا وثقافيا وقد رأينا منذ الأيام الأولى لأسرة بياست Piast وخاصة فى عهد كازيمير العظيم أن الحكام بذلوا قصارى جهدهم لجذب المهاجرين وتشجيعهم على أن يستعمروا البلد ويقيموا « مدنا حديثة » حتى قيل ان كازيمير وجد « بلدا من الخشب وتركها بلدا من الحجر » ـ ولكن مدن الحجر الجديدة هذه مثل كراكاو (كراكوف) أو لمبرج (لفوف) بناها المهاجرون الألمان الذين عاشوا فى ظل ما سمى بقانون ماجدبرج أى أنهم نعموا بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتى المحلى ويقال ان مجموع الألمان الذين هاجروا الى بولنده لم يقل عن أربعة ملايين (١٢) فأنشأوا فيها طبقة متوسطة حضرية Urban لم يكن لها وجود من قبل وعلى حد قول الأستاذ بولياك وهو يقارن بين هجرة الألمان وهجر الخزر : لقد استورد حكام البلد هذه الجماهير من الأجانب المغامرين الذين كانوا هم فى أشد الحاجة اليهم ويسروا لهم الاستيطان وفقا لأسلوب الحياة التى ألفوها فى بلادهم الأصلية : المدينة الألمانية والمدينة الصغيرة اليهودية (الاشتتل) ـ بيد أن هذا الفصل الدقيق أصبح غير واضح حين جاء فيما بعد يهود من الغرب واستقروا هم أيضا فى المدن وكونوا أحياء حضرية خاصة بهم وحدهم (Ghettoes) ٠

ولم نكن الطبقة الوسطى المثقفة وحدها ألمانية فى غالبيتها بل كذلك كان رجال الدين وكان ذلك نتيجة طبيعية لاختيار بولنده العقيدة الكاثوليكية الرومانية واتجاهها نحو الحضارة الغربية مثلهم مثل رجل الدين الروس بعد أن تحول فالديمير الى العقيدة الأرثوذكسية فكان أغلبهم من البيزنطيين وحذت الثقافة العلمانية الحذو نفسه مقتفية خطوات جارها الغربى المتمرس فأسست أول جامعة فى بولنده فى سنة ١٣٦٤ فى مدينة كراكاو وكانت وقتئذ مدينة ألمانية فى غالبيتها (*) يقول الأستاذ كوتشيرا النمساوى فى شيء من الرضا : « لقد نظر الأهالى الى المستعمرين الألمان فى أول الأمر نظرة يشوبها الشك والارتياب الا أن هؤلاء نجحوا فى توطيد أقدامهم على نحو مضطرد حتى انهم أدخلوا نظام التعليم الألمانى فى بولنده وراح البولنديون يقدرون مزايا الثقافة العليا التى جلبها الألمان اليهم وأخذوا يحاكون أساليبهم الاجنبية كما ولع أفراد الارستقراطية البولندية بالعادات الألمانية ووجدوا الجمال والمتعة فى كل ما جاء من ألمانيا » (١٣) ٠

وليست هذه العبارات متواضعة بمعنى الكلمة ولكنها صادقة فى جوهرها وللمرء أن يتذكر ما حظيت به الثقافة الألمانية من تقدير عظيم بين المفكرين الروس فى القرن التاسع عشر ٠

ومن اليسير أن ندرك لماذا اضطر المهاجرون الخزر الذين تدفقوا على بولنده فى العصور الوسطى ـ الى تعلم اللغة الألمانية ان أرادوا النجاح فى حياتهم ـ أجل لا شك أنه كان لزاما على أولئك الذين كانت لهم علاقات مباشرة بأهالى البلد أن يتعلموا قسطا بسيطا من اللغة البولندية (أو اللتوانية أو الاوكرانية أو السلافية) الا أن اللغة الالمانية كانت الضرورة الأولى فى أى اتصال مع المدن ـ ولكن كان هناك أيضا المعبد اليهودى ودراسة التوراة العبرية ويمكن للمرء أن يتصور حرفيا من مدينة صغيرة يهودية (اشتتل) أو اسكافيا أو تاجر أخشاب وقد راح كل منهم يتكلم لغة ألمانية ركيكة مع عملائه ولغة بولندية ركيكة مع الرقيق الذين يعملون فى الاقطاعية الملاصقة له ثم اذا هو فى بيته يمزج الكلمات الأكثر تعبيرا فى هاتين اللغتين بلغته العبرية ويخلق من هذا الخلط نوعا من لغة خاصة مألوفه ـ أما كيف صار هذا المزيج سائغا وموحد القياس الى الدرجة التى بلغتها فتلك مهمة عالم اللغة ـ ولكن يمكن على الأقل للمرء أن يتبين بعض عوامل اضافية يسرت العملية ٠

(*) وكان من تلامذها فى القرن التالى لانشائها نيقولا كوبرنكس الذى ادعى البولنديون والألمان على حد سواء أنه من بنى وطنهم ٠

وكما رأينا كان هناك أيضا بين المهاجرين الذين وفدوا الى بولنده عدد معين من اليهود الأصليين "Real" Jews من البلاد الالبية ومن بوهيميا وألمانيا الشرقية ورغم أن عددهم كان قليلا نسبيا الا أن هؤلاء اليهود الذين تكلموا اللغة الالمانية كانوا أعلا ثقافة وعلما من الخزر تماما كما كان الألمان الأمميون Gentiles أعلا ثقافة من الايرلنديين — وكما كان رجال الدين الكاثوليك من الألمان فكذلك كان الحاخامات اليهود الوافدون من الغرب عاملا قويا فى اضفاء الصبغة الألمانية على الخزر الذين كانت يهوديتهم متقدة الحماس ولكنها كانت بدائية ولنقتبس بولياك مرة أخرى :

« ان أولئك الألمان الذين وصلوا الى مملكة بولنده — لتوانيا أثروا تأثيرا كبيرا على اخوانهم من الشرق ويكمن سبب انجذاب اليهود (الخزر) اليهم فى اعجابهم بثقافتهم الدينية وبكفاءتهم فى التعامل مع المدن ذات الغالبية الألمانية وكان من شأن اللغة المستخدمة فى مدرسة التعليم الدينى Heder وفى بيت الوجيه أو الرجل الثرى Ghevir أن تؤثر فى لغة الجماعة اليهودية كلها » (١٤) .

وهناك رسالة كتبها أحد الأحبار فى القرن السابع عشر ورد بها الدعاء التالى : « نسأل الله أن يملأ هذا البلد بالمعرفة وأن يتكلم جميع اليهود اللغة الألمانية » (١٥) .

وعلى نحو مميز كانت طائفة القرائين القطاع الوحيد بين اليهود الخزر فى بولنده الذى قاوم كلا الاغراءات الروحية والدنيوية التى هيأتها اللغة الألمانية — فهؤلاء القراءون هم الذين رفضوا تعاليم الأحبار والثراء المادى وبالتالى لم يولعوا قط بلغة البيدش وطبقا لأول احصاء روسى أجرى سنة ١٨٩٧ كان هناك ١٢٨٩٤ من اليهود القرائين فى الامبراطورية القيصرية (التى شملت بطبيعة الحال بولنده) وقد أوضح ٩٦٦٦ فردا من هؤلاء أن لغتهم الأم هى التركية (المفروض انها لغتهم الخزرية أصلا) كما تكلم ٢٦٣٢ فردا اللغة الروسية وأن ٣٨٣ فردا فقط تكلموا لغة البيدش .

بيد أن طائفة القرائين تمثل الاستثناء لا القاعدة وبصفة عامة يميل السكان المهاجرون الذين يستقرون فى وطن جديد الى أن يسقطوا لغتهم الأصلية خلال جيلين أو ثلاثة وأن يتخذوا لغة وطنهم الجديد (*)

(*) لا ينطبق هذا القول بطبيعة الحال على المستعمرين أو الفاتحين الذين يفرضون لغتهم على أهالى البلاد .

فان الأمريكيين أحفاد المهاجرين الذين وفدوا من شرق أوربا لا يتعلمون قط التحدث باللغة البولنـــدية أو الأوكرانية ويرون في ثرثرة أجدادهم شيئا يثير الضحك ـ ومن الصعب أن ندرك كيف يمكن للمؤرخين اغفال البرهان على هجرة الخزر الى بولنده على أساس أن أهلها أصبحوا بعـد مرور أكثر من خمسمائة سنة يتكلمون لغة مختلفة ٠

وبهذه المناسبة فان أفراد سلالة الأسباط الوارد ذكرها في التوراة هم المثل الكلاسيكى للتكيف اللغوى ففى بادىء الأمر تكلموا العبرية وفى فترة الأسر البابلى تكلموا الكلدانية وفى عهد المسيح تكلموا الآرامية وفى الاسكندرية تكلموا اليونانية وفى أسبانيا تكلموا العربية ثم تكلموا فيما بعد اللادينو وهى مزيج من الاسبانية والعبرية وكتبت بالأحرف العبرية فهى المعادل السفردى للغة البيدش ، وقد حافظوا على هويتهم الدينيـــة ولكنهم غيروا اللغات طبقا لمـا يلائمهم ولم ينحدر الخزر من الاسبـاط ولكنهم ـ كما رأينا ـ شاركوا زملاءهم فى الدين نوعا من العالمية والتحرر من الاحقاد القومية وشاطروهم فى بعض الخصائص الاجتماعية الأخرى ٠

٤ ـ وجدير بالذكر أن الأستاذ بولياك اقترح فرضية اضافيــة بشأن الأصول الأولى للغة البيدش رغم أنهــا فرضية مشكوك فيهــا ـ فهو يرى أن « شكل يدش القديم ظهر فى الاقاليم القوطية فى القــرم الخزرية ففى تلك الاقاليم كان لزاما أن تؤدى ظروف الحياة فيهـــا الى تكوين تشكيلة مؤتلفة من عناصر ألمــانية وعناصر عبرية وذلك قبـــل تأسيس المستوطنــات فى مملكتى بولنده ، ولتوانيا (١٦) بمئـــات من السنين ٠

ويذكر بولياك دليلا غير مباشر على ذلك شخصـا يدعى جوزيف باربارو من أبناء فينتسيا وعاش فى تانا (وهى مستعمرة ايطالية تجارية على نهر الدون) من سنة ١٤٣٦ الى سنة ١٤٥٢ يقول بولياك ان هــذا الشخص كتب بأن خادمه الألمانى فى وســـعه أن يتكلم مع قوطى من القرم تماما كما يستطيع ايطالى من فلورنسه فهم لهجة ايطالى من جنوه والواقع أن اللغة القوطية بقيت حية فى القرم (وواضح انها لم تكن كذلك فى أية جهة أخرى) الى منتصف القرن السادس عشر على الأقل ٠ وفى ذلك الوقت قابل غسلان دى بوزبك Ghiselin de Busbeck سفير الهابسبرج فى القسطنطينية عددا من أهالى القرم ووضع قائمـــة بكلمات من اللغة القوطية التى تكلموا بها (ولابد أن هذا السفير كان شخصية ممتازة حيث كان أول من أدخل زهرة الليلاك وزهرة التيوليب الى أوربا من المشرق ، ويعتبر بولياك أن ذخيرة الكلمات هذه قريبة الى

العناصر الألمانية العالية المتوسطة الموجودة فى اللغة البيدش وهو يعتقد أن قوط القرم حافظوا على علاقتهم بقبائل ألمانية أخرى وأن لغتهم تأثرت بها ومهما يرى المرء فى هذه الفرضية فانها جديرة باهتمام علماء اللغة .

٥ ـ كتب سيسل روث ما يلى : يمكن القول ان العصور المظلمة لليهود بدأت بالنهضة الأوربية » (١٧) .

أجل لقد جرت قبل عصر النهضة مذابح وأشكال أخرى من الاضطهاد ـ : خلال الحرب الصليبية والطاعون الأسود وتحت ستار ذرائع أخرى ـ ولكن كانت هذه كلها انفجارات غضب جماهيرية مخالفة للقانون وقد قاومتها السلطات فعلا تاآة أو غضت النظر عنها تارة أخرى ولكن منذ أوائل الحركة المضادة لحركة الاصلاح الدينى صدرت قوانين وضعت اليهود فى مرتبة أدنى من سائر البشر فى نواح كثيرة فكانوا أشبه بالمنبوذين فى نظام طائفة الهندوس .

« ان الجماعات القليلة (اليهودية) التى قدر لها البقاء فى غرب أوربا ـ أى فى ايطاليا وألمانيا والاملاك البابوية وجنوب فرنسا ـ خضعت أخيرا لكل القيود التى كانت العصور السابقة قد أصرت على الابقاء عليها على أساس أنها الهدف الأسمى (١٨) أعنى أنها كانت واردة فى مراسيم كنسية وغيرها ولكنها كانت حبرا على ورق (مثال ذلك ما حدث فى المجر ـ انظر الفصل الخامس قسم ٢) ثم تغير الحال وغدت تلك المراسيم المثالية تنفذ بقسوة : فكان هناك العزل فى السكن ـ والتمييز العنصرى فى العلاقات الجنسية ـ والحرمان من تولى كل المناصب والمهن المحترمة ـ وفرض ارتداء ثياب مميزة : وضع شارة صفراء وغطاء للرأس مخروطى الشكل وفى سنة ١٥٥٥ أصدر البابا بولس الرابع أمرا بابويا أصر فيه على ضرورة تنفيذ المراسيم السابقة التى تفرض على اليهود الاقامة فى أحياء قاصرة عليهم وحدهم (الجيتو) وبعد ذلك بسنة نقل يهود روما بالقوة الى الحى الخاص بهم وحذت البلاد الكاثوليكية الحذو نفسه بعد أن كان اليهود فيها يتمتعون بحرية الحركة نسبيا .

وفى بولنده استمر شهر العسل الذى بدأه كازيمير العظيم فترة أطول مما حدث فى أى بلد آخر ولكن بحلول نهاية القرن السادس عشر انتهى ذلك كله . فاذا بالجماعات اليهودية قد فرض عليها الاقامة فى المدينة الصغيرة (اشتتل) أو الحى الخاص بها (الجيتو) وأصبحت مكدسة

فيهما وزاد الطين بلـه سيل اللاجئين الهاربين من مذابح القـوزاق فى القرى الاوكرانية أيام حكم شملنكى (انظر الفصل الخامس قسـم ٥) الأمر الذى أدى الى تدهور الاسكـان والأحـوال الاقتصادية ـ وكانت النتيجة : موجة جديدة عارمة من الهجرة الجماعية الى المجر وبوهيميـا ورومانيا وألمانيا حيث كانت قلة من اليهود قد بقيت فى أماكن متناثرة بعد أن هلكت الغالبية الكبرى منهم فى الطاعون الأسود ٠

وبالتالى استؤنفت الهجرة الجماعية نحو الغرب واستمرت طيلـة ثلاثة قرون تقريبا حتى الحرب العالمية الثانية وأصبحت المصدر الرئيسى للجماعات اليهودية الحالية فى أوربا والولايات المتحدة واسرائيل ويلاحظ أنه حين خف تيار الهجرة حدثت مذابح القرن التاسع عشر فكانت دافعا جديدا لزيادة أعداد الفارين منها ـ وعلى حـد مـا كتبه سيسل روث : « يمكن القول ان حركة الهجرة الثانية نحو الغرب (يقصد أن الحـركة الأولى يرجع تاريخها الى تاريخ تدمير القدس) التى استمرت الى القرن العشرين ـ بدأت بالمذابح البشعة التى جرت فى بولنده فى عهد الحـاكم تشملنسكى (١٦٤٨ ـ ١٦٤٩) ٠

٦ ـ ان الأدلة التى وردت فى الفصول السابقة تدعم آراء أولئك المؤرخين الحديثين سواء كانوا نمساويين أو اسرائيليين أو بولنديين ـ فقد رأى كل منهم على حدة أن غالبية اليهـود العصريين ليسوا من أصـل فلسطينى بل هم من أصل قوقازى فان التيار الأساسى للهجرات اليهودية لم يتدفق من البحر المتوسط عبر فرنسا وألمانيا الى الشرق ثم العـودة مرة أخرى بل اتجه التيار على نحو ثابت الى الغـرب من القوقاز عبـر أوكرانيا الى بولنده ومن هناك الى أواسط أوربا ـ وعندما نشأت فى بولنده تلك المستوطنات الجماعية التى لم يسبق لها مثيل لم يكن هناك فى الغرب أعداد من اليهود تكفى لتفسير هذه الظاهرة على حين كان هناك فى الشرق أمة بأسرها تتحرك نحو حدود جديدة ٠

وبطبيعة الحال سوف يكون من الحماقة أن ننكر أن يهودا من أصـل مختلف ساهموا أيضا فى المجتمع اليهودى الكائن فى عـالم اليـوم ومن المستحيل أن نحدد النسبة العددية لمساهمة الخزر الى مساهمات الساميين وغيرهم ولكن ما تجمع من البراهين يجعل المرء ميالا الى الاتفاق مع اجماع المؤرخين البولنديين على أنه « فى الأزمنة المبكرة نشأت الكتلة الأساسية من اليهود أصلا من بلاد الخزر » ومن ثم فلابد ان تكون مساهمة الخزر فى التركيب الوراثى لليهود مساهمة جوهرية بل ومهيمنة فى كل الاحتمالات ٠

٨ السلالة والأسطورة

١ ـ ينقسم يهود عصرنا الى قسمين السفرديم والاشكنازى ٠

والسفرديم هم سلالة اليهود الذين عاشوا من قديم فى اسبانيا (اسمهم بالعبرية سفاراد) حتى طردوا منها فى نهاية القرن الخامس عشر واستقروا فى البلاد المطلة على البحر المتوسط وفى البلقان وبدرجة أقل فى غرب أوربا ـ وقد تكلم هؤلاء اليهود لغة اسبانية عبرية اسمها « لادينو » (انظر الفصل ٧ قسم ٣) وحافظوا على تقاليدهم وشعائرهم الدينية وفى سنة ١٩٦٠ قدر عدد السفرديم بخمسمائة ألف ٠

وبلغ عدد الاشكنازى فى الفترة نفسها حوالى ١١ مليونا ـ وهكذا فان لفظ يهودى فى الحديث الشائع هو مرادف فعلا لليهود الاشكنازى ولكن المصطلح مضلل ذلك لأن لفظ اشكنازى العبرى كان فى كتابات أخبار العصور الوسطى ينطبق على ألمانيا وبالتالى يسهم فى الأسطورة القائلة بأن اليهود الحديثين نشأوا على نهر الراين بيد انه ليس هناك مصطلح آخر يشير الى الغالبية من اليهود المعاصرين الذين هم ليسوا من السفرديم ٠

وعلى سبيل الاثارة يجب التنويه الى أن اشكنازى الكتاب المقدس شعب يعيش فى مكان ما على مقربة من جبل أراراط فى ارمينيا ويرد الاسم فى سفر التكوين ـ الاصحاح ١٠ ٠ ٣ و ١ وفى سفر أخبار الأيام الأولى الاصحاح الأول ١ ، ٦ بوصفه أحد أبناء جومر بن يافث ثم ان اشكناز هو أيضا أخو توجارما (وابن أخ ماجوج) الذى ادعى الخزر

ـ طبقا لما ذكره ملكهم يوسف ـ أنه جدهم الأعلى (انظر الفصل الثانى قسم ٥) ولكن الأسوأ ما جاء بعد ذلك فقد ورد ذكر اشكناز أيضا فى سفر أرميا الاصحاح ٥١ ـ ٢٧ حيث يدعو النبى شعبه وحلفاءهم بأن يهبوا ويدمروا بابل « نادوا عليها ممالك أراراط ومنى واشكناز » وقد فسر هذه العبارة سادية جاوون الزعيم الروحى الشهير لليهود الشرقيين فى القرن العاشر على أنها نبوءة تخص عصره : فان بابل رمزت الى خلافة بغداد وان الاشكناز الذين فرض عليهم مهاجمتها كانوا اما الخزر أنفسهم أو قبيلة حليفة ـ وبناء على ذلك يقول بولياك (١) ان بعض المثقفين من اليهود الخزر الذين سمعوا حجج جاوون البارعة أطلقوا على أنفسهم اسم الاشكنازم حين هاجروا الى بولندة ـ وهذا لا يثبت شيئا ولكنه يزيد الموضوع ارتباكا ٠

٢ ـ لخص رافائيل باتال جدلا مريرا عريق القدم فى العبارة التالية :

« أظهرت نتائج أبحاث علم الأجناس البشرية أنه ـ خلافا للرأى الشائع ـ ليس هناك جنس يهودى حيث تدل قياسات الأجسام البشرية التى أجريت على مجموعات من اليهود أنهم يختلفون بعضهم عن بعض اختلافا بينا فى كل الخصائص الجسدية الهامة : القامة ـ الوزن ـ لون البشرة ـ الدليل الرأسى ـ الدليل الوجهى ـ فصائل الدم ٠٠ الخ ٠

والواقع ان هذا هو الرأى الذى يسلم به اليوم علماء الأجناس والمؤرخون وفضلا عن ذلك هناك اتفاق عام على ان مقارنات مقاييس الجماجم وفحوص فصائل الدم ٠٠٠ الخ تدل على أن هناك بين اليهود وأهل البلاد التى استضافتهم تشابها يفوق ذلك الذى بين اليهود الذين يعيشون فى بلاد مختلفة ٠

ومع ذلك ـ وعلى نحو مناقض ـ فانه لا يجب بحال أن نغفل الاعتقاد الشائع القائل بأنه يمكن التعرف على الفور على اليهود أو على الأقل على أنماط معينة منهم ـ ذلك لأن هذا الاعتقاد له أساس واقعى فى الحياة اليومية ـ أجل ان برهان علماء الأجناس يبدو متعارضا مع ما يلاحظه عامة الناس ٠

ومهما يكن من شىء وقبل ان نحاول معالجة التناقض الواضح سوف يكون من المفيد أن نفحص بعناية بعض عينات البيانات التى بنى عليها علماء الأجناس رأيهم فى عدم وجود جنس يهودى ـ وبادىء ذى بدء إليك فقرة مقتبسة من سلسلة الكتيبات الرائعة التى نشرتها منظمة اليونسكو

عن « قضية الجنس في العلم الحديث » وفيها ينتهى مؤلفها الأستاذ جوان كوماس الى النتيجة التالية فى ضوء ما لديه من بيانات احصائية :

وهكذا ـ ورغم الرأى الشائع فان اليهود متغايرو الخصائص من حيث الجنس ـ والواقع ان هجراتهم المتواصلة وعلاقاتهم مع أكبر عدد من الأمم والشعوب سواء كانت اختيارية أو غير ذلك ـ قد أنتجت هجينا هائلا بحيث ان ما يعرف بشعب اسرائيل يمكن ان يبرز أمثلة لسمات نمطية لكل شعب ـ وكدليل على ذلك يكفى على سبيل المثال ـ ان نقارن يهودى روتردام الضارب الى الحمرة القوى الضخم البنية بزميله فى العقيدة يهودى سالونيك بعيونه ذات الومضات الخاطفة ووجهه الشاحب وجسمه الهزيل وبنيته العصبية المزاج ـ وبناء على ذلك وفى ضوء ما لدينا من معلومات يمكننا الجزم بأن اليهود جملة يظهرون درجة كبيرة من التباين المورفولوجى بين أنفسهم مثل ذلك الذى يمكن تواجده بين أفراد جنسين مختلفين أو أكثر (٣) ٠

ثم علينا أن نلقى نظرة على بعض الخصائص الجسدية البدنية التى يتخذها علماء الأجناس معايير لحساباتهم والتى بنى عليها كوماس استنتاجاته ٠

ومن أبسط هذه الخصائص ـ والتى تبين أنها أكثرها سذاجة ـ قامة البدن ـ كتب العلامة وليم ربلى Ripley فى كتابه الخالد « أجناس أوربا » الذى نشر سنة ١٩٠٠ ما يلى :

« ان جميع يهود أوربا هم أصغر من الحجم العادى ـ و لايقتصر الأمر على ذلك ـ بل انهم كثيرا ما يتوقف تماما نموهم الطبيعى » (٤) وكان ربلى صادقا الى حد ما فى ذلك الوقت وجاء باحصائيت كافية تثبت صحة رأيه ولكنه كان بالغ الذكاء حين خمن ان هذا النقص فى القامة ربما كان متأثرا بعوامل بيئية (٥) ـ وبعد مرور احدى عشرة سنة على نشر كتابه أصدر موريس فيشبرج مؤلفه عن اليهود ـ « دراسة فى الجنس والبيئة » وهو أول مسح انثروبولوجى من نوعه صـــدره باللغة الانجليزية وقد كشف عن الحقيقة المذهلة بأن أطفال المهاجرين اليهود الوافدين من شرق أوربا الى الولايات المتحدة الأمريكية بلغ طول قامتهم فى المتوسط ١٦٧٫٩ سم بالمقارنة الى متوسط طول قامة آبائهم ١٦٤٫٢ سم أى انهم كسبوا بوصة ونصف تقريبا ٣٫٧سم فى جيل واحد (٦) ومنذ ذلك الوقت أصبح شيئا مألوفا ان سلالة السكان المهاجرين سواء كانوا يهودا أو غير يهود من ايطاليين أو يابانيين أطول بكثير من آبائهم ولا ريب ان ذلك راجع الى تحسن غذائهم والى عوامل بيئية أخرى ٠

ثم جمع فيشبرج احصائيات للمقارنة بين متوسط طول قامة اليهود وقامة الأمميين Gentiles في بولنده والنمسا ورومانيا والمجر وهلم جرا وكانت النتيجة مثيرة للدهشة مرة أخرى فقد وجد – بوجه عام – ان قامة اليهود اختلفت عن قامة السكان الأمميين الذين يعيشون بينهم بمعنى أنهم كانوا طوالا نسبيا حيث كان السكان الأصليون طوالا والعكس بالعكس . وفضلاً عن ذلك فقد تبين أنه فى داخل الشعب نفسه بل فى داخل المدينة نفسها (وارسو) يختلف طول قامة اليهود وسائر المواطنين بالنسبة الى درجة ازدهار الحى الذى يعيشون فيه (٧) – وليس معنى هذا كله ان الوراثة لا أثر لها على طول قامة الفرد – وانما يغشاها ويعد لها مؤثرات بيئية وهى تصلح معيارا للجنس .

وننتقل الآن الى قياسات الجماجم التى كانت يوما ما الأسلوب الجديد السائد بين الأنثروبولوجيين ولكنها غدت اليوم مهجورة عفا عليها الزمان وهنا نصادف مرة أخرى نفس نمط الاستنتاج الذى بنى على البيانات : « تظهر مقارنة مؤشرات الجماجم الخاصة بالأهالى اليهود والأمميين فى مختلف البلاد شبها ملموسا بين المؤشرات اليهودية والأممية فى كثير من البلاد على حين تبرز اختلافات كبيرة جدا عندما تقارن مؤشرات جماجم اليهود الذين يقطنون فى بلاد مختلفة وهكذا لا مناص للمرء من أن ينتهى الى القول بأن هذه الظاهرة رغم مرونتها انما تشير الى تنوع عرقى لليهود (٨) .

وجدير بالذكر ان هذا التنوع هو أوضح ما يكون بين يهود السفرديم ويهود الاشكنازم وعلى العموم فالسفرديم ذوو رؤوس طويلة أما الاشكنازم فرءوسهم عريضة وقد رأى الأستاذ كوتشيرا فى هذا الاختلاف دليلا جديدا على أن الأصل الجنسى لليهود الخزر الاشكنازى مستقل عن أصل اليهود الساميين السفرديم ولكننا رأينا للتو أن دلائل الرءوس القصيرة أو الطويلة مشتركة فى التنوع مع الشعوب المضيفة – الأمر الذى يدحض البرهان الى حد ما .

ويلاحظ أن الاحصائيات الخاصة بسمات جسدية أخرى تشهد أيضا ضد وحدة الجنس وبصفة عامة لليهود شعر داكن وعيون داكنة ولكن ترى الى أى حد تعنى كلمة « عامة » حين يقرر كوماس أن ٤٩٪ من يهود بولندة كان شعرهم فاتح اللون (٩) وأن ٤٥٪ من الأطفال اليهود فى مدارس النمسا كانوا من ذوى العيون الزرقاء (١٠) حقا ان الأستاذ فرشو (١١) Virchow وجد أن ٣٢٪ من الأطفال اليهود فى مدارس ألمانيا كانوا شقرا على حين كانت نسبة الشقر بين الأطفال الغير يهود أكبر

من ذلك – ولكن هذا يوضح فقط أن التنوع المشترك ليس مطلقا كما قد يتوقع المرء ٠

وينحصر أقوى الأدلة حتى اليوم فى التصنيف القائم على فصائل الدم – فقد بذل حديثا مجهود كبير فى هذا الميدان ولكن يكفى أن نقتبس مثلا واحدا له مؤشر حساس بنوع خاص – يقول الأستاذ باتاى Patai من حيث فصائل الدم تظهر جماعات اليهود اختلافات كبيرة فيما بينها وأوجه شبه ملموسة بأبناء بيئتها – غـــير اليهود – وللتعبير عن ذلك بطريقة أفضل يمكن استخدام الدليل الكيمائى الحيوى لهيرزفيلد وهو

(أ + أ ب)
على الوجه التالى ———— واليك القليل من الأمثلة النمطية :
(ب + أ ب)

	اليهـــود	الغير يهـود
ألمـــان :	٢ر٧٤	٢ر٦٣
رومانيـــون :	١ر٥٤	١ر٥٥
بولنديـــون :	١ر٩٤	١ر٥٥
مغاربـــة :	١ر٦٣	١ر٨٣
عراقيـــون :	١ر٢٢	١ر٣٧
تركستانيـون :	٠ر٩٧	٠ر٩٩ (١٢)

وقد يلخص المرء هذا الوضع فى صيغتين رياضيتين :

(غ – غير يهودى ، ى – يهودى)

(١) غ أ – ى أ > ى أ – ى ب

و :

(٢) غ أ – غ ب ≅ = ى أ – ى ب

وبعبارة أخرى يمكن القول بصفة عامة ان الاختلاف بشأن المعيار الانثروبولوجى بين غير اليهود (غ) واليهود (ى) فى بلد معين (أ) هو أقل من الاختلاف بين اليهود فى بلاد مختلفة (أ ، ب) وأن الاختلاف بين غير اليهود فى البلاد أ ، ب يشبه الاختلاف بين اليهود فى أ ، ب ٠

ولعلها من الملائم أن نختتم هذا الجزء باقتباس آخــر من الكتاب الذى ساهم به الأستاذ هارى شابيرو فى سلسلة كتب منظمة اليونسكو وعنوانه « الشعب اليهودى ـ تاريخ بيولوجى » :

« ان مدى الاختلاف الكبير بين اليهود فى الأقطار المختلفة من حيث خصائصهم الجثمانية وتنوع تردد جينات فصائل دمهم يجعل أى تصنيف جنسى موحد لهم أمرا مناقضا ذلك لأنه على الرغم من أن النظرية الحديثة للأجناس تقر درجة معينة من تعدد الأشكال أو التنوع داخل مجمــوعة جنسية فهى لا تسمح لمجتمعات مختلفة اختلافا واضحا قيست بمعاييرها الخاصة بالجنس أن تعتبر مجموعة واحدة · ومن يفعل ذلك يهدم الأهداف البيولوجية للتصنيف الجنسى ويجعل العملية كلها اعتباطية عديمة المعنى ونادرا لسوء الحظ ما ينفصل هذا الموضوع انفصالا تاما عن الاعتبارات الغير بيولوجية ورغم ما تجمع من دلائل فان هناك محاولات متواصلة لعزل اليهود بطريقة ما بوصفهم كيانا جنسيا واضح المعالم ·

٣ ـ كيف حدثت هذه الظاهرة التوءم أعنى التنوع فى الســمات الجسدية والتشابه مع الشعب المضيف ؟ يجيب أخصائيو علم الوراثة عن هذا السؤال اجابة واضحة فيقولون ان ذلك هو نتيجة تزاوج الأجناس المتزج بضغوط انتقائية ·

يقول فيشبرج « الواقع ان هــذا الأمر هو النقطة الحاسـمة فى انثروبولوجية اليهود : هل هم جنس نقى تغير نوعا ما بمؤثرات بيئية أم أنهم طائفة دينية مؤلفة من عناصر عرقية واكتسبت بالتحول من دين لآخر وبالتزاوج وذلك فى أثناء نزوحهم الى مختلف أنحاء العالم ؟ ثم يترك فيشبرج قراءه دون أن يساورهم أى شك بشأن الاجابة :

« ابتداء من الدليل الوارد فى الكتاب المقدس وما رددته الروايات يبدو أنه حتى فى بداية تكوين قبيلة بنى اسرائيل كان هؤلاء يتألفون فعلا من عناصر عرقية مختلفة ··· فنجد فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين فى ذلك العصر كثيرا من الأجناس : نجد الأموريين وكانوا شقرا مستطيلى الرأس طوال القامة ونجد الحيثيين وكانوا جنسا أسمر البشرة يحتمل أنهم من نمط منغولى ونجد الكوشتيين (Cuschites) وهم جنس شبه زنجى ونجد أجناسا كثيرة أخرى · هذا وقد تزاوج العبرانيون القدامى مع كل هؤلاء كما تشهد على ذلك فقرات كثيرة وردت فى الكتاب المقدس ·

وقد يتوعد الأنبياء ضد « الزواج من بنات يعبدن الها غريبا » الا أن الاسرائيليين المتخلطين لم يكترثوا بهذه التهديدات وكان قادتهم أول من أعطى القدوة السيئة بل ان سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء تزوج هاجر

المصرية وتزوج سيدنا يوسف أسينات Asenath ولم تكن مصرية فحسب بل كانت أيضا ابنة كاهن وتزوج سيدنا موسى فتاة ميديانية اسمها زيبورا — وكان سمسون البطل اليهودى فلسطينيا وكانت أم الملك داود موابيه (الموابيون شعب سامى قديم) وتزوج هو أميرة جيشور Geshur أما الملك سليمان (الذى كانت أمه حبشية) فقد أحب نساء عربيات كثيرات بما فيهن ابنة فرعون وموابيات وعمونيات وأدوميات وحيدونيات وحيثيات .... (*) (١٥) وهكذا تواصل القصة المخزية سرد أحداثها ، كذلك يوضح الكتاب المقدس أن الملك كان قدوة حكام كثيرون سواء كانوا من علية القوم أو من حثالته وعلاوة على ذلك فان التوراة وحرمت على اليهودى الزواج من غير اليهوديات ولكنها استثنت الأسرى النساء فى زمن الحرب ولم يكن عددهن قليلا — ولم يحسن الأمر البابلى النقاء العرقى بل ان أعضاء الأسر الكهنوتية تزوجوا من نساء غير يهوديات وقصارى القول كان الاسرائيليون فى مستهل الشتات جنسا مهجنا تماما وهكذا كانت بطبيعة الحال معظم الشعوب التاريخية وما كانت هذه النقطة فى حاجة الى تأكيد لو لم تكن هناك الأسطورة المتواصلة أسطورة القبيلة التوراتية التى صانت نقاءها العرقى على طول العصور .

وهناك مصدر هام آخر للتهجين ونعنى به الأعداد الوفيرة من أكثر الأجناس اختلافا أولئك الذين تحولوا الى اليهودية — ويشهد على حماس يهود العصور القديمة للتبشير لديانتهم ان اعتنقها فلاشا الحبشة ذوو البشرة السوداء ويهود كاى فنج الصينيون الذين يشبهون الصينيين واليهود اليمنيون يشبهون الطوارق Tuaregs وهلم جرا حتى نصل الى مثلنا الرئيسى أعنى الخزر .

وفى بلاد أقرب من تلك وصل التبشير اليهودى ذروته فى عصر الامبراطورية الرومانية بين سقوط الدولة اليهودية وظهور المسيحية — حيث اعتنق اليهودية كثير من الأسر الارستقراطية فى ايطاليا بل أيضا الأسرة الملكية التى حكمت اقليم اديابين Adeabene ويتحدث فيلو عن كثير ممن اعتنقوا اليهودية فى اليونان ، ويروى فلافيوس جوزيفس Flavius Josephus أن نسبة كبيرة من سكان أنطاكية اعتنقوا اليهودية والتقى القديس بولس فى أثناء رحلاته فى كل مكان تقريبا بين أثينا الى آسيا الصغرى بعدد ممن تحولوا الى اليهودية ب كتب المؤرخ اليهودى ريناخ Reinach يقول « ان الحماس البشيرى كان فى الواقع أحد السمات المميزة لليهودية فى العصر اليونانى — الرومانى وهى سمة لم

(*) الكتاب المقدس — العهد القديم : سفر الملوك الأول الاصحاح ١١ — ١ .

تحرزها قط بالدرجة نفسها قبل ذلك العصر أو بعده ، وليس هناك شك فى أن اليهودية كسبت بهذا الاسلوب عددا وفيرا ممن تحولوا اليها خلال قرنين أو ثلاثة قرون ... ولا يمكن تفسير النمو الكبير فى عدد اليهود فى مصر وقبرص وبرقة دون ان نفترض ان هذا استلزم ضمنا تدفق دم كثير غير يهودى فقد شمل التبشير باليهودية الطبقات العليا والدنيا على حد سواء » .

وقد عوق ظهور المسيحية عملية تمازج الأجناس عن طريق الزواج ووضع الجيتو نهاية مؤقتة لها ولكن قبل تطبيق قواعد الجيتو تطبيقا صارما فى القرن السادس عشر ظلت العملية مستمرة - ويتضح هذا من الأوامر الكنسية المتكررة بتحريم الزواج المختلط مثال ذلك الأوامر التى أصدرها مجلس طليطلة سنة ٥٨٩ ومجلس روما سنة ٧٤٣ ومجلسا اللاتيران الأول والثانى سنة ١١٢٣ وسنة ١٢٣٩ أو مرسوم الملك لادسلاف الثانى ملك المجر سنة ١٠٩٢ ولم يكن لكل هذه الأوامر سوى أثر جزئى كما يتضح من تقرير رفعه الى البابا سنة ١٢٢٩ كبير أساقفة المجر روبرت فون جرين وفيه يشكو من كثرة النساء المسيحيات المتزوجات من يهود الأمر الذى كان من شأنه أن فقدت الكنيسة عدة آلاف من المسيحيين فى سنوات قليلة (١٧) .

وكانت أسوار الجيتو هى الحاجز الفعال الوحيد فلما انهارت بدأت عمليات التزاوج تعود مرة أخرى وزاد معدلها لدرجة أنه حدث فى ألمانيا فى الفترة بين ١٩٢١ و ١٩٢٥ أنه من بين مائة حالة تزوج فيها اليهود كانت ٤٢ منها زواجا مختلطا .

أما فيما يتعلق باليهود السفرديم أو « اليهود الأصليين » فان اقامتهم فى اسبانيا لمدة تزيد على ألف سنة قد تركت عليهم وعلى مضيفهم بصماتها التى لا تمحى - وعلى حد ما كتبه الأستاذ توينبى :

هناك أكثر من سبب يحمل على الاعتقاد بوجود أثر قوى لهؤلاء اليهود المرتدين فى عروق الايبيريين سكان اسبانيا والبرتغال فى الوقت الحاضر وخاصة فى الطبقات العليا والوسطى ومع ذلك فانه من الصعب على أكثر المحللين النفسانيين حذقا أن يكتشف - اذا عرضت عليه عينات حية من أفراد هـذه الطبقـات وتلك من الاسبانيين والبرتغاليين - من منهم كان أجداده من اليهود » (١٩) .

وسارت العملية فى كلا الاتجاهين فبعد مذابح سنة ١٣٩١ و ١٤١١ والتى اكتسحت شبه الجزيرة الايبيرية ارتضى ما يزيد على مائة ألف يهودى - وهو تقدير معتدل - التعميد - بيد أن عددا كبيرا منهم استمر يتبع

اليهودية سرا ويعرف هؤلاء الأعضاء السريون باسم « المارانوس » وقد ازدهرت أحوالهم وتولوا مناصب عالية فى البلاط وفى هيئة الكهنوت وتزاوجوا من الطبقة الأرستقراطية وبعد أن طرد جميع اليهود الغير تائبين من أسبانيا سنة ١٤٩٢ ومن البرتغال سنة ١٤٩٧ تعرض المارانوس لشك متزايد وقضت محاكم التفتيش بحرق كثيرين وهاجر غالبيتهم فى القرن السادس عشر الى البلاد المطلة على البحر المتوسط والى هولندة وانجلترا وفرنسا فلما أصبحوا فى أمان عادوا الى عقيدتهم علانية وأسسوا فى هذه البلاد بالاشتراك مع من طردوا فى السنوات ١٤٩٢ ـ ١٤٩٧ مجتمعات سفردية جديدة .

وهكذا فان ملاحظة توينبى عن السلف الهجين للطبقات العليا فى اسبانيا تنطبق أيضا بعد اجراء جميع التغييرات الضرورية Mutatis mutandis على مجتمعات السفرديم فى أوربا الغربية فقد كان والدا سبينوازا برتغاليين من المارانوس هاجرا الى أمستردام ثم ان الأسر اليهودية العريقة فى انجلترا (التى وصلت منذ زمن طويل قبل التيار الذى تدفق اليها من الشرق فى القرنين ١٩ ، ٢٠) ومنها أسر مونتيفيورى ولوسداس ومونتاجيو وأفيجادور وسوترو وساسون ... الخ جاءت كلها من الوعاء الايبيرى الخليط ولا يمكنها الادعاء بالانتساب الى أصل نقى أكثر نقاء من اليهود الاشكنازى ـ أو اليهود الذين يحملون أسماء ديفز وهارس وفيليبس أو هارت .

ثم كان هناك نمط متكرر يدعو للأسى وهو التزاوج عن طريق الاغتصاب ولهذا الأسلوب أيضا تاريخ طويل بدأ فى فلسطين فيروى لنا على سبيل المثال أن شخصا يدعى يودابن حزقيل عارض زواج ابنه من امرأة لم تكن من سلالة « سيدنا ابراهيم » وعندئذ قال له صديقه أولا Ulla ولكن خبرنى كيف لنا أن نتحقق أننا نحن أنفسنا لا ننحدر من الوثنيين الذين اغتصبوا عذارى صهيون أثناء حصار بيت المقدس ؟ (٢٠) لقد كان الاغتصاب والغنائم حقا طبيعيا للجيش الفاتح (وكانت كمية الغنائم عادة تحدد مقدما) .

وهناك رواية قديمة دونها جراتز Graetz فى مؤلفه عن « تاريخ اليهود » ـ وهى تنسب أصل أقدم المستوطنات اليهودية فى ألمانيا الى حادث يعيد الى الذهن ذكرى اغتصاب نساء السابين Sabine فتذكر الرواية أن أفراد وحدة ألمانية اسمها وحدة فانجيونى Vangioni ـ حاربوا مع الحاميات الرومانية فى فلسطين ـ وهناك اختاروا من بين حشود الأسرى اليهود أجمل الفتيات وأخذوهن معهم الى قواعدهم على شواطىء الراين والمين وأجبروهن على أن يخضعن لشهواتهم ـ وما تتم

عن هذه العملية من أطفال من آباء ألمان ونساء يهوديات تولى هؤلاء الأمهات تربيتهم طبقا للعقيدة اليهودية دون أن يهتم الآباء بأمرهم — ويقال ان هؤلاء الأطفال هم الذين أسسوا الجماعات اليهودية الأولى التى استوطنت الأراضى الواقعة بين ورمز Worms ومايتز Mayence (٢١) .

وفى شرق أوربا كان الاغتصاب أكثر انتشارا ولنقتبس مرة أخرى مما كتبه الأستاذ فيشبرج Fishberg فى كتابه « اليهود — دراسة العرق والبيئة » :

كان هذا التدفق العنيف للدم الغير يهودى الى عروق شعب اسرائيل كثير الحدوث وخاصة في البلاد السلافية وكان من بين الوسائل الأثيرة لدى القوزاق لابتزاز المال من اليهود أنهم كانوا يأخذون عددا كبيرا منهم أسرى لثقتهم بأن اليهود سوف يدفعون فدية للافراج عنهم — وغنى عن الذكر ان النساء كن يفتدين على هذا النحو كان قد تم اغتصابهن على يد هذه القبائل الشبه متوحشة والواقع كان لزاما على « مجلس الأقاليم الأربعة » فى دورته المنعقدة فى شتاء سنة ١٦٥٠ أن يحاط علما بحال هؤلاء النساء المسكينات والأطفال الذين ولدوهن من أزواج قوزاق خلال مدة الأسر وذلك حتى يعمل على جمع شمل الأسرة اليهودية ويصون حياتها الاجتماعية ، وقد حدثت اعتداءات مماثلة على النساء اليهوديات فى روسيا فى أثناء المذابح التى جرت سنة ١٩٠٣ — ١٩٠٥ (٢٢) .

٤ — ومع ذلك — اذا عدنا للنقيض — فكثير من الناس الذين هم ليسوا عنصريين ولا ضد السامية مقتنعون بأنهم يمكنهم معرفة اليهودى من القاء نظرة واحدة — كيف يكون ذلك ممكنا مادام اليهود مجموعة مهجنة على هذا النحو الذى أوضحه التاريخ وعلم الأجناس ؟

أعتقد أن رينان Ernest Renan أدلى بجزء من الاجابة فى سنة ١٨٨٣ حين قال : « ليس هناك نمط يهودى بل هنـاك أنماط يهودية » (٢٣) .

ان نمط اليهودى الذى يمكن معرفته من القاء نظرة واحدة هو نمط خاص بين أنماط كثيرة أخرى — ولكن جزءا ضئيلا فقط من الأربعة عشرة مليون يهودى هم الذين ينتمون الى هذا النمط الخاص ثم ان أولئك الذين يبدون أنهم ينتمون اليه ليسوا دائما يهودا بأية حال — ومن بين السمات الأكثر وضوحا — حرفيا ومجازا — التى يقال انها تميز ذلك النمط الخاص هو الأنف الذى يوصف أوصافا مختلفة فهو سامى أو — معقوف — أو محجن أو يشبه منقار النسر ولكن مما يثير الدهشة أن فيشبرج بعد أن فحص

٢٨٣٦ يهوديا فى مدينة نيويورك لم يجد سوى ١٤٪ منهم لهم أنف معقوف أى بنسبة واحد كل سبعة على حين كان هناك ٥٧٪ لهم أنوف مستقيمة و٢٠٪ فطس الأنف و٦٫٥٪ أنوفهم مسطحة وعريضة (٢٤) ٠

ووصل علماء أجناس آخرون الى نتائج مماثلة بشأن الأنوف السامية فى بولندة وأوكرانيا (٢٥) وعلاوة على ذلك فانا لا نجد اطلاقا هذا الشكل من الأنف بين الساميين الحقيقيين أمثال البدو الأصلاء (٢٦) ومن ناحيه أخرى كثيرا ما نجد بين مختلف القبائل القوقازية وكذلك فى آسيا الصغرى ـ ثم اننا نجد الأنف المعقوف عادة بين أهالى البلاد الأصليين فى هذا الاقليم أمثال الأرمن الجورجيين والاوستيين Ossets والليسغيين Lesghians والايسوريين Aissors وكذلك السوريين كما أننا نجد الأنف المعقوف بين الشعوب التى تقطن بلاد البحر المتوسط أمثال اليونانيين والايطاليين والفرنسيين والأسبان والبرتغاليين وذلك بدرجة أكثر مما نجده بين يهود أوربا الشرقية كما أن الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية كثيرا ما يكون لهم أنوف « يهودية » (٢٧) ٠

وهكذا فان الأنف وحده ليس دليلا مأمونا للتعرف على هوية الشخص ـ وهناك أقلية فحسب ـ قل يهود من نمط معين ـ لهم أنف محدب ـ ولكثير من مجموعات عرقية أخرى الأنف ذاته ومع ذلك فاننا نعرف بالبديهة ان احصائيات الانثروبولوجيين لابد أن تكون خاطئة بشكل ما وللخروج من هذه المشكلة المحيرة فقد ارتأى كل من الأستاذ بدو Beddoe فى مؤلفه عن خصائص اليهود الجثمانية والأستاذ جاكوبز Jacobs فى بحثه عن الخصائص العرقية لليهود الحديثين ـ طريقة ذكية حيث أكدا أن الأنف اليهودى لا يلزم أن يكون محدبا حقا اذا صور صورة جانبية بل لعله مع ذلك يعطى الانطباع بأنه معقوف نظرا لثنية المنخرين ٠

ولاثبات وجهة نظره بأن حالة المنخرين هى السبب فى الصورة المضللة بأن الأنف معقوف يدعو جاكوبز قراءه بأن يكتب كل منهم رقم ٦ بالأفرنجى على أن يكون له ذيل طويل (انظر الشكل ١) على أن يعدله

شكل رقم ١ : شكل رقم ٢ شكل رقم ٣

على النحو التالى فى شكل (٢) وبذلك تختفى الكثير من السمات اليهودية ثم تختفى كلية عندما نرسم الجزء الأسفل ممتدا أفقيا كما هو واضح فى

شـــكل ٣ ـ ويعلق الأســتاذ ربلى Ripley على ما ذكره جاكوبز بقوله « فلتشاهدوا التحول ـ فلا شك أن اليهودى تحول الى رومانى ـ ترى ماذا أثبتنا اذن ؟ أجل لقد أثبتنا أنه هناك فى الواقع تلك الظاهرة ـ ظاهرة الأنف اليهودى حتى وان كانت مختلفة الشكل عن افتراضنا الأول (أعنى معيار الاحديداب) .

ولكن هل هذه الظاهرة قائمة ؟ ان الشكل رقم ١ يمكن أن يمثـل أنف ايطالى أو يونانى أو أسبانى أو أرمنى أو هندى أحمر بما فى ذلك حالة المنخـرين ـ أما كون الأنف أنف يهودى لا أنف هنـدى أحمر أو أرمنى .... الخ فاننـا نستنتج ذلك من القاء نظرة عاجلة على سـائر السمات الأخرى بما فى ذلك أسلوب التعبير والسلوك والملبس ـ انها ليست عملية تحليل منطقى بل انها أقرب الى ادراك عالم النفس لنظرية جستالت ـ أى ادراك الصورة فى جملتها .

وتطبق آراء مماثلة على كل قسمة من قسـمات الوجـه التى تعتبر يهودية النمط : شفاه شهوانية ، شعر داكن أو مموج أو مجعد ، عيون حزينة أو ماكرة أو منتفخة أو منغولية مستطيلة وضيقة وهلم جرا ، فاذا أخذت كل منها على حدة فانها ملك عام لأكثر الشعوب اختلافا واذا وضعت مرة أخرى ـ لنمط معين لليهودى الذى ينحدر من أصل أوربى شرقى ذلك النمط المألوف لدينا ـ ولكن لن تنطبق أدواتنا الخاصة بالهوية على الأنماط المختلفة من اليهود مثل السفرديم (بما فيهم المتجلنزة جدا فى بريطانيا) كما أنها لن تنطبق على النمط السلافى الذى ينتسب الى أواسط أوربا ولا على أنماط اليهود التيوتون الشقر أو أولئك أصحاب العيون المنغولية المستطيلة الضيقة أو اليهود شبه الزنوج ذوى الشعر المجعد .

وكذلك لا يمكننا الجزم والتعرف عن يقين حتى على هذا النموذج الأولى المحدود ـ ويمكن استخدام مجموعة صور الأشخاص التى نشرها كل من فيشبرج وربلى فى لعبة « صدق أو لا تصدق » اذا أنت حجبت الشرح الوارد عن الصورة والذى يبين ان كان صاحبها يهوديا أو غير يهودى ويمكن لعب اللعبة نفسها فى شرفة أو مقهى على شواطىء البحر المتوسط وسوف تظل النتيجة غير حاسمة بطبيعة الحال حيث لن يمكنك أن تجرى وراء الشخص موضع التجربة لتساله عن ديانته أما اذا اشتركت فى هذه اللعبة مع آخرين فسوف تدهش لما ستثيره من خلاف المشاهدين فى الحكم وجدير بالذكر ان التأثر بآراء الآخرين يلعب دورا كبيرا فى الموضوع فمثلا سوف يقال لك « هل علمت ان هارولد يهودى ؟ » فتجيب « لا » أما وقد قلت ذلك الآن فانى بطبيعة الحال أستطيع ادراكه » أو « هل علمت أن الأسرة المالكة بها دم يهودى » « لا .. ولكن ما دمت تقول ذلك ... الخ » وفى

كتاب الأستاذ هتشنسن « أجناس البشر » صورة لثلاث فتيات يابانيات من فتيات الجيشا وعلى الصورة شرح بأنهن يابانيات لهن ملامح يهودية وما أن تقرأ هذا الشرح حتى تقول فى قرارة نفسك ، طبعا ·· ترى كيف فاتنى ذلك ؟ » وبعد أن تمارس هذه اللعبة بعض الوقت تبدأ فى رؤية ملامح يهودية أو ملامح خزرية فى كل مكان ·

٥ ـ ويكمن مصـــدر آخر للحيرة فى الصعوبة البالغة فى فصـل الخصائص الوراثية عن تلك التى تشكلها الخلفية الاجتماعية وعوامل أخرى فى البيئة ـ لقد صادفتنا هذه المشكلة عند بحث موضوع القامة الجسدية بوصفها معيارا عرقيا مزعوما بيد أن تأثير العوامل الاجتماعية على بنية الفرد وأساريره وسلوكه وطريقة نطقه وحديثه وايماءاته وثيابه ـ نقول ان هذا التأثير يعمل بوسائل أكثر دهاء وتعقيدا فى تجميع أدوات الهوية اليهودية ـ وأوضح هذه العـوامل هى الثيـاب (بالاضافة الى تسريحة الشعر) ، زود أى انسان بضفائر لولبية جانبية وطاقية وقبعة سـوداء عريضة الحافة وقفطان أسود طويل وفى لمح البصر سوف تتعرف على النمط اليهودى المألوف ـ وسوف يبدو هذا الانسان يهوديا مهما كان شكل أنفه·

وهناك مؤشرات أقل فعالية بين أنواع الثياب التى يفضلها أنماط معينة من اليهود المنتمين لطبقات اجتماعية معينة الى جانب نبرات صوتهم وأسلوبهم المميز فى الكلام وايماءاتهم وسلوكهم الاجتماعى ·

وسوف يرحب القارىء بتحولنا لحظة عن الحديث عن اليهود وانتقالنا الى موضوع آخر : فلنستمع الى كاتب فرنسى وهو يصف كيف يستطيع مواطنوه التعرف على شخصية الرجل الانجليزى ـ والكاتب المذكور هو ميشيل ليرى Michel Leiris وفضلا عن انه من الكتاب الفرنسيين المشهورين فهو مدير الأبحاث فى المركز القومى للأبحاث العلمية وعضو هيئة علماء متحف الانسان ـ يقول الأستاذ ليرى :

انه ···· من السخف أن نتحدث عن « جنس » انجليزى أو حتى أن نعتبر الانجليز من الجنس النوردى ، وحقيقة الأمر ان التاريخ يعلمنا ان الشعب الانجليزى مثـل كل شعوب أوربا أصبح ما هو عليه نتيجـة اسهامات متعـــاقبة لشـــعوب مختلفة فانجلترا هى بلد كلتى Celtic استعمرت جزئيـا بموجـات متوالية من السكسون والدانمركيين وكذا النورمان الوافدين من فرنسا علاوة على اضافة عنصر من سلالة الرومان من عصر يوليوس قيصر فصاعدا وفضلا عن ذلك فعلى حين يمكن معرفة الانجليزى من طريقة ملبسه أو حتى من سلوكه الا انه من المستحيل أن تقرر بأنه انجليزى من مظهره الجسدى فحسب فبين الانجليز ـ شأنهم

شأن غيرهم من الأوربيين ـ أفراد شقر وآخرون داكنو اللون ـ وهناك طوال القامة وقصار القامة وأصحاب الرءوس المستطيلة وأصحاب الرءوس القصيرة ـ أجل قد يقال ان الانجليزى يمكن التعرف عليه بسهولة عن طريق خصائص خارجية معينة تضفى عليه مظهرا خاصا به وحده : التحفظ فى الايماءات (على خلاف أهل الجنوب الذين يكثرون من الاشارات والايماءات التقليدية فى أحاديثهم) ومشيته وتعبير وجهه وكلها تعبر عما يندرج عادة تحت الاصطلاح الغامض المسمى « البرود » Phlegm ومع ذلك فان أى انسان يسلم بهذا الادعاء يحتمل أن يكشف أنه مخطىء فى أحوال كثيرة فليس لكل الانجليز هذه الخصائص اطلاقا وحتى لو كانت هذه من خصائص « الانجليزى النمطى » فستظل الحقيقة قائمة بأن هذه الخصائص الظاهرية ليست هى بنية الجسم Sphysique بالمعنى الصحيح: فان الايماءات البدنية والحركات وتعبيرات الوجه تندرج كلها تحت باب السلوك ونظرا لكونها عادات تقررها خلفية الفرد الاجتماعية فهى مكتسبة وليست طبيعية وعلاوة على ذلك فعلى الرغم من أنها توصف وصفا فضفاضا بأنها « سمات » الا أنها لا تمثل شعبا بأسره بل مجموعة اجتماعية معينة فى داخله وبالتالى لا يمكن ادراجها بين العلامات المميزة للجنس (٢٩) .

ومهما يكن من شىء فان ليرى حين يقول ان تعبيرات الوجه ليست من « بنية الجسم » Physique بل تندرج تحت باب السلوك فانه يبدو أنه غفل عن أن السلوك يمكن أن يعدل أسارير وجوه الأفراد وبالتالى يترك طابعه على « بنية » أجسامهم ـ وليس على المرء الا أن يتصور سمات نمطية معينة فى المظاهر الخارجية لمثلين مسنين هابطين أو لقساوسة يعيشون فى تبتل أو جنود محترفين أو مجرمين يقضون سنوات طويلة فى السجن أو بحارة أو فلاحين وهلم جرا فان أسلوب حياة كل هؤلاء لا يقتصر أثره على تعبيرات وجوههم بل يشمل أيضا ملامحهم البدنية الأمر الذى يعطى بالتالى الانطباع الخاطىء بأن هذه الملامح وراثية أو من أصل عرقى (*) .

وان جاز لى اضافة ملاحظة شخصية فأود أن أقول اننى كثيرا ما قابلت أثناء زياراتى للولايات المتحدة عددا من أصدقائى من أيام الشباب من أهالى أواسط أوربا وكانوا قد هاجروا الى أمريكا قبل الحرب

(*) كتب امرسن فى مقاله « سمات انجليزية » يقول : لكل طائفة ملامحها فلطائفة الميثودين مظهرها الخارجى ولطائفة الكويكر مظهرها الخارجى وللراهبات مظهرهن الخارجى وسوف يتعرف الانجليز على المنشق بسلوكه وتصرفاته ثم ان الحرف والمهن تنقش خطوطها الخاصة بها على الوجوه والهيئات .

العالميه الثانية ولم أرهم منذ ثلاثين أو أربعين سنة ـ وفي كل مرة قابلتهم فيهـا كنت أدهش أنهم لم يقتصروا على أنهم ارتدوا الثيـاب الأمريكية وتكلموا وأكلوا وتصرفوا كالأمريكيين بل انهـم فوق ذلك اكتســبوا الملامح الأمريكية واني عاجز عن وصف هذا التغير فيما عدا أن له تصيبيا ما في اتساع الفك ونظرة معينة في العينين وحولهما (وقد نسب صديق لي من العلماء الانثروبولوجيين الأمر الأول الى الاستخدام المتزايد لجهاز الفك العضلي في النطق الأمريكي للألفاظ أما الأمر الثاني فينسبه الى التنافس الشديد في الحياة وما ينتج عنه من التعرض للاصابة بقرحة الاثنى عشر) وقد اغتبطت حين اكتشفت ان هذا لم يكن راجعا الى ألاعيب خيالي ـ حيث كتب فيشبرج في سنة ١٩١٠ ملاحظة مماثلة قال فيها : ان شكل الوجه يتغير بسهولة كبيرة بتغير البيئة الاجتماعية وقد لاحظت هذا التغير السريع بين المهاجرين في الولايات المتحدة ···· وقد تلاحظ هذه الملامح بصفة أفضل عنـدما يعود بعض هؤلاء المهاجرين الى أوطانهم الأصلية ـ وهذه الحقيقة دليل رائع على أن العناصر الاجتماعية التي يتحرك فيها الانسان تمارس أثرا عميقا على سماته البدنية » (٣٠) ·

ان الولايات المتحدة التي اشتهرت بأنها البوتقة التي ينصهر فيها المهاجرون على اختلاف أعراقهم بحيث تجعلهم ذوي ملامح أمريكية أو قل نمطـا قياسيا للطميم (الذي تطمـه صفات العشـيرة العامة لا الصـفات الوراثية) الناشيء من مجموعة مختلفة الطراز العرقي ـ بل ان الصينيين واليابانيين الخلص في الولايات المتحدة يبدو أنهم تأثروا بالعملية الى حد ما على أية حال فبوسع المرء أن يتعرف على الوجه الأمريكي في لمح البصر بغض النظر عن الملبس والكلام وبغض النظر أيضا عما اذا كان أسلاف صاحبه ايطاليين أو بولنديين أو ألمان ·

٦ ـ عنـــدما تثار أية مناقشة حـول ميراث اليهـود البيولوجي والاجتماعي فلابد لشبح الجيتو أن يطغى عليها ـ ذلك أن يهود أوربا وأمريكا بل وشمال افريقية هم أطفال الجيتو لما لا يتعدى أربعة أو خمسة أجيال مضت ـ ومهما كان أصلهم الجغرافي فقد عاشوا داخل أسـوار الجيتو في كل مكان وفي نفس البيئة تقريبا التي خضعت لعدة قرون لذات المؤثرات البناءة أو الهدامة ·

ويمكننا ـ من وجهة نظـر عالم الوراثة ـ أن نميز ثلاثة مؤثرات هامة : التوالد الداخـلي Inbreeding. وتزايـل الأفـــراد الوراثي Genetic Drift ـ والانتقاء Selection ·

وربما لعب التوالد الداخلي دورا كبيرا في التاريخ العرقي لليهود لا يقل عن دور نقيضــــه أعني التهجين ـ ذلك أن تزاوج الأجناس كان

النزعة الغالبة من عصور الأسفار الأولى ـ الى عصر العزل الاجبارى وكذلك فى الأزمنة الحديثة ـ وامتدت بين هذه الفترة ثلاثة أو خمسة قرون (طبقا للبلد) ساد فيها العزل والتوالد الداخلى وحرص كلاهما على أن تكون الزيجات بالمعنى الدقيق من دم واحد ـ وبالمعنى العام بين الأقارب الأدنين داخل جماعة صغيرة منعزلة عبقريا ويحمل التوالد الداخلى خطر جذب جينات منحسرة ضارة جنبا الى جنب واطلاق العنان لها لتعمل عملها وقد عرف منذ زمن طويل أن نسبة الغباء الوراثية بين اليهود هى نسبة عالية (٣١) ويحتمل جدا انها نتيجة التوالد الداخلى على مر الزمن ولم تكن كما أكد بعض العلماء الانثروبولوجيين ـ خاصية عرقية سامية. وهناك تشوهات عقلية وجسدية متكررة الحدوث بشكل واضح فى القرى الالبية النائية حيث تبين معظم مشاهد القبور فى فناء الكنيسة قائمة أسماء أسر ليس بينها اسم كوهين أو ليفى .

ولكن من جهة أخرى قد ينتج عن التوالد الداخلى خيول سباق ممتازة وذلك عن طريق توليف جينات مؤاتية ـ وربما ساهم التوالد الداخلى فى انتاج المتخلفين عقليا والعباقرة بين أطفال حارة اليهود (الجيتو) على حد سواء ـ الأمر الذى يعيد الى الذاكرة مقولة حاييم وايزمان « ان اليهود هم كغيرهم من الشعوب وانما بدرجة أكثر » بيد أن علم الوراثة لا يقدم سوى القليل من المعلومات فى هذا المجال .

وهناك عملية أخرى ربما أثرت تأثيرا عميقا فى سكان حارة اليهود (الجيتو) ـ نعنى بها « تزايل الأفراد الوراثى » Genetic Drift (وتعرف أيضا باسم اثر سيوال رايت) وتشير هذه العملية الى فقدان السمات الوراثية فى مجموعات صغيرة منعزلة من السكان اما لأن ما من أحد من مؤسسيها كانت له الجينات المماثلة أو لأن عددا قليلا منهم فحسب كانت له هذه الجينات ولكنهم فشلوا فى نقلها الى الجيل الثانى. وهكذا يمكن لتزايل الأفراد الوراثى أن ينتج تغيرات كبيرة فى الخصائص الوراثية للمجتمعات الصغيرة .

أما الضغوط الانتقائية الفعالة داخل أسوار حارة اليهود (الجيتو) فلابد أنها كانت شديدة بدرجة يندر أن نجد مثيلا لها فى التاريخ ـ فنظرا لأن اليهود حرم عليهم ممارسة الزراعة فقد غدوا من أهل الحضر تماما وتركزوا فى المدن أو المدن الصغيرة Shtetl التى اكتظت بهم على نحو مضطرد ـ وكانت النتيجة على حد قول الأستاذ « شابيرو » ان الأوبئة الفتاكة التى اكتسحت بنادر ومدن العصور الوسطى كان لابد لها على المدى الطويل أن تكون أكثر انتقاء بالنسبة للسكان اليهود من غيرهم تاركة اياهم بمناعة تزداد يوما بعد آخر على مر الزمن .... وبناء على ذلك فان أفراد

سلالتهم الحديثين يمثلون من بقوا على قيد الحياة بعد عملية انتقائية قاسية مميزة (٣٢) ـ ويرى شابيرو ان هذا قد يفسر ندرة مرض السل بين اليهود وكذا طول أعمارهم نسبيا (وأيد رأيه هـذا باحصاءات جمعها الأستاذ فيشبرج) ٠

وتراوحت الضغوط العدائية التى طوقت حارة اليهود « الجيتو » بين الاحتقار المهين الى أعمال العنف بين حين وحين الى المذابح المنظمة ـ ولابد أن عدة قرون من الحياة فى مثل هذه الأحوال يسرت البقاء لأكثرهم استرخاء ومرونة وقابلية للتكيف عقليا بعبارة أخرى لمن هم من نمط حارة اليهود (الجيتو) ـ وسواء كانت هذه السمات السيكولوجية مبنية على ميول وراثية تقوم عليها عملية الانتقاء أو أنها انتقلت بالوراثة الاجتماعية عن طريق اشراط الطفولة فان هذه المسألة لا تزال موضع جدل عنيف بين الانثروبولوجيين ٠ بل اننا لا نعرف الى أية درجة ينسب معدل الذكاء 1q الى الوراثة ولأية درجة ينسب الى البيئة ـ خذ مثلا ما اشتهر به اليهود يوما ما بالاعتدال فى شرب الخمر الأمر الذى جعل بعض الثقاة فى موضوع المسكرات ـ يعتبرونه سمة عرقية (٣٣) ٠ ولكن يمكن للمرء أن يفسره بانه ارث آخـر ورثوه من حارة اليهود (الجيتو) ـ أو قل الرواسب اللاواعية الباقية من العيش عدة قرون تحت ظروف محفوفة بالمخاطر حياة استلزمت من المرء ألا يقلل من حذره ووسائل الدفاع عن نفسه فكان لزاما على اليهودى وقد وضع على ظهره النجمة الصفراء أن يظل حذرا ويقظا بينما هو يراقب بازدراء فكه السلوك الغريب لسكير مترنح ـ وعلى طول أجيال متعاقبة حرص الآباء على أن يغرسوا فى أبنائهم الابتعاد عن شرب الخمر وعن غيره من الملذات الحسية واستمر الحال على هذا المنوال حتى تلاشت ذكريات حارة اليهود (الجيتو) فزاد شرب الخمر شيئا فشيئا وهكذا ثبت فى النهـاية ان الاعتـدال فى ضروب الملذات مثله مثـل الكثير من الخصـائص اليهودية الأخرى هو رغم كل شىء مسألة وراثية اجتمـاعية وليست بيولوجية ٠

وأخيرا هناك علاوة على ذلك عملية تطورية أخرى هى عملية الانتقاء التناسلى ولعلها ساهمت فى انتاج السمات التى أصبحنا نعتبرها يهودية النمط ويبدو أن الأستاذ ربلى كان أول من صرح بهذا الرأى فى كتابه « أجناس أوربا » (*) حيث يقول : ان اليهودى هو أساسا خليط من حيث

(*) يرى ربلى « ان اليهود فى أوربا قد امتصوا كثيرا من الدماء المسيحية عن طريق كثير من الصلات الجنسية غير المشروعة فقد كانت القوانين فى العصور الوسطى تمنع وجود انثى مسيحية فى بيت يهودى للخدمة أو لغيرها من الشئون حتى لا يقع اتصال جنسى بين المسيحيات واليهود مادامت الكنيسة تحرم الزواج بينهما ولكن القانون لم يحل اطلاقا =

السلالة العرقية ثم هو من جهة أخرى الوريث الشرعى لكل ما جاءت به اليهودية وقد أثرت هذه الديانة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة اليهود ــ فلماذا لا ينعكس أثرها أيضا على مثلهم الأعلى للجمال الجسدى ؟ ولماذا لا تؤثر فيما يفضلونه من علاقات تناسلية وتقرر كذلك اختيارهم فى الزواج ؟ وبالتالى غدت نتائجها بارزة عن طريق الوراثة (٣٤) ٠

ولم يتطرق ريلى فى بحثه الى موضوع المثل الأعلى للجمال الجسدى كما تصوره حارة اليهود (الجيتو) ــ ولكن فيشبرج فعل ذلك وجاء برأى طريف حيث يقول : يرى اليهودى قويم الايمان فى شرق أوربا أن الشخص القوى العضلات هو مثل عيسو (*) ــ على حين ان فى العصور السابقة لمنتصف القرن التاسع عشر كان المثل الأعلى لابن من أبناء يعقوب ــ شابا ناعما(٣٥)٠وكان هذا شابا رقيقا سيماؤه حزينة متقد الذكاء تعوزه القوة العضلية ــ ثم يواصل فيشبرج كلامه فيقول وهناك فى الوقت الحاضر فى غرب أوربا وأمريكا ميل قوى نحو الاتجاه المضاد فكثيرون من اليهود فخورون بأنهم لا يشبهون اليهود ــ فاذا أخذنا هذا فى الاعتبار فلابد من الاعتراف أنه من العسير أن يكون هناك مستقبل زاهر لما يسمى قالب لملامح اليهودية ٠ وقد نضيف الى ذلك لاسيما بين الشباب الاسرائيلى ٠

الخلاصة :

لقد حاولت فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن أتتبع تاريخ امبراطورية الخزر فى ضوء المصادر القليلة الموجودة ٠

وجمعت فى الجزء الثانى فى الفصول ٥ ــ ٧ الدليل التاريخى الذى يوضح ان غالبية اليهود الشرقيين ــ ومن ثم يهود العالم هم من أصل خزرى تركى لا من أصل سامى ٠

وحاولت فى هذا الفصل الأخير أن أبين ان الدليل القائم على علم الأجناس يتفق مع التاريخ فى دحض الاعتقاد الشائع بوجود جنس يهودى انحدر من قبيلة الأسفار الأولى ٠

= بين وقوع اليهود والمسيحيات أو بين المسيحيين واليهوديات مما أدى الى امتزاج الدماء ٠٠ ثم ينتهى ريلى الى القول بأن تسعة أعشار يهود العالم لا يمتون الى اليهود الأولين بأى شبه وأن القول بنقاء دماء اليهود حديث خرافة » : الدكتور حسين فوزى النجار : أرض الميعاد ص ١٩٥ ٠ (المترجم) ٠

(*) عيسو هو ابن اسحق ابن سيدنا ابراهيم من زوجته ساره واخوه التوأم هو يعقوب ومن نسل اسحق كان بنو اسرائيل ٠

ومن وجهة نظر عالم الأجناس هناك مجموعتان من الحقائق ضد هذا الاعتقاد : الاختلاف الهائل بين اليهود من حيث الخصائص الجسدية والشبه الواضح بينهم وبين المواطنين غير اليهود الذين يعيشون بينهم ـ وينعكس الاختلاف والتشابه كلاهما فى الاحصـائيات التى أجريت عن طول القامة ـ ودليل قياس الرأس ـ وفصائل الدم ـ ولون الشعر والعين٠٠الخ فأى معيار من هذه المعايير الانثروبولوجية تتخذه مؤشرا لك سوف يبين تشابها بين اليهود وغير اليهود من أبناء الشعب الذين يستضيفونهم ـ وهذا التشابه يفوق ذلك القائم بين يهود يعيشون فى بلاد مختلفة ـ وتلخيصا لهذه الحالة فقد اقترحت الصيغة التالية (غ غير اليهودى ، ى يهودى) :

غ أ ــ ى أ = ى أ ــ ى ب

غ أ ــ غ ب = ى أ ــ ى ب ٠

ويكمن التفسير البيولوجى للظاهرتين فى تمازج الأجناس ذلك الذى اتخذ أشكالا مختلفة فى ظروف تاريخية مختلفة :

التزاوج (*) ـ التبشير على نطاق واسع ـ الاغتصاب (المقنن أو المباح) الذى رافق دواما الحروب والمذابح ٠

ورغم ما أشرنا اليه من بيانات احصائية فان الاعتقاد بأن هناك نمطا يهوديا يمكن تمييزه انما يقوم الى حد كبير ـ لا كلية ـ على آراء مختلفة خاطئة ـ فيلاحظ أنه يغفل حقيقة أن القسمات التى تعتبر يهودية النمط بالنسبة الى الشعوب الشمالية Nordic لا تعتبر كذلك فى بيئة البحر المتوسط كما أنه يتجاهل أثر البيئة الاجتماعية على بنية الجسم وملامح الفرد ويخلط الوراثة البيولوجية بالاجتماعية ٠

ومع ذلك هناك سمات وراثية معينة تصور نمطا معينا لليهودى المعاصر وفى ضوء علم الوراثة الحديث يمكن أن تنسب تلك السمات الى حد بعيد الى عمليـات جرت خلال قرون عديدة فى ظروف العزلة التى تميزت بها الحياة فى حارات اليهود (الجيتو) أعنى التوالد الداخلى ـ تزايل الأفراد الوراثى ـ والضغط الانتقائى ـ وقد عمل هذا الأخير بوسائل شتى وهذه هى : الانتقاء الطبيعى (الأوبئة مثلا) ـ والانتقاء الجنسى وأخيرا ـ ثم وهو

(*) فى أسفار العهد القديم ما يشير الى تحلل اليهود من فريضة تحريم الزواج من غيرهم فقد تزوج سليمان من مصرية ٠٠٠ وتزوج كثير من بنى اسرائيل من عربيات وتزوجت كثيرات من الاسرائيليات من أعراب : الدكتور حسين فوزى النجار : أرض الميعاد ص ١٩٤ ٠ (المترجم)

أمر يشوبه قدر أكبر من الشبك ـ انتقاء قسمات الشخصية التى نميل الى البقاء داخل أسوار حارة اليهود (الجيتو) ٠

وبالاضافة الى كل ما سلف قامت الوراثة الاجتماعية ـ عن طريق اشراط الطفولة بدور قوى فى كل البناء والهدم ٠

وقد ساهمت كل هذه العمليات فى ظهور ما يعرف بنمط حارة اليهود (الجيتو) وخف هذا النمط شيئا فشيئا فى فترة ما بعد الجيتو ـ ونكاد لا نعرف شيئا عن التكوين العرقى والمظهر البدنى للسلالة السابقة لفترة حارة اليهود (الجيتو) وقد كانت هذه السلالة الأصلية فى معظمها ـ طبقا للرأى الذى عرض فى هذا الكتاب ـ تركية ومختلطة الى درجة غير معروفة بعناصر فلسطينية قديمة وعناصر أخرى ـ ثم انه لا يمكن الجزم أى تلك القسمات التى تسمى قسمات نمطية كالأنف اليهودى ـ جاءت نتيجة الانتقاء الجنسى أو « الجيتو » أو انها كانت مظهرا لمورثة (جينه) خاصة «ومتواصلة» فى قبيلة بذاتها ـ ولما كان شكل الأنف المذكور ـ شائعا بين الشعوب القوقازية ونادرا بين البدو الساميين فلدينا هنا مؤشر جديد عن الدور الكبير الذى لعبته القبيلة الثالثة عشرة فى تاريخ اليهود البيولوجى ٠

دليـل المراجـع

المشار اليها بالأرقام الواردة فى النص

الفصل الأول

الرقم	المرجـــع
١	ـ قنسطنطين بورفيروجينيتس ـ كتاب المراسم جـ ١ ص ٦٩٠ .
٢	ـ بيورى (١٩١٢) ص ٤٠٢ .
٣	ـ دانلوب (١٩٥٤) المقدمة ص ٩ ـ ١٠ .
٤	ـ بارتا (١٩٦٨) ص ٣٥ .
٥	ـ بولياك (١٩٥١) .
٦	ـ كاسل (١٨٧٦) .
٧	ـ بارتا ص ٢٤ .
٨	ـ بارتا ص ٢٤ .
٩	ـ بارتا ص ٢٤ و ١٤٧/١٤٩ .
١٠	ـ أرتامونوف : تاريخ الخزر (١٩٦٢) .
١١	ـ دانلوب ص ١١ نقلا عن ابن سعيد المغربى .
١٢	ـ دانلوب ص ١٨٢ نقلا عن شولتز (١٩٠٥) ص ٢٣ .
١٣	ـ دانلوب ص ١٨٢ نقلا عن ماركار ص ٤٤ .

الرقم	المرجـــع
١٤ ـ	دانلوب (١٩٥٤) ص ٩٦ ٠
١٥ ـ	ابن البلخي : فارس نامه ٠
١٦ ـ	جيبون جـ ٥ ص ٨٨/٨٧ ٠
١٧ ـ	دانلوب ص ٢٩ اقتباس عن بوسى من كلانكاتوك ٠
١٨ ـ	ارتامونوف (١٩٦٢) ٠
١٩ ـ	أوبونسكى (١٩٧١) ص ١٧٢ ٠
٢٠ ـ	جيبون ص ٧٩
٢١ ـ	جيبون ص ١٨٠ ٠
٢٢ ـ	جيبون ص ١٨٢ ٠
٢٣ ـ	دانلوب ص ١٧٦
٢٤ ـ	زكى وليدى طوقان
٢٥ ـ	المصدر السابق ص ٥٠
٢٦ ـ	المصدر السابق ص ٦١ ٠
٢٧ ـ	الاصطخرى ٠
٢٨ ـ	دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٠٧ نقلا عن المسعودى ٠
٢٩ ـ	ابن حوقل والاصطخرى (الذى ذكر أربعة آلاف حديقة فقط) ٠
٣٠ ـ	بارون جـ ٣ ص ١٩٧ نقلا عن المسعودى ٠
٣١ ـ	توينبى (١٩٧٣) ص ٥٤٩ : حياة قنسطنطين ٠
٣٢ ـ	زكى وليدى طوقان ص ١٢٠ ٠
٣٣ ـ	بارتا ص ١٨٤ ـ اقتباس ٠
٣٤ ـ	بارتا ص ١٣٩ ٠
٣٥ ـ	دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٣١ ـ اقتباس
٣٦ ـ	بارتا ص ١٤٣ ـ ١٤٥ ٠
٣٧ ـ	لاسلو جـ (١٩٧٤) ص ٦٦ ٠
٣٧أ ـ	دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٠٦ ـ اقتباس ٠
٣٨ ـ	حدود العالم رقم ٥٠ ٠
٣٨أ ـ	دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ نقلا عن المسعودى ٠
٣٩ ـ	بيورى (١٩١٢) ص ٤٠٥ ٠

الرقم المرجـــع

٤٠ ـ زكى ولبيدى طوقان ص ٢٦٩ نقلا عن سان جوليان ·

٤١ ـ كاسل ص ٥٢ ·

٤١أ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ نقلا عن الاصطخرى ·

٤٢ ـ ابن حوقل ـ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ·

٤٣ ـ بيورى ص ٤٠٥ ·

الفصل الثانى

١ ـ بيورى ص ٤٠١ ·

٢ ـ بيورى ص ٤٠٦ ·

٣ ـ شارف (١٩٧١) ص ٦١ ·

٣أ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٨٩ عن المسعودى ·

٤ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٨٤ ·

٥ ـ شارف ص ٨٨ ·

٦ ـ شارف ص ٢٠١ عن حولية ـ « رؤية دانيال » ·

٧ ـ بولياك ٣/٤ نقلا عن ابن النديم ودانلوب ص ١١٩ ·

٨ ـ بولياك ٣/٤ عن شولسون (١٨٦٥) ·

٩ ـ بولياك ٣/٤ وبارون ج ٣ ص ٢١٠ وهامش ص ٤٧ ·

١٠ ـ بولياك

١١ ـ ماركار (١٩٠٣) ص ٦ نقلا عن الدمشقى ·

١٢ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٩٠ نقـلا عن البكرى ق ١١ (الممـالك والمسالك) ·

١٣ ـ بيورى ص ٤٠٨ ·

١٤ ـ شارف هامش ص ١٠٠

١٥ ـ بيورى هامش ٤٠٦ ·

١٦ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٢٧ ·

١٧ ـ بارون (١٩٥٧) ج ٣ ض ٢٠١ ·

١٨ ـ دانلوب ص ٢٢٠ ·

١٩ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ١٢ نقلا عن ابراهام بن داود ·

الرقم		المرجــــع

الفصل الثالث

١ ـ مقال عن الخزر للدكتور سنيور فى دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٣ ٠

٢ ـ دانلوب : « الخزر » فى كتاب التاريخ العالمى لليهود ـ ١٧٧ ٠

٣ ـ دانلوب ١٨١ عن بارهبرائيس والمنبيجى ٠

٤ ـ ماركار ٥ ، ٤١٦ دانلوب (هامش ٤٢ وبيورى ٤٠٨ (هنـاك اختلافات طفيفة فى تاريخ الأحداث) ٠

٥ ـ بارتا ٢٧ ٠

٦ ـ توينبى ٥٤٧ ٠

٧ ـ توينبى ٤٤٦ ٠

٨ ـ توينبى ٤٤٦ ـ بيورى ٤٢٢ ٠

٩ ـ مكارتنى (١٩٣٠) ٢١٣ نقلا عن تقرير لابن رسته (حوالى ٩٠٥م) شرحه جارديزى (حوالى ١٠٥٠) ٠

١٠ ـ أطلس تاريخ العصور الوسطى ص ٥٨ (١٩٦١) لمؤسسة بنجوين

١٠أ ـ دانلوب (١٩٥٤) ٢٠٩ نقلا عن المسعودى ٠

١١ ـ توينبى ٤٤٦ ٠

١٢ ـ زكى وليدى طوقان ٨٥ ٠

١٣ ـ مكارتنى ٢١٤ نقلا عن ابن رسته ٠

١٤ ـ مكارتنى ٢١٤ نقلا عن ابن رسته ٠

١٥ ـ مكارتنى ٢١٥ نقلا عن ابن رسته ٠

١٦ ـ مكارتنى ٢١٤ ـ ٢١٥ ٠

١٧ ـ مكارتنى ص أ فى المقدمة ٠

١٨ ـ مكارتنى ص ٥ فى المقدمة ٠

١٩ ـ توينبى ٤١٩ ومكارتنى ١٧٦ ٠

٢٠ ـ توينبى ٤١٨ ٠

٢١ ـ توينبى ٤٥٤ ٠

٢٢ ـ توينبى ٠

الرقم	المرجـــع
٢٣	ـ قنسطنطين : بشأن ادارة الامبراطورية الفصل ٣٩ ، ٤٠ ٠
٢٤	ـ توينبى ٤٢٦ ٠
٢٥	ـ بيورى ٤٢٦ ٠
٢٦	ـ توينبى ٤٢٧ ٠
٢٧	ـ مكارتنى ـ ١٢٧ ٠
٢٨	ـ بارون جزء ٣ ص ٢١١ ، ٣٣٢ ٠
٢٩	ـ پارتا ٩٩ ، ١١٣ ٠
٣١	ـ بيورى ٤٢٤ ٠
٣٢	ـ مكارتنى ٠
٣٣	ـ مكارتنى ٧١ ٠
٣٤	ـ مكارتنى ٠
٣٥	ـ مكارتنى ٧٦ نقلا عن حوليات ادمونت ٠
٣٦	ـ قنسطنطين : ادارة الامبراطورية الفصل ٤٠
٣٧	ـ مكارتنى ١٢٣ ٠
٣٨	ـ مكارتنى ١٢٢ ٠
٣٩	ـ مكارتنى ١٢٣ ٠
٤٠	ـ دانلوب (١٩٥٤) ١٠٥ ٠
٤١	ـ بيورى ٠
٤٢	ـ توينبى ٤٤٨ ٠
٤٣	ـ توينبى ٤٤٧ ٠
٤٤	ـ بيورى ٤٢٢ ٠
٤٥	ـ توينبى ٤٤٨ ٠
٤٦	ـ الحولية الروسية ٦٥ ٠
٤٧	ـ توينبى ٥٠٤ ٠
٤٨	ـ الحولية الروسية ٠
٤٩	ـ الحولية الروسية ٨٢ ٠
٥٠	ـ الحولية الروسية ٨٣ ٠
٥١	ـ الحولية الروسية ٧٢ ٠

الرقم المرجـــع

٥٢ ـ الحولية الروسية ٨٤ ٠
٥٣ ـ بيورى ٤١٨ ٠

الفصل الرابع

١ ـ الحولية الروسية ٨٤ ٠
٢ ـ دانلوب (١٩٥٤) ٢٣٨ ٠
٢أ ـ دانلوب (١٩٥٤) ٢١٠ نقلا عن المسعودى ٠
٢ب ـ دانلوب (١٩٥٤) ٢١١ ـ ٢١٢ عن المسعودى ٠
٣ ـ زكى وليدى طوقان ٠
٤ ـ الحولية الروسية ٨٤ ٠
٤أ ـ الحولية الروسية ٨٤ ٠
٥ ـ الحولية الروسية ٩٠ ٠
٦ ـ توينبى ـ ص ٤٥١ ٠
٧ ـ الحولية الروسية ص ٩٤ ٠
٨ ـ الحولية الروسية ص ٩٧ ٠
٩ ـ الحولية الروسية ص ٩٧ ٠
١٠ ـ الحولية الروسية ص ٩٨ ٠
١١ ـ الحولية الروسية ص ١١١ ٠
١٢ ـ الحولية الروسية ص ١١٢ ٠
١٣ ـ فرنادسكى ج (١٩٤٨) ص ٢٩ و ٣٣ ٠
١٤ ـ قنسطنطين ـ ادارة المراسم ص ١٠ ـ ١٢ ٠
١٥ ـ توينبى ص ٥٠٨ ٠
١٦ ـ بيورى ـ ص ٤١٤ ٠
١٧ ـ المصدر ص ٢٥٠ ٠
١٨ ـ دانلوب (١٩٥٤) ٢٤٥ ـ اقتباس ٠
١٩ ـ زكى وليدى طوقان ص ٢٠٦ ٠
٢٠ ـ أحمد طوسى (القرن ١٢ م) اقتباس زكى وليدى ٢٠٥ ٠
٢١ ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٤٩ ٠

الرقم	المرجـــع
٢٢	ـ بارون جـ ٤ ص ١٧٤ ٠
٢٣	ـ دانلوب (١٩٥٤) ٢٥١ ـ اقتباس ٠
٢٤	ـ بارون جـ ٤ ص ١٩٢ ـ اقتباس ٠
٢٥	ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٦٠ ـ اقتباس ٠
٢٦	ـ زكي وليدى طوقان ص ١٤٣ ٠
٢٧	ـ زكي وليدى المقدمة ص ٢٧ ٠
٢٨	ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٦١ ٠
٢٩	ـ فرنادسكي ص ٤٤ ٠
٣٠	ـ بولياك الفصل السابع ٠
٣١	ـ المصدر السابق ٠
٣٢	ـ بارون جـ ٣ ص ٢٠٤ ٠
٣٣	ـ بارون ٠

الفصل الخامس

١	ـ بارون جـ ٣ ص ٢٠٦ ٠
٢	ـ المصدر السابق ص ٢١٢ ٠
٣	ـ اقتباس مكارتني هامش ص ١٨٨ ٠
٤	ـ دائرة المعارف اليهودية العالمية ـ مقال « تيكا » ٠
٥	ـ دانلوب (١٩٥٤) ص ٢٦٢ ٠
٦	ـ بولياك الفصل التاسع ٠
٧	ـ بارون جـ ٣ ص ٢٠٦ ٠
٨	ـ بولياك الفصل التاسع ٠
٩	ـ بولياك الفصل السابع ـ بارون جـ ٣ ص ٣١٨ ٠
١٠	ـ بروتزكوس ـ دائرة المعارف اليهودية مقال خزارين ٠
١١	ـ بولياك نقلا عن شيبر ٠
١٢	ـ بولياك الفصل التاسع ٠
١٣	ـ بارون ـ جـ ٣ ص ٢١٧ ٠
١٤	ـ بولياك الفصل التاسع ٠

الرقم　　　　　　　　　　المرجـــع

١٥ ـ المصدر السابق ٠
١٦ ـ المصدر السابق ٠
١٧ ـ بولياك ـ الفصل التاسع ٠
١٨ ـ دانلوب ص ٢٢٢ ٠
١٩ ـ فتولانى أ ـ (١٩٦٢) ص ٢٧٨ ٠
٢٠ ـ بولياك وكوتشيرا (١٩١٠) ٠
٢١ ـ فتولانى ٢٧٤ ٠
٢٢ ـ فتولانى ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ باأون ج ٣ ص ٢١٧ وبولياك ٠
٢٣ ـ بارون ج ٣ ص ٢١٩ ٠
٢٤ ـ بولياك الفصل السابع ٠
٢٥ ـ دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٣ (الأدب البيدش) ـ
٢٦ ـ المصدر المشار اليه الفصل الثالث ٠
٢٧ ـ المصدر السابق ٠
٢٨ ـ المصدر السابق ٠
٢٩ ـ زبوروفسكى م وهرتزوج (١٩٥٢) ص ٤١ ٠
٣٠ ـ بولياك الفصل الثالث ٠
٣١ ـ المصدر السابق الفصل السابع ٠
٣٢ ـ المصدر السابق الفصل الثالث ٠

الفصل السادس

١ ـ بارون ـ ج ٤ ص ٢٧٧ ٠
٢ ـ بارون ج ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦ ٠
٣ ـ بارون ج ٤ ص ٧٧ ٠
٤ ـ روث ـ (١٩٧٣) ٠
٥ ـ روث ٠
٦ ـ بارون ج ٤ ص ٢٧١ ٠
٧ ـ المصدر السابق ص ٧٣٠ ٠
٨ ـ كوتشيرا ص ٢٣٣ ٠

الرقم | المرجـــع

٩ ـ دائرة المعارف البريطانيــة ـ الطبعة ١٤ جـ ٦ ص ٧٧٢ مقـال « الحروب الصليبية » ٠

١٠ ـ بارون جـ ٤ ص ٩٧

١١ ـ المصدر السابق ص ١٠٤ ٠

١٢ ـ المصدر السابق ص ١٠٥ وهامش ٢٩٢ ٠

١٣ ـ دوبنوف س (١٩٢٦) ص ٤٢٧ ٠

١٤ ـ المصدر السابق ص ٤٢٨ ٠

١٥ ـ بارون ـ جـ ٤ ص ١٢٩ ٠

١٦ ـ المصدر السابق ص ١١٩ ٠

١٧ ـ المصدر السابق ص ١١٦ ٠

١٨ ـ ميزيس م (١٩٢٤) ص ٢٧٥ ٠

١٩ ـ المصدر السابق ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ٠

٢٠ ـ المصدر السابق ص ٢٧٣ ٠

٢١ ـ كوتشيرا ٢٣٥ ـ ٢٣٦ و ٢٤١ ٠

الفصل السابع

١ ـ فيتولانى ٠

٢ ـ ميزيس ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ ٠

٣ ـ دائرة المعارف اليهودية جـ ١٠ ص ٥١٢ ٠

٤ ـ ميزيس ص ٢٧٩ نقلا عن فوهرمان (١٧٣٧) ٠

٥ ـ ميزيس ـ المصدر السابق ٠

٦ ـ سمث هـ ٥٠ هامش ص ٦٥ ٠

٧ ـ ميزيس ص ٢١١

٨ ـ المصدر السابق ص ٢٦٩ ٠

٩ ـ المصدر السابق ص ٢٧٢ ٠

١٠ ـ المصدر السابق ص ٢٧٢ ٠

١١ ـ سمث : مقال بمجلة جمعية الدراسات الشرقية لجامعة جلاسجو جـ ٥ ص ٦٦ ٠

الرقم	المرجـــع

١٢ ـ كوتشيرا ص ٢٤٤ ٠

١٣ ـ كوتشيرا ص ٢٤٣ ٠

١٤ ـ بولياك الفصل التاسع ٠

١٥ ـ بولياك ٠

١٦ ـ بولياك ٠

١٧ ـ روث ٠

١٨ ـ روث ٠

١٩ ـ المصدر السابق ٠

الفصل الثامن

١ ـ بولياك ٠

٢ ـ دائرة المعارف البريطانية (١٩٧٣) جـ ١٢ ص ١٠٥٤ ٠

٣ ـ توماس (١٩٥٨) ص ٣١ ـ ٣٢ ٠

٤ ـ ربلى (١٩٠٠) ص ٣٧٧ ٠

٥ ـ المصدر السابق ص ٣٧٨ ٠

٦ ـ فيشبرج (١٩١١) ص ٣٧ ٠

٧ ـ فيشبرج الفصل ٢ ٠

٨ ـ باتاى ٠

٩ ـ توماس ص ٣٠ ٠

١٠ ـ فيشبرج ص ٦٣ ٠

١١ ـ فيشبرج ص ٦٣ ٠

١٢ ـ باتاى ص ١٠٥٤ ٠

١٣ ـ شابيرو (١٩٥٣) ص ١٨٦ ـ ١٨٧) ٠

١٤ ـ فيشبرج ص ١٨١ ٠

١٥ ـ الكتاب المقدس ـ سفر الملوك الأول الاصحاح الحادى عشر ـ ١ ٠

١٦ ـ فيشبرج ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ٠

١٧ ـ فيشبرج ص ١٨٩ ٠

١٨ ـ كوماس ص ٣١ ٠

الرقم	المراجـــع
١٩	ـ توينبي (١٩٤٧) ص ١٣٨ .
٢٠	ـ جراتز ـ جـ ٢ ص ٢١٣ .
٢١	ـ المصدر السابق ص ٤٠ ـ ٤١ جـ ٣ .
٢٢	ـ فيشبرج ص ١٩١ .
٢٣	ـ رينان (١٨٨٣) ص ٢٤ .
٢٤	ـ فيشبرج ص ٧٩ .
٢٥	ـ ربلي ص ٣٩٤ .
٢٦	ـ فيشبرج ص ٨٣ نقلا عن لوشان .
٢٧	ـ فيشبرج ص ٨٣ .
٢٨	ـ ربلي ص ٣٩٥ .
٢٩	ـ ليريس (١٩٥٨) ص ١١ ـ ١٢ .
٣٠	ـ فيشبرج ص ٥١٣ .
٣١	ـ فيشبرج ص ٣٣٢ .
٣٢	ـ شابيرو هـ (١٩٥٣) ص ٨٠ .
٢٣	ـ فيشبرج ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ نقلا عن كروويد .
٣٤	ـ ربلي ص ٣٩٨ .
٣٥	ـ فيشبرج ص ١٧٨ .

SELECTED BIBLIOGRAPHY

Alföldi 'La Royauté Double des Turcs', *2me Congress Turc* d'Histoire (Istanbul, 1937).

Allen, W. E. D., *A History of the Georgian People* (London, 1932).

Annals of Admont, Klebel, E., 'Eine neu aufgefundene Salzburger Geschichtsquelle', *Mitteilungen der Gesellschaft für Salzburger Landeskunde*, 1921.

Arne, T. J., 'La Suède et l'Orient', *Archives d'Etudes Orientales*, 80. v. 8, Upsal, 1914.

Artamonov, M. I., *Studies in Ancient Khazar History* (in Russian) (Leningrad, 1936).

Artamonov, M. I., *Khazar History* (in Russian) (Leningrad, 1962).

Bader, O. H., *Studies of the Kama Archoeological Expedition* (in Russian) Kharkhov, 1953).

Al-Bakri, *Book of Kingdoms and Roads*, French tr. by Défreméry, *J. Asiatique*, 1849.

Ballas, J. A., *Beiträge zur Kenntnis der Trierischen Volkssprache* (1903).

Bar Hebraeus, *Chronography* (Oxford, 1932).

Barker, F., 'Crusades' in *Enc. Britannica*, 1973 printing.

Baron, S. W., *A Social and Religious History of th Jews*, Vols. III and IV (New York, 1957).

Bartha, A., *A IX-X Szazadi Magyar Tarsadalom* (Hungarian Society in the 9th-10th Centuries) (Budapest, 1968).

Barthold, V., see Gardezi and *Hudud al Alam*.

Beddoe, J., 'On the Physical Characters of the Jews', *Trans. Ethn. Soc.*, Vol I. pp .222-38, London, 1861.

Ben Barzillay, Jehudah, Sefer ha-Ittim ('Book of the Festivals') *(circa* 1100).

Ben-Daud, Ibrahim, *Sefer ha-Kabbalah, in Mediaeval Jewish* Chronicles, ed. Neubauer, I, 79.

Benjamin of Tudela, *The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela,* Asher A., tr. and ed., 2 vols. (London and Berlin. 1841).

Blake, R. P. ,and Frye, R. N. 'Notes on the Risala of Ibn Fadlan' in *Byzantina Metabyzantina*, Vol. I, Part II, 1949.

Brutzkus, J., 'Chasaren' in *Jewish Enc.* (New York, 1901-06).

Bury, J. B., *A History of the Eastern Raman Empire* (London, 1912).

Bury, J. B., *Byzantinische Zeilschrift* XIV, pp. 511-70.

Buxtorf, J., fil., ed., Jehuda Jalevi, *Liber Cosri* (Basle, 1660).

Carpini, *The Texts and Versions of John de Plano Carpini,* ed. Hakluyt, Works, Extra Series v. 13 (Hakluyt Soc., 1903).

Cassel, Paulus (Selig), *Magyarische Alternthümer* (Berlin. 1847).

Cassel, Paulus (Selig), *Der Chasarische Königsbrief aus dem* 10. *Johrhundert* (Berlin, 1876).

Cedrenus, Georgius, ed. Bekker (Bonn, 1839).

Chwolson, D. A., *Eighteen Hebrew Grave Inscriptions from the Crimea (in* German: St Petersburg, 1865) (in Russian: Moscow, 1869).

Chwolson, D. A., *Corpus of Hebrew Inscription,* German ed. (St Petersburg, 1882)

Comas, J., 'The Race Question in Modern Science' (UNESCO, Paris, 1958).

Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio,* revised 2nd ed. of Moravcsik and Jenkins' text (Washington DC, 1967).

Constantine Porphyrogenitus, *De Cerimoniis*, ed., with commentary, A. Vogt (Paris, 1935-40).

Dimaski, Muhammad, *Manuel de la Cosmographie du Moyen Age (Copenhague*, 1874).

Disraeli, B., *The Wondrous Tale of Alroy* (London, 1833).

Druthmar of Aquitania, Christian, *Expositio in Evangelium Mattei*, in Migne, *Patrologia Latina* (Paris, 1844-55).

Dubnow, S., *Weltgeschichte des jüdischen Volkes, Band* IV *(Berlin*, 1926).

Dunlcp, D. M., *The History of the Jewish Khazars* (Princeton, 1954).

Dunlop, D. M., 'The Khazars' in *The World History of the Jewish People*, see Roth, ed.

Dunlop, D. M., 'Khazars' in *Enc. Judaica*, 1971-2 printing.

Eldad ha-Dani, *Relations d'Eldad le Danite, Voyageur du* IXe *Siècle* (Paris, 1838).

Fishberg, M., *The Jews — A Study of Race and Environment* (London and Felling-on-Tyne, 1911).

Frachn, *Khazars*, Memoirs cf the Russian Academy (1822).

Franzer, Sir James, 'The Killing of the Khazar Kings' in *Folklore*, XXVIII, 1917.

Frye, R. N., see Blake, R. P.

Fuhrmann, *Alt-und Neuösterreich* (Wien, 1737).

Gardezi, Russian tr. Barthold, Académie Impériale des Sciences, série VIII, Vol. I, No. 4 (St Petersburg, 1897).

Gibb, H. A. R., and de Gojee, M. J. article on 'Arab Historiography' in *Enc. Brittanica*, 1955 printing.

Gibbon, E., *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, Vol. V (2nd ed., London, 1901).

Goeje, de, ed., *Bibliotheca Geographorum Arabicorum* (Bonn).
Goeje, de, see Gibb, H. A. R.

Graetz, H. H. *History of the Jews* (Philadelphia, 1981-98).

Grdgoire, H., 'Le "Glozel" Khazare', *Byzantion*, 1837, pp. 225-66.

Halevi, Jehuda, *Kitab al Khazari*, tr. Hirschfeld, new revised ed (London, 1931); see also Buxtorf, J., fil.

Harkavy, A. E., 'Ein Briefwechsel zwischen Cordova und Astrachan zur Zeit Swjatoslaws (um 960), als Beitrag zur alten Geschichte Süd-Russlands' in *Russische Revue,* Vol. VI, 1875, pp. 69-97.

Harkavy, A. E., *Altjühische Denkmäler aus der Krim*, Memoirs of the Russian Academy (1876).

Herzog, E., see Zborowski, M.

Hudud al Alam ('Regions of the World'), Barthold V., ed. (Leningrad, 1930), translation and explanation, Minorsky, V. (London, 1937).

Hussey, J. M., *Cambridge Mediaeval History,* Vol. III c (1966).

Ibn Fadlan, see Zeki Validi Togan ; also Blake, R. P., and Frye, R. N.

Ibn Hawkal, *Bibliotheca Geographorum Arabicorum*; 2 ed. Kramers (1939). See also Ouseley, Sir W.

Ibn Jakub, Ibrahim, Spuler, B., in *Jahrbücher für die Geschichte* Osteuropas, III, 1-10.

Ibn Nadim, *Kitab al Fihrist ('Bibliographical Encyclopaedia')*, ed. Flügel.

Ibn Rusta, ed. de Goeje, *Bibliotheca Geographoru Arabicorum* VII.

Ibn-Said al-Maghribi. Bodleian MS quoted by Dunlop (1954). p. 11.

Istakhri, ed. de Goeje, *Bibliotheca Geographorum Arabicorum*,. Pars. 1.

Jacobs, J., 'On the Racial Characteristics of Modern Jews', *J. Anthrop. Inst.*, Vol. XV, pp. 23-62, 1886.

Kahle, P. E., *Bonn University in pre-Nazi and Nazi Times : 1923-1939. Experiences of a German Professor, privately* printed in London (1945).

Kahle. P. E., *The Cairo Geniza* (Oxford, 1959).

Karpovich, M., see Vernadsky, G.

Kerr, N., *Inebriety* (London, 1889).

Kniper, A. H., 'Caucasus, People of' in *Enc. Britannica*, 1973 printing.

Koestler, A., 'Judah at the Crossroads' in *The Trail of the* Dinosaur (London and New York, 1955 ; Danube ed., 1970).

Kokcvtsov, P., *The Hebrew-Khazar Correspondence in the Tenth Century* (in Russian) (Leningrad. 1932).

Kutschera, Hugo Freiherr von, *Die Chasaren* (Wien, 1910).

Landau, 'The Present Position of the Khazar Problem', (in Hebrew). Zion, Jerusalem, 1942.

Laszlo, G., *The Art of the Migration Period* (London, 1974).

Lawrence, T. E., *Seven Pillars of Wisdom* (London, 1906 ed.).
Leiris, M., 'Race and Culture' (UNESCO, Paris, 1958).

Luschan, F. von, 'Die anthropologische Stellung der Juden', *Correspondenzblatt der deutchen Gesellschaft für Anthropologie*, etc., Vol. XXIII, pp. 94-102, 1891.

Macartney, C. A., *The Magyars in the Ninth Century* (Cambridge, 1930).

McEvedy, C., *The Penguin Atals of Mediaeval History* (1961).

Marquart, J., *Osteuropaische und ostasiatische Strefzüge* (Hil*desheim*, 1903).

al-Masudi, *Muruj udh-Dhahab wa Maadin ul-Jawahir* ('Mea dows of Gold Mines and Precious Stones'), French tr., 9 vol. (Paris, 1861-77).

Mieses, M., *Die Entstehungsuhrsache der Jüdischen Dialikte* (Berlin-Wien, 1915).

Mieses, M., *Die Jiddische Sprache* (Berlin-Wien, 1924).
Minorsky, V., see *Hudud al Alam*.

Muquadassi, *Descriptio Imperii Moslemici, Bibliotheca Goegraphorum Arabica* III, 3 (Bonn).

Nestor and pseudo-Nestor, see *Russian Primary Chronicle*.

Obolensky, D., The Byzantine Commonwealth — Eastern Europe 500-1453 (London, 1971).

Ouseley, Sir W., *The Oriental Geography of Ebn Haukal* (Lonlon, 1800).

Paszkiewicz, H., The Origin of Russia (London, 1954).

Patai, R., article J'ews' in Enc. Britannica, Vol. XII, 1054, 1973 printing.

Petachia of Ratisbon, *Sibub Ha'olam,* ed. Benisch (London. 1856).

Photius, *Homilies,* English translation with introduction and commentary by C. Mango (Cambridge, Mass., 1958).

Poliak, A. N. 'The Khazar Conversion to Judaism' (in Hebrew), Zion, Jerusalem, 1941.

Poliak, A. N., *Khazaria — The History of a Jewish Kingdom in Europe* (in Hebrew) (Mossad Bialik, Tel Aviv, 1951).

Povezt Vremennikh Let, see Russian Primary Chronicle.

Priscus, *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae* (Bonn).

Reid, G. A., *Alcoholism (London,* 1902).

Reinach, Th., *'Judaei'* in Dictionnaire des Antiquités.

Reinach, Th., article 'Diaspora' in *Jewish Enc.*

Renan, Ernest, *Le Judaisme comme Race et Religion* (Paris, 1883).

Ripley, W., *The Races of Europe (*London, 1900).

Russian Primary Chronicle, Laurentian Text, tr. and ed. Cross, S. H., and Sherbowitz-Wetzor, C. P. (Cambridge, Mass., 1953).

Roth, C., ed. *The World History of the Jewish People,* Vol. II: *The Dark Ages* (London, 1966).

Roth, C., 'Jews' in *Enc. Britannica,* 1973 printing.

Sava, G., *Valley of the Forgotten People* (London, 1946).

Schram, Anselmus, *Flores Chronicorum Austriae* (1702).

Schultze — Das Martyrium des heiligen Abo von Tiflis, *Texte und Untersuchungen für Geschichte der altchristlichen* Literatur, XIII (1905).

Shapiro, H., 'The Jewish People : A Biological History' UNESCO, Paris(1953).

Sharf, A., *Byzantine Jewry — From Justinian to the Fourth Crusade* (London, 1971).

Sinor, D., *'Khazars'* in Enc. *Britannica,* 1973 printing.

Smith, H., in Proc. *Glasgow University Oriental Society,* V., pp. 65-66.

al-Tabari, *Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden* (Leyden, 1879-1901).

Togen, see Zeki Validi.

Toynbee, A., *A Study of History,* abridgement of Vols. I-VI by D. C. Somervell (Oxford, 1947).

Toynbee, A., *Constantine Porphyrogenitus and his World* (London, New York and Toronto, 1973).

Vasiliev, A. A., *The Goths in the Crimea* (Cambridge, Mass., 1936).

Vernadsky, G. *Ancient Russia* in Vernadsky and Karpovich, *A History of Russia,* Vol. I (New Haven, 1943).

Vernadsky, G., *Kievan Russia,* in the same series, Vol. II (New Haven, 1948).

Vetulani, A., 'The Jews in Mediaeval Poland', *Jewish J. of Sociology,* December, 1962.

Virchow, R., *'Gesamtbericht* ... über die Farbe der Haut, der Haare und der Augen der Schulkinder in Deutchland', *Archiv für Anthropologie,* Vol. XVI, pp. 275-475, 1886.

Weingreen, J., *A Practical Grammar for Classical Hebrew,* 2nd ed., Oxford, 1959.

William of Malmesbury, *De gestis Anglorum.*

Yakubi, *Buldan, Bibliotheca Geographum Arabica* VII (Bonn).

Yakut, *Mujam al-Buldan, ed. Wüstenfeld (Leipzig,* 1866-70)

Zajaczkowski, *The Khazar Culture and its Heirs* (in Polish) (Breslau, 1846).

Zajaczkowski, 'The Problem of the Language of the Khazars', *Proc. Breslau Soc. of Sciences,* 1946.

Zborowski, M., and Herzog, E., *Life Is With People — The Jewish Little-Town of Eastern Europe* (New York, 1952).

Zeki Validi Togan, A., 'Ibn Fadlans Reisebericht' in *Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Band* 24, *Nr.* 3 (Leipzig, 1939).

Zeki Validi Togan, A., 'Völkerschaften des Chasarenreiches im neunten Jahrhundert', *Körösi Csoma-Archivum*, 1940.

أهم مؤلفات آرثر كيستلر

Von Weissen Nächten und Roten Tagen (White Nights and Red Days). Kharkov : Ukrainian State Publishers for National Minorities, 1834.

L'espagne ensanglantée : Un livre noir sur l'espagne. Paris : Editions du Carrefour, 1937.

Spanish Testament (including *Dialogue with Death*). London: Victor Gollancz. 1937.

The Gladiators, trans. Edith Simon. London : Jonathan Cape, 1939.

Darkness at Noon, trans. Daphne Hardy. London: Jonathan Cape, 1841.

Scum of the Earth. London : Jonalwan Cape, 1941.

Dialogue with Death, trans. Trevor and Phyllis Blewitt (Extracted from *Spanish Testament*). Harmondsworth : Penguin, 1942.

Arrival and Departure. London : Jonathan Cape, 1943.

Twilight Bar : An Escapade in Four Acts. London: Jonathan Cape, 1945.

The Yogi and the Commissar and Other Essays. London : Jonathan Cape, 1945.

Thieves in the Night : Chronicle of an Experiment. London: *Macmillan*, 1946.

Insight and Outlook : An Inquiry into the Common Foundations of Science, Art, and Social Ethics. London : Macmillan, 1949.

Promise and Fulfilment : Palestine 1917-1949. London : Macmillan, 1949.

With Others. *The God That Failed.* Edited by Richard Crossman. London: Hamish Hamilton, 1950.

The Age of Longing. London : Collins, 1951.

Arrow in the Blue : An Autobiography London : Collins with Hamish Hamilton, 1952.

The Invisible Writing : An Autobiography. London : Collins with Hamish Hamilton, 1954.

The Trail of the Dinasaur and Other Essays. London : Collins, 1955.*

Reflections on Hanging. London : Victor Gallancz, 1956.

The Sleepwalkers : A History of Man's Changing Vision of The Universe. London : Hutchinson 1959.

With C. H. Rolph. *Hanged by the Neck: An Exposure of Capital Punishment in England.* Harmondsworth: Penguin, 1961.

The Lotus and the Robot. London : Hutchinson ,1961.

Editor. Suicide of a Nation ? An Enquiry into the State of Britain Today. London : Hutchinson, 1963.

The Act of Creation. London : Hutchinson, 1964.

The Ghost in the Machine. London : Hutchinson, 1967.

Drinkers of Infinity : Essays 1955-1967. London : Hutchinson 1968.

Editor, with J.R. Smythies. *Beyond Reductionism : New Perspectives* in the Life Sciences : *The Alpbach Symposium.* London : Hutchinson, 1968.

The Case of the Midwife Toad. London : Hutchinson, 1971.

The Call-Girls. London : Hutchinson, 1972.*

The Roots of Coincidence. London : Hutchinson, 1972.

With Sir Alister Hardy and Robert Harvie. *The Challenge of Chance*. London : Hutchinson, 1973.

The Heel of Achilles : Essays 1968-1973. London : Hutchinson, 1974.

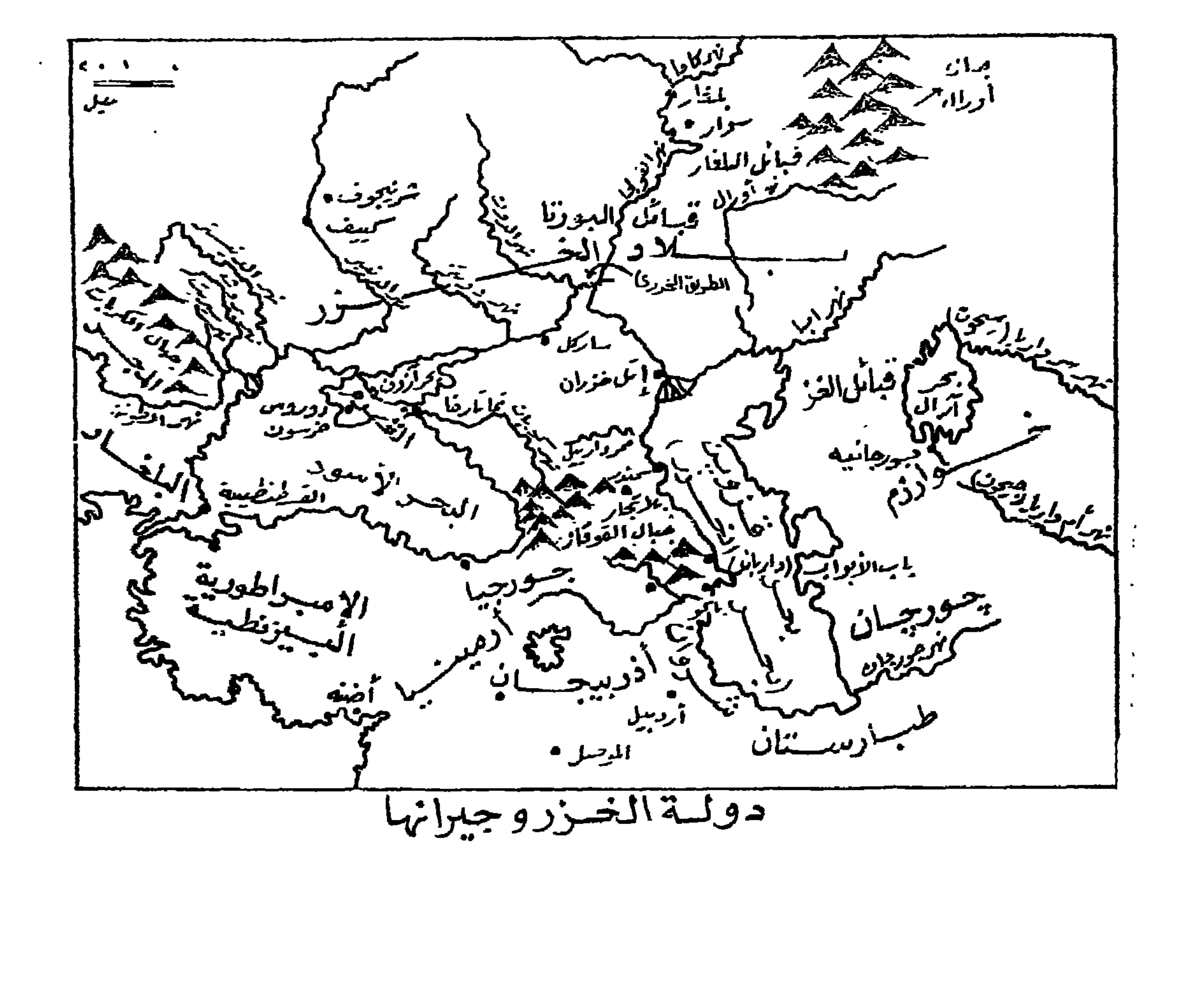
With Arnold Toynbee and Others. *Life after Death*. London : *Weidenfeld & Nicolson*, 1976.

The Thirteenth Tribe : The Khazar Empire and Its Heritage. London : Hutchinson, 1976.

Janus : A Summing Up. London : Hutchinson, 1978.

Bricks to Babel : *Selected Writings with Comments by the Author. London : Hutchinson*, 1980.

Kaleidoscope. London : Hutchinson, 1981.



دولة الخزر وجيرانها

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩١/٤٥١٧

ISBN — 977 — 01 — 2765 — 5

يعرض هذا الكتاب لتاريخ دولة الخزر وعلاقتها الوثيقة بيهود اليوم مذ بدات جولتها التاريخية فى العصور الوسطى حين امتد سلطانها من البحر الأسود إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ومن القوقاز إلى الفولجا ـ ولعبت دورا هاما فى السياسة الدولية بحكم موقعها بين قوتين عظميين : الامبراطورية البيزنطية المسيحية والامبراطورية العربية الاسلامية ـ واختارت اليهودية ديانة لها ـ وقد غزاها الروس فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ثم سقطت تحت ضربات المغول الكاسحة فى القرن الثالث عشر ـ ونزح عنها قبل هذه الاحداث وبعدها كثرة من اهلها اقاموا جاليات يهودية ضخمة فى عدد من الدول شرق وغرب اوربا ولا سيما فى بولندة والمجر وروسيا .

ويورد المؤلف ـ وهو يهودى ـ اسانيد كثيرة تدعم الراى القائل بان اكثر يهود اليوم ينحدرون من الخزر الذين سماهم «القبيلة الثالثة عشرة» اى انهم لايمتون بنسب إلى اسباط اسرائيل الإثنا عشر الوارد ذكرها فى التوراة .



مطابع الهيئة

٣٢٥ قرشـــا